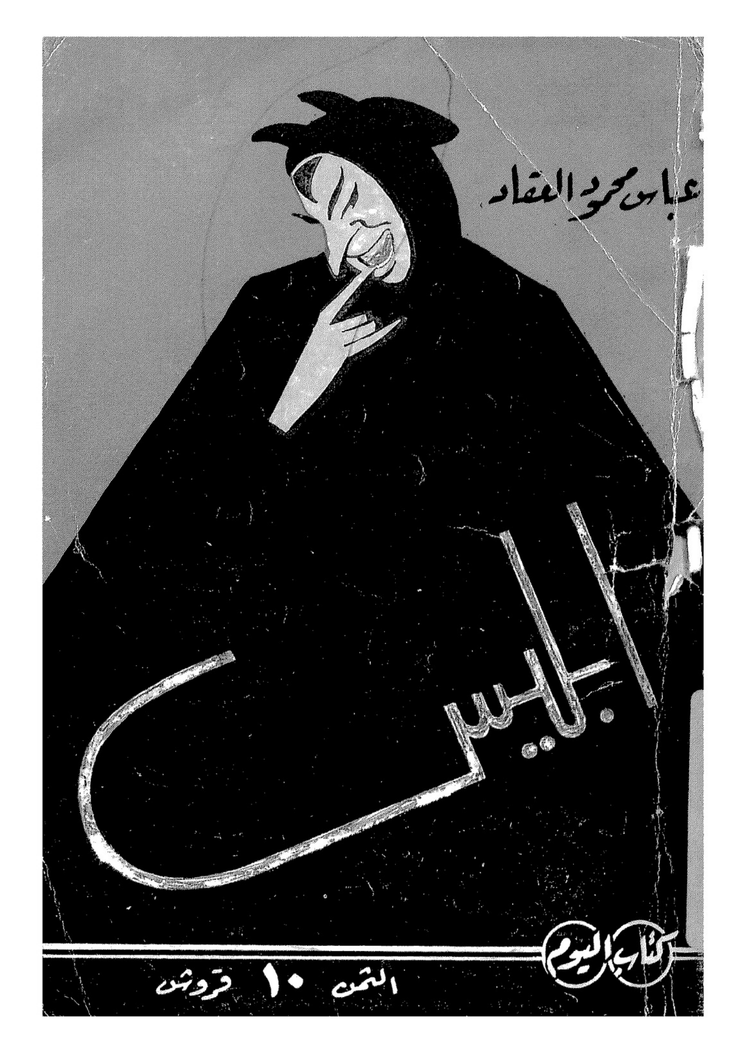

عباس محمود العقاد
ابليس
كتاب اليوم
الثمن ١٠ قروش

إهـــــــداء2005

الأستاذ الدكتور/ أحمد حمدي محمود

القاهرة



بحث فى تاريخ الخير والشر وتمييز الانسان
بينهما من مطلع التاريخ إلى اليوم





١٠ قروش

فاتحة خير

يوم عرف الانسان الشيطان كانت فاتحة خير

وهى كلمة رائقة معجبة ، تروع المسامع وتستحق فى بعض الاذواق ان تقال ولو تسامح القائلون والسامعون فى بعض الحقيقة طلبا لبلاغة المجاز

ولكنها فى الواقع هى الحقيقة فى بساطتها الصادقة التى لا مجاز فى لفظها ولا فى معناها ، ولا تسامح فى مدلولها عند سامع ولا قائل ، بل هى من قبيل الحقائق الرياضية التى تثبت بكل برهان وتقوم الشواهد عليها فى كل مكان

فقد كانت معرفة الشيطان فاتحة التمييز بين الخير والشر ، ولم يكن بين الخير والشر من تمييز قبل أن يعرف الشيطان بصفاته وأعماله وضروب قدرته وخفايا مقاصده ونياته

كان ظلام لا تمييز فيه بين طيب وخبيث ، ولا بين حسن وقبيح، فلما ميز الانسان النور عرف الظلام ، ولما استطاع ادراك الصباح استطاع أن يعارضه بالليل ، وبالمساء .

كانت الدنيا أهلا لكل عمل يصدر منها ، ولم يكن بين أعمالها

الحسان وأعمالها القباح من فارق الا أن هذا يسر وهذا يسوء ، والا أن هذا يؤمن وهذا يخاف . أما أن هذا جائز وهذا غير جائز فى ميزان الاخلاق فلم يكن له مدلول فى الكلام ، ولم يكن له ـ من باب أولى ـ مدلول فى الذهن والوجدان

وكانت القدرة هى كل شىء

فلما عرف الانسان كيف يذم القدرة ويعيبها عرف القدرة التى تجمل بالرب المعبود والقدرة التى لاتنسب اليه ولكنها تنسب الى ضده ونقيضه

وهو الشيطان

وكانت فاتحة خير لاشك فيه

كانت فاتحة خير بغير مجاز وبغير تسامح فى التعبير

وكانت للانسان عين يعرف بها الظلام ، لأنها عرفت النور وخرجت من غيابة الظلمات التى كانت مطبقة عليه .

فتاريخ الانسان فى أخلاقه الحية لاينفصل من تاريخ الشيطان .

وأوله هذا التمييز بين الخير والشر

ولكنه الاول فى طريق طويل لم يبلغ نهاية مطافه

فبعد التمييز بين الخير والشر خطوة أخرى ألزم من تلك الخطوة الاولى فى تاريخ الاخلاق الحية

وتلك هى معرفة الخير فى الصميم

فقد كان على الانسان أن يعرف حقيقـة الخير ليعمله على علم وبصيرة

فليس الخير خلوا من الشر وكفى

وليس الخير ابتعادا من الشر وكفى

وليس الخير عجزا عن الشر وكفى

وليس الخير مخالفة للشر وكفى

كلا • بل الخير شيء قائم بذاته وليس قصاراه انه امتناع من شيء سواه

الخير هو القدرة على الحسن مع القدرة على القبيح ، وهوالاختيار المطلوب بعد التميز بين القدرتين

ولهذا عرفنا من تاريخ الشيطان انه سقط لانه أنف من تفضيل آدم عليه وعلى الجان والملائكة أجمعين

وانما فضل آدم عليهم لانه عرضة للخير والشر ، ولأنه مطالب بالخيرات وهو ممتحن بالشرور

فضل على الملائكة الذين لايصنعون الشر لأنهم بمنجاة من غوايته ، وفضل على الجان الذين لايختارون بين نقيضين

ومن تلك الآونة عرفت وظيفة الشيطان فى هذا العالم وعرفت معها فضيلة الانسان

فانما وظيفة الشيطان أن يثبت عجز الانسان أمام الغوايةوالفتنة، وأن يمتحن مشيئته وهو يتردد بين الخير والشر والمباح والحرام •

وانما فضيلة الانسان أن يصنع خيرا وللشر عنده غواية وله فى نفسه فتنة ، ولولا ذلك لما كان له فضل على الملائكة ولا على الجان

لا جرم كان تاريخ الشيطان تاريخا للاخلاق الحية فى وجدان آدم وبنيه

* * *

وتمتحن الاخلاق الحيـــة بمحنة المعرفة والجهل كما تمتحن بمحنة الخير والشر والفضيلة والرذيلة •

فمهما تتخيل من مخلوق قابل لان يعرف بعد جهل ويدرك بعد قصور فليس ـ غير الانسان ـ مصداق لذلك المخلوق •

ليست الملائكة ولا الجان في صورتها الحية مخلوقات نامية في معرفتها ، عالة ماتعلمه بعد جهله ، متقدمة من الطفولة الى الرشد الى غاية المدى المقدور لكل مخلوق

ولكنها في صورتها تعلم ماتعلمه كأنه من خصائص معدنها التى لاتفارقها ، فلا اجتهاد لها فيما تعلم ولا فوات على اجتهادها فيما تجهل ، وكل ماأوتيته من علم فلا حيلة لها ولا حول فيه ، كلمعان النور ووهجان النار ، ولألاء الجوهر الصافى وجريان الماء وخفقان الهواء •

ولا كذلك سليل التراب • انه ليعلم حتى لتعجب كيف علم ، وانه ليجهل حتى لتعجب كيف جهل ، ومن كان قابلا لأن يأتى بالعجب فى علمه وجهله فهو مسئول عن هذا وذاك

« واذ قال ربك للملائكة انيجاعل فى الارض خليفـــة قالوا اتجعل فيهامن يفسد فيهاويسفكالدماءونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى اعلم مالاتعلمون

« وعلم آدم الاسماء كلها ثمعرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين

« قالوا سبحانك لاعلم لنا الاماعلمتنا انك انت العليم الحكيم

« قال ياآدم انبئهم بأسمائهم فلما انبأهم بأسمائهم قال الم اقل لكم انى أعــلم غيب السماوات والارض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون .

« واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فســجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين »

فليست القداسة أن تكون نورا وأنت نور ، وليس الفخار أن تكون نارا وأنت نار

وانما القداسة والفخار أن تكون نورا ونارا وأنت تراب ، وأن تسبح وتقدس وأنت قادر على الفساد والعدوان

وكلما ذكرت الاخلاق الحية فقد ذكر تاريخ الشيطان فى ثوب الحياة ، وقد ذكر تاريخ الغواية والحرية فى المطاوعة والاعتصام ، وتلك هى الاخلاق الحية كما تعيش فى اللحم والدم وفى القيم والمزايا . فأما الاخلاق فى صفحات الورق وفى مصطلحات الباحثين فهى كلمات وحروف واصداء

ولم يوجد النوع البشرى بصفاته وأخلاقه ليكتبها سطورا على صفحات ، ويجمعها أطروحة فى قاعة درس أو سفرا على الرف الى جانب أسفار

ولكنه وجد بصفاته وأخلاقه ليحياها ويعيش بين حقائقها ويعطيها الاسماء التى تدله على تلك الحقائق كما يستقبلها بحسه وشعوره ويواجهها برجائه وخوفه وباقباله ونفوره ، وينادى بالاسم من هذه الاسماء فلا يفهمه كما تفهم الكلمة عند المراجعة فى القواميس ، بل يفهمها حبا وبغضا ، وغبطة وندما ، ورضوانا وسخطا ، وحركة تنبض بها العروق وسرا يختلج فى الأعماق

وهكذا ينطبع الحى على صفاته وأخلاقه ، وهكذا تتعارف عليها الامم وهى تحيا وتعتلج بالحياة ، وهكذا تضطرب بين الاكوان التى لاتحصرها الاوراق ولا تحدها الحروف ولا تحتويها العقـــول ، بل تجىء العقول طارئا عليها وضيفا فى رحابها ، وقد مضى عليها فى مكانها أدهار بعد أدهار ، وأسماء بعد أسماء ، ولغات بعد لغات .

الشيطان !

أي مجموعة من الاسفار تؤدى للضمير ماتؤديه هذه الكلمة بقارعة واحدة تنفذ من الآذان الى الاعماق

والى اليوم يكتب الباحثون ألف مذهب ومذهب ، ويلحقون بها ألف « لوجى ولوجى » على غرار السيكولوجى والبيولوجى والميثولوجى وغيرها من اللواحق فى الاواخر على اختلاف الصيغ واللغات

الى اليوم يفرقون بين الصفات والاخلاق بهذه المصطلحات فلا يبلغون بها فى الحس ولا فى الذهن مابلغه المتكلمون بلغة الحياة ولغة الفطرة ولغة «الهيروغليفية» التى تسبق كل كتابة وتلحق بكل كتابة الى آخر الزمان

وقد سمعنا عن الصفات الالهية ، والصفات الملكية ، والصفات الشيطانية ، والصفات الانسانية ، والصفات البهيمية ، والصفات السبعية ، فمن لم يفهم هذه العناوين بمدلولاتها الحية فما هو بفاهم شيئا من فوارق الاخلاق يشرحها له ألف عالم ويسجلها له ألف كتاب

ولمن شاء أن يرفع هذه الكلمات ويضع فى مواضعها كلمات الاصطلاح اللغوى أو الفلسفى من قبيل الاخلاق المثالية والاخلاق الاجتماعية والاخلاق النفعية وأخلاق التقدميين وأخلاق المحافظين ، وماأشبه هذه الكلمات والمصطلحات ، فانه لايحس منها الا أنها بطاقات معلقة على وجهات أو شواخص لا نبض فيها ولا دم ولا حراك .

ولكنه لأول وهلة يسمع الصفات الالهية فيفهم انها أعلى الصفات ويحس أنه يرتفع بالاتجاه اليها والرجاء فيها الى أعلى عليين ، ويستشرف لها بقلبه وينفتح لها بمغالق سريرته ، ويعرفها حقيقة

حية ولا يكون قصاراه من معرفتها انها مادة في معجم أو عنوان على مذهب أو اشارة مرور الى حيث يسير أو لا يسير

ولأول وهلة يسمع الصفات الملكية أو صفات الملائكة فيفهم أنها الطيبة والطهارة والحب والسلامة ، ويقابلها في الوقت نفسه بالحنين اليها لسلامتها ووداعتها والعطف عليها لخفاء الشر عليها واحتجاب أساليب الكيد والخداع عنها .

ولأول وهلة يسمع الصفات الانسانية فيعرف منها مايناقض البهيمية والسبعية ويقابل الالهية والملكية ، ويعرف في الوقت نفسه ان الانسان قابل للطموح الى مايعلو عليه والهبوط الى ماينحدر دونه من صفات الكائنات جمعاء .

ولأول وهلة يسمع الصفات الشيطانية فيفهم انه في موقف احتراس وحذر وان لم يخل من تطلع في أحيان ومن اعجاب في أحيان أخرى ، ولا يضطر الى مراجعة اللغة أو مراجعة الحكمة ليفهم مايحذره من الشيطان ومايستقبله منه بالفكر أو الوجدان ، فان هذه الكلمة تقع في موقعها عنده كأنها نقلت اليه الشيء نفسه محسوسا ملموسا معقولا مدروسا ولم تنقله منه باشارة أو عنوان

وقس على ذلك مايفهمه من كلمات الصفات البهيمية أوالصفات السبعية ، فانها كذلك تنقل اليه أشياء وأحياء ولا تنقل اليه حروفا وكلمات

ان خالق الكون لم يرد باعطاء الناس حياتهم أن يعطيهم قاموسا أو موسوعة من العناوين والمصطلحات ، ففي وسعهم هم ان يعطوا أنفسهم هذه القواميس ، وقد أعطوا أنفسهم هذه القواميس فعلا فاذا هي أكثر الاشياء اختلافا بين قبيل وقبيل وبين أمة وأمة ، واذا

هي برج بابل يمتد على كرة الارض ولا يزال أبدا في حاجة الى ترجمان

ولو كانت هذه المدلولات في اللغات هي الحقائق المقصودة لماكان للمدلول الواحد ألف كلمة في كل لسان

ولكن هذا النوع الانساني تلقى وجوده من خالقه حياة تجيش في ضمائره وفيما حوله بالحقائق الحية كائنا ماكانت أصداؤها في عالم الحروف والرموز والاشارات والكلمات والطلاسم أو في « الهيروغليفية الكونية » على الاجمال .

ومن شاء فليبادل ان كانت له الجرأة !

من شاء واستطاع فليعد بالانسان الى أوله لينتزع من ذاكرته ووجدانه كل ماأحسه وتعلمه من كلمة الشيطان أو كلمة الملك أو كلمة الخطيئة أو كلمة العصيان ، وليضع في مكانها مايقترحه في تصريف اللغة ومصطلحاتها مفسرة ميسرة محكمة مقسمة ، ولينظر ماذا صنع بالانسان فيما مضى ومايصنع به فيما بعد ..فانه قاتله وملقيه في مقبرة من قاموسه الجليل

من كانت له الجرأة ، وكانت لديه القدرة ، فليبادل ولينظر فرق مابين كلماته ومصلحاته ومدلولاته وبين هذه « الهيروغليفية » الكونية التي هي الكلام وهي متكلموه وهي المحسون به وفاهموه

وليقف خاشعا مستعيذا « بالشيطان » من الغرور

وليرجع في أمان هذه « المعوذة » الى تاريخ الشيطان ليعلم منه تاريخ الاخلاق الحية وتاريخ الانسانية الخالدة

فاذا كان لايدرك تاريخ الاخلاق الانسانية حقا وصدقا الا من

تاريخ الشيطان فلا ينكرن هذا الاسم ولا ينكرن وجوده من باب أولى

انه وجود أرسخ من وجود الانسان

ومن لم يكن في وسعه أن يدرك ماوراء هذه الحقيقة فأحرى به ألا يتطفل على الوجود والعدم ، والحياة والموت ، والحق والباطل، والعلانية والخفاء ، والظواهر والاسرار ، فكل أولئك له معناه الذى لا يدركه ولا يدريه

وسنكتب فيما يلى تاريخ الشيطان لنستخرج منه تاريخ الاخلاق الانسانية كما تشخصت فى نفية الحياة ، ونركب عليها بعد ذلك مايوافقها أو يلافقها من مصلحات القاموس !



قبل الشيطان

قبل شيوع صورة الشيطان كانت بديهة الانسان تملأ العالم بأشتات لاتحصى من الارواح والاطياف

وكان من هذه الأرواح والأطياف مايخفى ولا يظهر لأحد، ومنها مايخفى على أناس ويظهر لآخرين بالرقى والعزائم ،ومنها مايتلبس أحيانا بالاجسام ويظهر لكل من لقيه فى مأواه .

ولم يكن الانسان يقسم هذه الارواح الى ذات خير وذات شر ، لأنه لم يميز بين الخير والشر الا بعد معرفته بصورة الشيطان كما تقدم

وانما كانت هذه الارواح تنقسم عنده الى أرواح مصادقة أو أرواح معادية ، والى أرواح نافعة أو أرواح ضارة ، والى أرواح سهلة أو أرواح عصية ، فلا فارق بينها عنده غير درجة الصلح والعداوة أو درجة الفائدة والاذى ، وأما طبيعة الخير وطبيعة الشر فقد جاءت بعد مراحل كثيرة فى طريق الايمان بالارواح .

والاختلاف بين الشر والضرر بعيد .

فالشر لا يصدر منه خير بارادته ، ولكن الضرر قد يصيب اناسا

ولا يصيب آخرين ، وقد يأتى من عمل ولا يأتى من عمل غيره ، وقد يكون الضار بهذا نافعا لذاك ، فليست هناك طبيعة تسوقه الى الشر فى جميع الأحوال ، بل هناك أحوال متعددة واعمال منوعة ، وشأن الارواح فى ذلك شأن الناس من حوله بين قوم من قبيلة وقوم من أعدائها ، أو بين قوم من خاصته فى القبيلة وقوم ينفر منهم وينفرون منه لاسباب عارضة أو باقية لا ترجع الى أصالة فى الطباع

وقد يصح تشبيه عالم الارواح عنده بعالم الغاب أو عالم السباع والحيوان .

فالغاب فيها النمر والثعبان ، وفيها البلبل والعصفور ، ومن حيوانها ما يأمنه ولا يخشاه ، وقد يتألفه ويستخدمه فى مصالحه ويشركه فى مسكنه ، وقد يكون عنده الكلب الانيس وفى الخلاء الكلب المستوحش العقور ، وقد يكون عنده الحصان الداجن وفى الخلاء الحصان الجامح الذى لا نفع منه ولا ضرر ، وجملة الفوارق بينها مسألة أحوال وأحيان أو أحوال رياضة واستعصاء .

وهكذا كان عالم الارواح فى الهمجية الاولى : كان عالم فائدة وضرر ، أو عالم هوادة واستعصاء ، أو عالم صداقة وعداوة ، فأما عالم الخير الأصيل أو عالم الشر الاصيل فلا تتمثل له صورة فى بديهة الانسان قبل انقسام الطبائع وتباين الاقيسة والموازين بين الاعمال والاخلاق .

ويدل على أصالة الايمان بالارواح فى بديهة الانسان انها وجدت فى كل سلالة بشرية من السلالات التى نشأت فى القارات المتقاربة فتعلم بعضها من بعض فى مسائل الدنيا والدين ، أو من السلالات التى وجدت فى الامريكتين منعزلة منذ ادهار لاتعرف لها بداءة ، فهى لم تتعلم تلك العقائد من غيرها ولم ترجع بها الى مصدر معروف فى العالم القديم .

ووجدت هذه العقيدة على أكثرها فى الجزر الاسترالية المتباعدة ، كما وجدت عند حوض الأمازون فى أمريكا الجنوبية ، أو وجدت فى أفريقية الجنوبية أو الشرقية التى يقال انها مهد الجنس البشرى قبل سائر القارات ، ويقال مع ذلك انها تلقت أفواج المهاجرين من الجنس القفقازى قبل فجر التاريخ • •

والمهم فى هذا الشيوع انه أصيل فى البداهة الانسانية وانه لم يكن من تدجيل الكهان والسحرة كما يخطر لمن يسهل عليهم ان يفسروا كل شىء بالدجل والخداع •

ويكاد الشبه بين الارواح فى القارات المتباعدة أن يكون أقرب من الشبه بين الآدميين انفسهم فى تلك القارات ، فالكائن الروحى فى الجزر الاسترالية أشبه بالكائن الروحى فى أمريكا الجنوبية من الامريكيين الاصلاء والاستراليين الاصلاء ، وليس بين روح وروح فى الاقطار المتنائية ذلك الاختلاف الذى يعترى الالوان والاشكال من فعل الجو والتربة والماء والهواء ، فانك قد تنقل الاسترالى من الجزر الى أمريكا الجنوبية فيشعر فيها بالغربة ويريبه من قومها ما يريبه من الغرباء ، ولكنك اذا نقلت روحا من هناك الى هنا أو من هنا الى هناك لم تجده على غرابة فى عالم الأرواح ولم تكن بينه وبين العالم الذى انتقل اليه فجوة من الجنس واللون واللغة أبعد من الفجوة التى بينه وبين سائر الارواح فى وطنه الأصيل ، وانها لظاهرة جديرة بالتنبه لها والتوقف عندها فى علم المقارنة بين الاديان ، لانها قد تفضى بنا الى الوقوف على سليقة دينية شديدة التقارب بين الاجناس والاقوام ، وليس مصدرها من الخيال وحده لأن مخلوقات الخيال وحده بعيدة الفوارق بين أساطير الأمم فى الاقليم الواحد فضلا عن شتى الاقاليم •

وقد كتب الرحالون والبحاثون عن القبائل الفطرية التى وجدوها

فى القارات الخمس خلال رحلاتهم اليها منذ أوائل القرن الثامن عشر الذى نشأت فيه علوم المقابلة بين العقائد والسلالات ، فاذا قدرنا انها تغيرت مع الزمن منذ النشأة الأولى قبل عشرات الالوف من السنين ، ورأينا بعد هذا التغيير مقدار التشابه بينها فى العصر الحاضر كان هذا التشابه حقا أجدر شىء من الباحثين بالالتفات اليه، لانه دليل على أن وحدة السليقه الدينية أقرب جدا من وحدة القريحة والخيال ، اذ ليست أساطير الفنون على درجة من التشابه تقارب ذلك التشابه بين الارواح والاطياف فى الاديان والمعتقدات .

ان الدين أعمق فى كيان الانسان من الخيال الذى يولد الاساطير ويخلق أشباح الفنون ، وقد يكون التقارب بين الاصلاء من الافريقيين والأمريكيين والاوربيين والاستراليين ملحوظا فى تقارب الاوصاف بين الارواح والاطياف حيث لا يلحظ التقارب بين المصنوعات اليدوية نفسها من الادوات وآنية الفخار ، وهى المصنوعات التى تقاس بها طبقات العصور ويحسبها الكثيرون على مثال واحد فى كل عصر من العصور الحجرية أو عصور المرعى أو العصور النحاسية ، ولكنها على كونها محسوسة يحكمها النظر واللمس وتوحى بها المنفعة والحاجة المتكررة لم تبلغ من التقارب والتشابه ما قد بلغته ملامح الارواح والاطياف .

وقد تخصص لكل أقليم من أقاليم القارات رحالون مستقلون فى دراساتهم للاحياء وتنقيبهم عن الآثار ، فيكتب عن الجزر الاسترالية أناس غير الذين يكتبون عن القارة الافريقية ، ويكتب عن سهوب آسيا الشمالية طائفة غير هؤلاء ، فهم لا ينقلون بعضهم من بعض ولا يرجع بعضهم الى بعض فى تسجيل المشاهدات واثبات الكشوف التاريخية ، ولكنهم يعرفون المشابهة بين العقائد حين

يرجعون الى المقارنة والمقابلة ويستخلصون منها ما يستخلصون من وحدة الأصول .

***

ولهذه المشابهات يقرأ القارىء عن « أرواح » أقليم من الاقاليم فلا يضيره كثيرا أن يخطىء فيحسبها أرواح أقليم آخر ، لانهـا بمثابة النبات الذى يصح زرعه على طول السنة فى جميع الارضين ، فيزرع فى هذا الموسم أو ذاك ، وفى هذه البقعة أو تلك ، بغير اختلاف كبير فى طريقة الفلاحة والحصاد .

يقول باريندر Parrinder فى كتابه عن النحل التقليدية فى أفريقية « ان الارواح يمكن ان تتخذ مساكنها فى كل شىء من أشياء الطبيعة : على كل قمة وفى ظل كل شجرة خضراء ، وان التلال والصخور البارزة أحرى أن تكون مأوى للارواح القوية»

الى أن يقول : « وفى الآجام المتشابكة العميقة تسكن الارواح والاطياف ذوات الخطر والاذى ... وحيوانات الغاب ــ أو سكان الارض ــ كثير منها حرام على هذه القبيلة أو تلك ... فاذا قتل أحدها وجبت الترضية له أو يظل فى مطاردة القاتل طيفا لا يفر منه »

ويقول شارل واجلى Wagley فى كتابه عن « بلدة الامازون » من أمريكا الجنوبية : « ان بعض القردة تخاف فى أعماق الغاب وتحسب قردة الجربية Guariba آفة سحرية وبيلة ، وبعضها له قدرة على اختلاس ظل الانسان ... وأشهر أطياف الغاب وأرواحها الكاروبيرا التى تشبه انسانا قزما ويقال ان أقدامها ملتفتة الى ورائها ، وهى تعيش فى أعماق الغـاب ومنها تسمع صرخاتها الطويلة المزعجة ، ويقال انها مغرمة بشراب الروم والتدخين ... » .

ثم يقول : وطيف آخر من الاطياف الخطرة يدعى ماتن تابريرا ، يظهر فى المدن ولا يظهر كالاطياف الاخرى فى الغابات والانهار .. وأصل الاعتقاد فيه على ما يظهر منقول من الديار الاوربية .

ويتكلم مالنوسكى Malinowsky علامة الدراسات الانسانية عن الجزر الاسترالية فيروى قصـــة الروح التى تسمى عندهم بلوما وتذهب بعد مفارقة الجسد الى جزيرة أخرى كأنها العالم الآخر . وهم يعتقدون ان الاشياء لها أرواح تنتقل منها الى حيث تسكن أرواح الموتى ، فيزينون جسد الميت بكل ما كان يزدان به فى الحياة ليجرد منه روحه ويبقى بقيته المحسوسة ، وقد يظهر للميت طيف يسمى كوسى يخاف لقاؤه ولكنه يداعب الناس ولا يبالغ فى ايذائهم ، وحينما سمع صياحه وجبت له الترضية والمبالاة ، وقد يخشى القوم هناك أطيافا أخرى لها علاقة بأرواح الموتى يتخيلونها دائما فى صورة العجائز القباح وقد يشيرون الى عجوز حية معروفة فيقولون عنها أنها قد أصبحت واحدة من تلك الاطياف ذات العلاقة بالموتى ، وانها تعاشرهم بقوة السحر وحيل التعاويذ .

وأفضل المراجع التى يعتمد عليها فى فهم العقائد البدائية تلك الرحلات التى يكتبها طائفة من العلماء عاشوا بين القبائل واختلطوا بها فى جميع أطوارمعيشتها فعرفوا عاداتها بالمعاشرة على فطرتها ولم يعرفوها بالسؤال والتحقيق على منوال الرحالين الذين يذهبون اليها لدراسة علم الاجناس أو تطبيقه عليها .

ومن هؤلاء العلماء الذين عاشوا زمنا بين القبائل فى أفريقية الوسطى الطبيب المشهور البيرت شويتزر صاحب جائزة نوبل منذ سنتين ، ويؤخذ من مذكراته ان أخوف المحظورات عندها هى التى ترتبط بأهم المراحل فى حياة الانسان ، وهى الولادة والمراهقــة

والموت ، فقبل الولادة تطيف الارواح بالأب وتلقنه فى الرؤيا أو الايحاء أسماء الاشياء التى ينبغى للوليد أن يتجنبها فى حياته والا أصابه الاذى من الارواح المطيفة بالمكان ، وعند المراهقة يحاط الصبية بالمراسم والعبادات التى تفرضها كل بيئة على حسبها •
وأشق ما عاناه الطبيب من عادات القوم حذرهم من مقاربة أجساد الموتى وهو محتاج فى مستشفاه على الدوام الى حمل هذه الاجساد ومواراتها •

ويؤخذ من مشاهدات هذا الطبيب فى جواره أن المحظورات خاصة وعامة ، فمنها ما يحرم على انسان واحد ولا يحرم على غيره حسبما جاءه الوحى من أبيه أو كاهنه ، ومنها مايعم القبيلة جميعا ولا يستثنى فيه أحد منها ، ويقول الطبيب ان بعض المنذورين لهذه المحرمات قد تأتى شفاؤهم من الوهم الذى غلب عليهم بعد انذارهم بتحريم بعض المطاعم واجتناب بعض الادوات فاجترأوا على مخالفة المحظور وسلموا من العاقبة ولكنهم تخلصوا من عقيدة بعقيدة ورسخ فى اخلادهم ان الروح الذى أطلقهم من عقال المحظور أقوى من الروح الذى حظره عليهم ، فهو لا يستطيع ان يتعقبهم بالاذى وان خالفوه جهرة ، لانهم دخلوا فى حماية روح آخر أقوى واعظم واحرى بالمبالاة والاتباع •

وقد دخلت هذه الارواح والمحظورات فى حساب السياسة كما دخلت فى حساب العلم ، فقررت اللجنة البرلمانية التى أوفدتها الحكومة الى أفريقية الشرقية لتحقيق أسباب الثورة فيها ان « دراسة النفسية » التى تنطوى عليها عبادات جماعة الماو ماو ضرورية لاستقصاء أسباب السخط وعوامل الثورة ، وعقب الاستاذ ماكس جلكمان Gluckman على هذا التقرير بفصل مجمل عن أصول العقيدة بين القبائل ، فروى عنها انها تؤمن باله عظيم خلق

العالم ثم تنحى عنه ، وانه سمع من أناس فى قبيلة الباوروتس Barotse على الزميزى الاعلى ان الاله تخلى عن الارض ولاذ بالسماء حيرة من كيد الناس وشطارتهم وأفانين أحتيالهم ، ولم يبق لهذا الاله الآن من عمل يستطيعه مع البشر غير مجرد العلم بأخبارهم ، فهم يقولون كلما سألتهم عن مكان بعيد ان الاله نيامبى Nyambe أعلم وأدرى ، ويدعى زعماء القبيلة انهم ينتمون الى هذا الاله من ذريته التى ولدتها له بنته قبل أحد عشر جيلا فملكت على القوم فى مكانه ، وهذا سر من اسرار الطاعة للزعماء والثورة على الاجانب والمستعمرين .

***

ويرى جلكمان أن المراسم والشعائر حلت بين القبائل الافريقية محل الصلوات المكتوبة والفرائض المسجلة ، لانعدام الكتابة فى تلك القبائل ، فكل علاقة لها شعائرها ومراسمها وكل حركة تتحركها القبيلة كلهـا أو بعض أفرادها طلبا للصـيد أو انتجاعا للمرعى أو زحفا للغارة على عدوها تتطلب منها الزلفى الى بعض الارواح والحـذر من بعض الارواح الأخرى وتلجئها الى اتخـاذ المراسم والشعائر المتوارثة فى أجدادها

وكل مايصيب الانسان فهو من كيد روح أو دسيسة ساحر أو من عالم « وراء الطبيعة » على الاجمال . فاذا وطىء فيل انسانا فقتله فالافريقى يفهم أن قوة الفيل أكبر من قوة الانسان ولهذا استطاع قتله ، ولكنه يسأل بعد ذلك : لماذا كان هذا الانسان هو المقتول ولم يكن انسانا غيره ؟ أليس هنـــاك سر يرجع الى تدبير ســاحر أو نقمة روح غاضب أو مشيئة كائن مما وراء الطبيعة ؟ . وهكذا تلتقى الاسبا بالطبيعية المعروفة بالاسباب المجهولة مما وراء الطبيعة ، ولا يحس الانسان السلامة من الكائنات المحجوبة بحال من الأحوال

وقد تزول العقائد بانقضاء الزمن عليها ولا يزول السحر وأساليبه الموافقة والمضادة التى تلجىء الافريقى من ساحر الى ساحر ليبطل رقيته ويفسد مكيدته ، فلا ملاذ عندهم من السحر الا الى سحر مثله أو أشد منه ، ولا تعليل عندهم لمصيبة يبتلون بها الا أن تكون من كراهية عدو يستعين بالسحرة ويستمد قدرته على النكاية من الارواح (١)

***

وقد حاول الرحالون والباحثون فى الاجناس البشرية أن يرجعوا بالاعتقاد فى الارواح الى مصدر مفهوم فلم يتفقوا على مصدر واحد ولم يصلوا الى قول متفق عليه يصلح لتفسير كل حالة وتعليل كل عقيدة

فمنهم من يرجع بعقيدة الارواح الى الاطياف التى يراها الهمجى فى منامه ، والى الاحلام التى يرى فيها أنه انتقل الى مكان بعيد وهو لم يبرح مرقده فى بيته ، فيخيل اليه أن الاطياف تتحرك فى الظلام وتترك الاجسام اذا هدأت حركتها لتجول هنا وهناك حيث تشاء ، وان الذى يحدث فى حالة النوم يحدث فى حالة الموت فيسكن الجسد ويبلى ويتحرك الروح الذى فارقه بفراق الحياة

ومنهم من يرجع بهذه العقيدة الى طبيعة الاستحياء أى الى الطبيعة التى تخيل الى الهمجى أن الاشياء ذات حياة مثله فيعاملها كما يعامل الاحياء ويرضى عنها أو يغضب عليها كالطفل الذى يضرب الارض اذا صدمته حين يسقط عليها ، أو يشعر بالراحة حين تضرب الارض أمامه وتعاقبها بجريرة سقوطه عليها واصابته من صدمتها

وتتمكن هذه العقيدة فى خيال الهمجى مع نقص اللغة وخلطه بين الحقيقة والمجاز فى تعبيراتها ، فاذا سمع أن الارض ولدت عيون

---

(١) من فصل فى مجلة Listener اللندنية الصادرة فى ٢٩ ابريل سنة ١٩٥٤

الماء وأن أباها انحدر من سحاب السماء لم تزل هذه الصورة تتجسم مع الزمن حتى تنشأ منها أسرة لها أب وأم وأبناء ، ولها مشيئة يلقاها بالتوسل والرجاء أو بالسخط والاعراض .

ومنهم من يرجع بعقيدة الارواح الى عبادة الاسلاف بعد الموت ، وقد يحدث أن يسمى السلف باسم حيوان كالاسد أو النمر أو الثعلب أو النسر أو الصقر فيحسب أبناؤه مع طول الزمن أنهم تحدروا من ذلك الحيوان ويجعلون له قداسة مرعية توجب عليهم أن يحرموا قتله وأن يتوقعوا الضرر والسقم اذا قتله أحد منهم أو من غيرهم ولم يأخذوا بثأره

ويكاد علماء الاجناس والعادات البشرية أن يجمعوا على ايمان القبائل الفطرية باله واحد أكبر من هذه الارواح المتعددة وأخفى منها فى ظواهر الطبيعة

وقد تقدم من كلام جلكمان أن القبائل فى افريقية الشرقية تؤمن بالاله نيامبى الذى ارتقى الى السماء حيرة من كيد الناس وشطارتهم وأفانين احتيالهم ، وهذه العقيدة على الارجح من بقايا عبادة الاسلاف التى يختلط فيها التاريخ بالخرافة ، وأصلها على هذا الظن متصل بوحدة القبائل فى جدها الاعلى ، فهو ربها جميعا حينما اختلفت أربابها وتعددت الارواح المسيطرة عليها ، وقد جردوه من القدرة وتركوا له صفة العلم والدراية كأنه الأب الشيخ الذى اعتزل العمل والقتال فلا طاقة له بمنع العداوة بين ذريته من القبائل المختلفة

ولم ينفرد جلكمان بقصة هذا الاله الواحد الذى تشترك فيه القبائل المختلفة فى افريقية الشرقية ، فان الرحالين جميعا متفقون على ايمان القبائل الاسترالية برب فوق الارباب يسمى «نانا» أو يسمى بأبى الجميع (All Father) على مثال نيامبى فى القبائل الافريقية

ويتفق الرحالون كذلك على ايمان الاقزام الافريقيين برب فوق الارباب تشترك فيه القبائل وان تعذر عليها الوفاق فيما بينها ، ولم يجد علماء الأجناس قبيلة فطرية بلغت من ارتقاء الادراك أن تؤمن بالتوحيد على صورته المثلى ، ولكنها تقترب من هـذه الصورة كلما ارتقت من فوضى العقيدة الى مرتبة أعلى وأجمع من مراتب النظام

***

وليس الهمجي جبانا فان الجبن بين الاخطار المحدقة به أضر به من الشجاعة ، وقدعودته مواجهة السباع والحياة أن يواجهها علانية وأن يصارعها وينصب لها الأحابيل ويستخدم السـلاح المستطاع فيما يعييه أن يتغلب عليه بالمصارعة ،ولكنه بين الارواح والاطياف أمام خطر مستور لايدرى من أين يأتيه ولا تكون الغلبة عليه بقوة البدن والسلاح ، ولعله لايريد أن يتغلب عليه لأنه عنده فى حكم الأب أو الرئيس المطاع ، ورياضته بالحيلة أولى من التصـدى له بالاسلحة والفخاخ

ولا بد من مواجهـة تلك الارواح والاطياف بمـا يكف غضبها ويدفع أذاها ويستجلب رضاها

ولا بد مما ليس منه بد فى النهاية ، فأما السكوت عنها فلا يطاق ، وأما الصراع معها فلا يجدى فيه البأس ولا تصلح له الشجاعة ، فكانت حيلة السحر هى الحيلة التى انتهى اليها ولم يكن له بد منها بحال

وتخصص السحرة لرياضة هذه القوى التى لاتراض بالأيدى والهراوات أو الحراب

. وظهرت البداهة الانسانية فى هـذا التخصص كما تظهر عند الاضطرار اليها فى توزيع جميع الأعمال

فلم يكن السحرة المتخصصون لرياضة الارواح والاطياف أناسا ممتلئين بالحياة صالحين للكر والفر والصيد واقتناء النسوة وانجاب الأولاد ، بل كانوا على نقيض ذلك أمســاخا عزلتهم الحيــاة أو انعزلوا بعد اليأس من مجاراتها فى مطالبها ، ولاح بينهم وبين عالم الخفاء شبه مناسب يعقد بينهما العلاقات الغامضة ويقرب لهما وسائل التفاهم ، ويوقع فى النفوس أثرا واحــدا من التوجس والتساؤل والريب فيما وراء الظواهر والمألوفات

وقد شهد الدكتور شــويتزر Schweitzer ترشيح بعض السحرة وقال فى مذكراته الافريقية « ان الدميم السيىء لا مطمح له فى الحصول على امرأة يتزوجها ، فان كبراءه لايشترون له امرأة لنفورهم منــه ، ويكون أبوه قــد مات فيمتــلىء بالمرارة ويتحول الى السحر للانتقام من قومه »

وقالت الدكتورة روث فلتون بنديكت Benedict ان بعض قبائل كليفورنيــا من الهنود الحمر يتطلبون علم الغيب ممن يصــــابون بالصرع ويتعرضــون للغيبوبة فى بعض نوباته ، وانهم يفضلون النســوة المصروعات ولكنهم لا يقصرون الكهانة عليهن ، وقد يكون الرجل المختــار متأنثا بطبعــه لايصلح للزواج ويلبس لباس النساء مدى الحياة (١)

ووصــف الأب هنرى كلوى Callawey برنامج اعداد الساحر لوظيفته فقال أنه قد يبدو فى أول الامر قويا سليما ولكنه يهزل شــيئا فشيئا ويصبح فى عرف القوم « ناعما » ويعنون بذلك أنه يصبح عرضة للانفعال والتأثر ويصوم عن بعض الاطعمة ويتأذى ببعضها وتطرقه الارواح والاطياف فى منامه ويهدده بعضها

---

(١) كتاب ألوان من الثقافة Patterns of Culture

بالموت،ويقول العرافون أنه يوشك أن يملكه روح تتصرف به على حكم الأرواح ، وفى هذه الحالة يصاب أهل القرية بالأرق ويتساءلون عما أصابهم لان وصول الساحر الى منزلة « الانيانجا » أى الملهم المكشوف عنه الحجاب حالة لاتمر فى المكان بسلام (١)

ولا تنفصل وظيفة الكاهن ووظيفة الساحر فى مبدأ الامر ، فالكاهن الذى يقوم بمراسم العبادة هو الساحر الذى يدفع أذى الارواح والاطياف ويستجلب رضاها ويسخرها فى المآرب التى يختارها ، ثم ينفصلان شيئا فشيئا فيصبح عمل الكاهن غير عمل الساحر أو يجمع الرجل الواحد بين الوظيفتين ولكنهم يقصدونه لكهانته فى أغراض معلومة ويقصدونه لسحره فى غير تلك الاغراض

والغالب أن السحر يراد لمصلحة خاصة أو لالحاق الضرر ببعض الاعداء ويعمد فيه الساحر الى الوسائل الخبيثة ولا يكون عاما شامل النفع فى جميع الأحوال ، وتستخدم فيه أرواح منقطعة للأذى والضرر تعودت أن تتآمر على النكاية والنقمة وأن تستجيب لمن يؤدى لها الأجر ويتقدم لها بمراسم الشعوذة والأعمال الخفية

ويلاحظ أن الكاهن قد يكون رئيسا للقوم وكاهنا يؤمهم فى الصلاة والعبادة فى وقت واحد ، ولكن الساحر لايصل الى هذه المكانة الا أن يكون السحر عملا مضافا الى الكهانة أو فرعا من فروعها التى لاترتقى الى مرتبة الصدارة

ويلاحظ كذلك أن السحرة مشوهون أو مصابون بالآفات ، وان أدوار النساء العجائز بينهم شائعة غير مهملة ، وكلهم بين رجال ونساء غير أهل لحياة القوة والصلابة والمتعة والظهور،وكأنما السحر لديهم عوض عن نصيب مفقود

---

(١) ديانات الأمازولو Religious Systems of the Amasulu

وليست الكهانة على الجملة من هذا القبيل ، فان الكاهن قديكون من أقدر الناس على الجد والوجاهة والمتعة بالرغد والملذات

ويسبق الى الظن أن السحر والكهانة كلها خداع فى خداع من تلفيق السحرة والكهان ، ولكنه ظن خاطىء غير معقول ، لأن السحرة والكهان على اتصافهم بالذكاء والدهاء قد نشأوا بين أقوام توارثوا العقائد واحتفظوا بكثير من العادات التى توهموا أنها كانت نافعة لمن قبلهم وأنها تنفعهم اليوم اذا أحاطوا بعلمها وحذقوا تجاربها ، وربما لام الساحر نفسه اذا قصر فى بلوغ ما يطلبونه منه واجتهد فى علاج ذلك القصور بتكرار التجربة أو سؤال الاقدمين الذين سبقوه فى الصناعة ، وهو بطبيعة عمله لايستغنى عن الخداع والتلبيس فى معاملة قومه ، ولكنه لم يكن قط خادعا فى كل شىء ولا يزال خادعا مخدوعا فى جوهر السحر كله ، وهو الايمان بفعل الطلاسم وقوة الأرواح

وكلما انفرجت المسافة بين وظيفة الدين ووظيفة السحر ترقى الانسان الفطرى من فوضى الارواح والارباب ونبذ التسوية بينها وتعود التفرقة بينها فيما يطلبه منها ، فمنها مايقصده للنفع كما يقصده جميع أبناء القبيلة ، ومنها مايقصده ليتواطأ معه على الاجرام والنكاية كأنه بعض الشطار الذين يعيشون اليوم بتأجير أنفسهم للنكاية والعدوان

ويحدث فى هذا الطور من التميز بين الارواح والأطياف أن تعرف بأسماء وتوسم بملامح وتتلبس « بشخصيات » وتتخصص كل « شخصية » منها لرسالة تتجرد لها وتقدر عليها حيث لايقدر سواها

وفى هذا الطور ، أو هذه المرحلة ، يتهيأ الذهن للتميز بين عمل الاله وعمل الشيطان

أنواع ودرجات
فى الحرام والمحظور

تكاد المحرمات فى القبائل البـــدائية أن تربى على المباحات والمحللات • لان المحرمات تشمل القداسة والنجاســة والعصيان والاحتقار والاستقذار • فهناك أمور محرمة لانها عظيمة مبجلة ، وأمور محرمة لانها نجسة أو مشؤومة ، وأمور محرمة لان اتيانها عصيان لرب معبود أو روح قدير ، وأمور محرمة لانها تحتقر وتعاف

وعدد هذه المحرمات فى جملتها كثير يكاد يشمل كل عمل يزاوله الانسان الفطرى ، بل ربما كان المباح نفسه داخلا فى التحريم على وجه من الوجوه ، لانه لايبــاح الا بصلوات وشـعائر يعرفها الخبراء ولا تعم معرفتها كل أحد ، كالصيد والزروع والحصــاد وما شابهها من أعمال الجمــاعة أو الفرد ، فان الخوف من الاقدام عليها بغير صلواتها ورسومها يجعلها فى حساب المحظورات

وقد ترقى الانسان وترقت معه اللغة ولم تزل فى تعبيراته آثار للتقابل بين القداسة والنجاسة فى الممنوعات ، فكلمة الحرمة فى اللغة العربية تدل على الشىء العزيز العظيم الذى يصان ويحمى بالارواح والاموال ، وقد يشمل الحرام كل اثم يعاب أو يعاف

وكلمة المنبع أو الممنوع تدل على القوة والرعاية كما تدل على الرذيلة التي يجب على المرء أن يمتنع عنها ولا يقترب منها

وكلمة القديسين والقديسات كانت تطلق عند البابليين والكنعانيين على الذكور والاناث الذين ينصبون أنفسهم للبغاء في حرم الربة « عشتروت » أو السارية ، وقد ترجمت هذه الكلمة في كتب العهد القديم بكلمة المأبونين والزانيات ، وهي في الأصل من القديش أو المقدس ، ويقال عن الربة نفسها أنها كانت خليلة الارباب ولدت منهم سبعين الها « ايليم »

وفي القبائل البدائية ثلاثة أنواع من المحرمات المقدسة وهي « الطوطم » والوثن أو التعويذة ، والتابو أو الحرام الممنوع

. فالطوطم Totem هو الحيوان الذي تحرم القبيلة قتله وصيده لاعتقادها أنها تناسلت منه أو لانها ترمز به الى معبودها وأصل وجودها

والوثن أو التعويذة ـ وهو الذي اصطلح علماء الاجناس على تسميته بالفتيش Fetish ـ شيء جامد مصنوع أو طبيعي يحمل في أطوائه روحا لها حق الرعاية والتوقير ، ومنها يستمد المرء حماية ومنعة مادام على شرعتها في المباحات والمحظورات ، وقد يكون الوثن صورة أو حجرا أو حصاة أو قطعة من جذع شجرة أو ألفافا من الشعر وعروق الشجر وما اليها ، يصنعها السحرة أو يصنعها الكبار للصغار

والمحظور التابي أقل درجة من الطواطم والأوثان ، لانه قد يتفرق ويتخصص فيكون حراما عند بعض الناس حلالا لغيرهم في البيئة الواحدة ، بل قد يكون مستحبا مطلوبا لمئات من الناس ولا تحريم فيه على غير آحاد معدودين . وقد روى الدكتور شويتزر ضروبا من هذه المحظورات لا مرجع لها غير التحكم من بعض

الارواح المزعومة التى تكشف عن ارادتها قبل وضع الجنين ،فتخبر أباه فى الرؤيا باسم « التـــابو » الممنوع على الوليد ، فمن هـذه المحظورات أكل بعض الطلح أو البذور ، ومنها ضرب الوليد على ظهره ، ومنها حمل المكنسة أو بعض الآنية ، ولا تكذب النبوءات فى شأن « التابو » بل يصدقها القوم كل التصديق حتى لتقبل عقولهم أن الوليد يولد ذكرا ثم يتحول الى أنثى اذا خولفت نبوءة أو علامة مرصودة ، ويفعل الوهم هنا فعله القاتل الذى لاتجدى فيه النصيحة ولا الاقناع ، ففى ناحية « سمكينا » رأى الطبيب صبيا فى مدرسة البعثـة أنبأه رفاقه أنه أكل من اناء طبخ فيـه الطلح قبل ذلك ولم يغســل ، وكان الطلح محظورا على الصبى بنبوءة آبائه ، فلم يكد الصبى يسمع الخبر حتى تشنجت عضلاته ولزمه التشنج الى أن مات بعد ساعات

وتحيط هذه التابوات كثيرا بعلاقات الجنسين وبلوغ سن المراهقة فى الذكور والاناث ، فيندر بين قبائل الارض البـــدائية أن ترى قبيلة خلت من مراسم المراهقة ومحظوراتها الكثيرة ، فتعزل الفتاة ولا تكلم أحدا غير أمها أولا تكلمها الا بصوت خفيض ، ويؤخذ الصبى بعيدا من بيته ليغسل فى العيون المقدسة من روائح الأنوثة التى لصقت به من مصاحبة أمه ، ويجرى له الكهان أو كبراء السن شعائر الفطام،ومنها فى بعض قبائل الهنود الحمر أن يفارق أمه زمنا أو يدخل الـكوخ وهى مستلقية على بابه فيطأ على بطنهـا علامة الانفصال فى موضع حمله حيث اختلط بجوف الانثى وهو جنين

وتدل الشعائر الموروثة منذ القدم على جهل مطبق بأسرار الجنس والولادة ، وربما تبين من تلك الشعائر أنهم ينوطون نسبة الابن الى أبيه بالمراسم والشعائر ولا يعتقـدون أن مجرد الاتصال بين ذكر وأنثى يحقق الولادة والنسبة الى الآباء ، ففى بعض القبائل يفرض العرف على الرجل أن يقدم زوجته لضيفه الغريب ولا يمنعه ذلك

أن ينسب أبناءها جميعا اليه ، لانه هو الذى جرت بينه وبينها مراسم الزواج

ولا يعجبن أبناء هـذا العصر من تلك الخرافات التى تحيط بالجنس ومراسم النسبة بين الابناء والآباء ، ففى عصرنا هذا من يعتقد أن الولد من نسل الشيطان اذا ولد من غير زواج مشروع ، وقد صدرت المنشورات من رجال الدولة ورجال الدين بعد كشف أمريكا الجنوبية وشيوع الأمراض الزهرية فى العائدين منها فكان فحواها جميعا أنها عقوبة على خطايا الشيطان ، ولما انتشرت عدواه بين المتزوجين والمتزوجات فى أواخر القرن الخامس عشر أصدر الامبراطور مكسميليان منشورا تدد فيه بالخطاة وأنذرهم بالتوبة أو تدوم هذه الضربة السماوية عقوبة لهم على العصيان (١)

***

وتتفق جميع المحرمات البدائية على تفنيد مذهب المؤرخين الذين يقولون عن الديانات ومحرماتها ومباحاتها أنها حيطة اجتماعية تهتدى اليها بديهة المجتمع لمنع الجرائم ومعاقبة المجرمين وحماية الأبرياء من عدوان المجرم والاجرام ، فكل هـذه المحرمات انما ترجع الى شيء واحد وهو اغضاب رب أو روح وتخطى الحدود التى تمنعها الارباب أو الارواح ، ولها كلها علاقة بعالم الخفايا والاسرار وما نسميه اليوم بعالم ما وراء المادة لأنه لاينحصر فى المحسوسات المادية . وأما الجرائم وعقوباتها فهى أعمال مفهومة مقصودة ترجع الى الاسباب الطبيعية التى يحيط بها علم الانسان كما تحيط بها ارادته ، وهى تعالج بالقصاص المقدر وبالثأر والانتقام وأداء الغرامة والدية ، بل يستمد الثأر قوته أحيانا من عالم الروح كما

---

(١) كتاب الشياطين والعقاقير والاطباء لمؤلفه هوارد هجارد

Devils, Drugs and Doctors by Haggard

يقال عن روح القتيل فى قبائل الجاهلية العربيـة أنها لاتزال هامة مقيدة بجانب القتيل تنادى العابرين بهـا : اسقونى اسقونى حتى يؤخذ بالثأر فتشعر بالرى وتستريح ، فليست المحرمات الدينيـة هى التى توقف على مطالب القصـاص وقوانين الجزاء بل هذه المطالب هى التى توقف أحيانا على عالم الاسرار والأرواح

وقد ثبت من أطوار المحرمات فى القبائل عامة أنها تتقدم مع تقدم الانسان فى ثلاثة أدوار متشابهة

فالطور الاول أن تترقى من الحدود المحلية الى حدود عالمية أو كونية تشمل السماوات والارضين ، فبعد الرب الذى يسيطر على ينبوع ماء أو شجرة فى غابة أو بقعة فى جهـة من جهات الاقليم يترقى الانسان الى فهم الرب الذى يسيطر على السحب والأنهار وأفلاك السـماء ، وكلما أدرك القوانين التى تربط الطبيعة بنظام واحد ترقى ادراكه لقدرة الرب الذى يملك زمامها ويصلى له المصلون لاجرائها فى مجراها المطلوب وتحويلها عن المجرى الذى يحذرون عقباه .

ويقترن بهذا الطور ، أو يأتى بعده ، طور التمييز الواضح بين عمل الدين والعبـادة وعمل السـحر والطلاسم السـحرية ، فلا يستطيع الساحر مايستطيعه الكاهن ، ولا يقصد الكهان عامة فيما يقصد فيه السحرة عامة ، وربما تولى الوظيفتين رجل واحد ولكنه وهو كاهن انما يتوسل الى الآلهة ويتحرى رضاها بالصلوات التى يحسنها دون غيره ، أما وهو ساحر فهو يسخر الارواح أو يعاملها على أساس التواطؤ والتعـاون على العمل الكريه الذى ينفر منه المشتركون فيه ولا يجهرون بسره عن رضى واختيار

وكلما اتضح التمييز بين العبادة والسـحر اقترب الانسان من الطور الآخر الذى يستقل فيه بمشيئته بين الوظيفتين

ففى الحياة البدائية يظل الانسان رهينا بمشيئة الارواح التى تنف
وتضر وتنطوى له على الصـــداقة أو على العداء ، وكلها فى رأ
تعمل ما يحلو لها ولا يحق لأحد أن يحاسبها عليه ، ولكنه كلم
ترقى فى التمييز بينها ملك الميزان الذى يزن به أعمالها وأقدارها
فيدين بعضها ويحمد بعضها ، ويعرف منها مرؤسين ورؤساء يحق
لهم أن يشرفوا عليها ويحاسبوها على أعمالها ، وأحس فى طوية
أن يطيع بعضها ضرورة وغصبا ويطيع بعضها حبـا واختيارا لأ
أهل للطاعة والرجاء

ومن هنا تصبح الارواح نفسها مطيعة أو عاصية ، وماضية على
السنن القويم أو منحرفة عن هـذا السنن الى الخطة العوجاء التى
ينكرها كبار الأرباب

ومتى أتيح للانسان مقياس يقيس به الارواح والارباب ويقيس
به أعمالها وحقوقها فهو اذن أهل للمشيئة والتبعة وأهل للتمييز
بين الخير والشر وبين سلطان الاله وسلطان الشيطان



ما هى أنواع الشيطنة فى العالم

سؤال غريب ، ولكنه يبدو طبيعيا ، بل ضروريا ، اذا وضع فى صيغة أخرى ، فسألنا : ماهو موقف الشر بالنسبة الى القوة الكونية الكبرى ؟

وهنا أيضا تتبين أن فكرة الشيطان أعمق جدا مما يخطر للمتعجل الذى يحسب أنه يحل كل مشكلة بكلمة الوهم أو التلفيق ، أو يحل كل مشكلة باحالتها الى جهل الأقدمين وضلالهم فى الحس والتفكير .

فهناك صور للشيطنة بمقدار ما فى الذهن البشرى من فكرة عن الشر فى هذا الكون : هل الشر قوة أصيلة ؟ هل هو قوة ايجابية عاملة ؟ هل هوقوة سلبية ؟ هل هو عدم الخير ؟ هل هو نقص الخير؟ هل هو عقبة فى طريق الخير ؟ هل هو عقبة تريد وتعمل ماتريد ؟ هل هو عقبة لا ارادة لها ولكنها تضاعف جهود الخير وتستدعيه الى مزيد من الحركة والثبات ؟

كل فكرة عن الشر يمكن أن تخطر على الذهن البشرى قد تمثلت

فى صورة من صور الشيطان ، وهذا سبب من الاســباب الكثيرة التى تدعو المفكر الذى يحترم عقله أن يفهم الصــور الدينية على حقيقتها ، وحقيقتها أنها لغلاحية تصــور الوجود الحقيقى تصويرا صادقا على أسلوبها الذى يستحق الفهم والتعمق والنظر الى ماوراء الظواهر والالفاظ

كان الشر أرواحا ضارة متفرقة فى اعتقاد الانسان على الفطرة الهمجية ، فلما أصبح مسألة كونية عامة تمثلت صورته فى حدودها الكونية على شكل معقول ، وسبقت المذاهب الفلسفية بمراحل بعيدة فى هذا المضمار

كان الشر فى تقدير الديانة المجوسية القديمة قوة فعالة معــادلة لقوة الخير : كان فى الوجود خير وشر كما فيه نهار وليل ، وكان الليل حقيقة قائمة بذاتها ولم يكن مجرد غياب النهار

كان الليل ضد النهار كما كان النهار ضد الليل ، فاذا غاب النهار فهناك ليل ، واذا غاب الليل فهناك نهار

كان للنور دولة وللظلام دولة ،وكان لهذه جنودولتلك جنود ، فهما قوتان متقابلتان متعادلتان أو كالمتعادلتين ، ولكل منهما وجود قائم قابل لان ينفرد بنفسه فى معزل من القوة الأخرى ، فلايتوقف وجود الشر على وجود الخــير ولا يتوقف وجود الخير على وجود الشر ، بل كلاهمــا موجود بحقه وبقدرته وبعمله كمــا يوجد الضدان الصالحان للحياة وللبقاء

كان الظلام يصنع مخلوقاته كما كان للنور مخلوقاته التى يصنعها ، وكل منها حسن فى نظر نفسه ، محمود بمقياسه لايبالى مقياس غيره ولا يتمناه

ثم تراجحت الكفتان فرجحت كفة النور على كفة الظلام ، وظل

المعسكران متقابلين ولكن الى حين ينتهى آخر الامر بهزيمة الظلام وغلبة النور ، ثم يبقى الظلام شيئا يلوذ به أنصاره فيختفون فيه ولا يظهرون للابصار ، وانما هزيمتهم اختفاء وليست بالفناء ولا بالزوال

وعظم التفاوت بين القوتين شيئا فشيئا حتى أصبحت قوة الشر كقوة الامير التابع مع السلطان المتبوع ، فهو يستطيع شيئا الى جانب سلطانه ولكنه لايستطيع جميع الاشياء ، ولا طاقة له على طول المدى أن يجاريه فى كل شيء

ومن الهين متعادلين تحول الخير والشر الى اله كبير واله صغير ، وقد تظل الحرب بينهما سجالا فينتصر الاله الصغير وينهزم الاله الكبير ، وقد يؤول الأمر بينهما الى معركة حاسمة أو يظل العراك بينهما سجالا الى أن تزول الارض والسماء

ثم آمن الناس باله واحد هو الخالق المبدع القائم بذاته ، لا وجود معه للشر الا بمشيئته وتقديره ، فلا يقوم الشر فى هذه الدنيا بذاته مستقلا عن الله

وفى هذه الصورة ظهر الشيطان فى ديانات الامم الكبرى ، ثم ظهر فى الديانات الكتابية بمختلف الاسماء ، وكلها تدل على التعطيل والتشويه والافساد ، ولا تدل على الخلق والتكوين .... كلها قوة سالبة ناقصة وليست بقوة موجبة كاملة تبتدىء بمشيئتها عملا من الاعمال

هذه القوة الشيطانية تحول الخير عن موضعه ، أو تملى للنقص فى عيوبه ، أو تقف فى طريق الكمال عقبة تصد الساعين اليه ، أو تزيف « العملة » الالهية فتجعل الزائف منها كالصحيح فى رأى المضلل المخدوع

ولكنها فى جميع أحوالها قوة سالبة وليست بالقوة الموجبة الموجدة بأية حال

وقد يتمرد الشر على الخير ويعصيه

وقد يخرج الشيطان على أمر الله ، وقد يشوه الخلق وينتقصه ويستر محاسنه ويبدى عوراته ويحول دون رضوان الله على مخلوقاته ولكنه يعمل تابعا ولا يعمل مستقلا فى كون من الاكوان غير الكون الذى خلقه الله .

وفى هذه المراحل جميعا يدل اسم الشيطان على موقفه من القوة الكونية الكبرى . فهو المتمرد أو هو « الضد » أو هو الواشى النمام أو هو الساعى بالفتنة والمغرى بالفساد والموغر للصدور .

وما من اسم للشيطان بين هذه الاسماء الا وهو يحمل فى دلالته معنى الافساد والمنع والتشويه ، فليست له قدرة على الخلق والانشاء الى جانب قدرة الله .

* * *

ولما تقررت المقاييس الالهية فى الاخلاق والاعمال تقررت المقاييس الشيطانية تبعا لها وبالنسبة اليها ، فكان الجديد فيها أنها معالم شخصية ذات ملامح معلومة لا ترتسم اعتباطا فى الواقع أو فى الخيال

وقد عالج الشراح الدينيون أن يلخصوا « الشيطنة » فى صفة واحدة تجمع عنصرها ويقوم به كيانها فذكروا الكبرياء وذكروا العصيان وذكروا الحسد وذكروا الكراهية وذكروا الباطل والخداع ، وكلها صفات لاتحسب من لوازم الشيطان الا بعد علم بوجود الاله المتصرف فى المقادير والأكوان

فالكبرياء افتيات على مقام الاله ، والعصيان خروج على شريعته ، والحسد انكار لنعمته واعتراض على تقديره ، والكراهية صفة قد يتصف بها الابرار حينا بعد حين اذا كانت كراهية لهذا العمل

البغيض أو لذلك المخلوق الذميم ، ولكنها اذا كانت قوام الطبيعة كلها فهى صفة هادمة غاشمة تناقض الصفة الالهية فى الصميم وهي الحب ولوازمه من البر والانعام . أما الباطل والخداع فهما نقيض الحق ونقيض الاستقامة ونقيض الخلق على الصدق والسواء

***

على أن الارواح الاولى فى جاهلية الانسان قد تطورت فى اتجاه آخر مع هذا الاتجاه فى مجال الخير والشر وعالم النفس الانسانية بما يعرض له من صلاح وفساد

ذلك الاتجاه الآخر هو تطورها فيما يتعلق بقوى الطبيعة وظواهر السماوات والأرضين

فهنا أرواح من الجان الخفى لها عمل غير صلاح النفس الانسانية وفسادها ، ولها قدرة خاضعة لسلطان الاله ومن يصطفيه من عباده، وينسب اليها كل مجهود عظيم تقصر عنه طاقة الانسان

وليست قدرتها هذه لانها تعلمت مالم يتعلمه الانسان ، ولا لأنها ذات عقول أكبر من عقله وأصلح منه للفهم والتفكير

ولكنها قدرة تأتيها من عالم الاسرار الذى تعيش فيه ، فهى تسخر القوى الطبيعية لانها تعيش بين أسرارها وتحسب منها أو فى حكمها ، واذا فطنت للمعنى الدقيق الذى لم يفطن له الانسان فانما تأتى فطنتها كذلك من اطلاعها على الدقائق والخفايا ونفاذها الى العالم الذى يطرقه حس الانسان ولا يتسلل اليه عقله

وهذه هى شياطين الفنون والصناعات ، تبنى الصروح وترفع الصخور وتنهض بالاثقال التى تعيا بها كواهل الانس وتنوء تحتها أدواته وصناعاته ، وتدخل فى ثنايا الخفاء فتلهم الشاعر مايدق عن سائر بنى آدم من غير الشعراء ، ولا جرم يكون لهؤلاء الشعراء

وأمثالهم من أصحاب الفنون حال كمس الجان وغيبوبة المخبولين لانهم يخاطبون الجان ويفقهون عنها ويلحنون منها أسرار لغاها واشارات وحيها .

وتلك هى أنواع الشيطنة من جانبيها فى اتجاه الضمير وفى اتجاه الذهن والقريحة .

فى اتجاه الضمير ترتبط « الشيطنة » بالصلاح والفساد والخير والشر ومساعى الانسان نحو الكمال والرشاد

وفى اتجاه الذهن والقريحة ترتبط « الشيطنة » بالأسرار والبواطن وبالوحى الخفى وغرائب العبارة ، سواء كانت عبارة لغة أو عبارة شكل واشارة

وسيكون لكل نوع من هذه الانواع نصيبه فيما يلى من الصفحات



أسماء الشيطان الأكبر

تمثلت قوة الشر « العالية » في شخصيات مرســومة الملامح معروفة الاسماء ، اشتهرت بها في كل لغة من لغات الحضارة الكبرى التي سبقت ظهور الديانات الكتابية ، وسنذكر هــذه الشخصيات بملامحها وأسمائها عند الكلام على أهم تلك الحضارات التي لها علاقة بصورة الشيطان كما تخلفت في الاعصر الحديثة، ولكننا نتقدم قبل ذلك بخلاصة عاجلة لأسماء الشيطان الاكبر التي بقيت الى اليوم لورودها في الديانات الكتابيــة ولأنها قد أصبحت ذات مدلول لغوى الى جانب مدلولهــا الديني ، فإن حضور هذه الاسماء في الذهن يبرز معالم الطريق الى الوجهة التي انتهت اليها ســوابق التاريخ ومقدماته ، منــذ ظهرت « شخصيات » الشيطان الاكبر في الحضارات الغابرة الى أن ظهرت شخصيات هذا الشيطان في كل ديانة من الديانات الكتابية التي أسلفنا ان اسم الشيطان فيها قد أصبحت له دلالته اللغوية الى جانب دلالته الدينية

واسم « الشيطان » بالألف واللام هو أشهر هذه الاسماء ، لأنه ورد في كتب الديانات الثلاث ، ودخل في تعبيرات اللغات الاوربية

المتداولة بلفظه المنقول عن اللغات السامية ، فيتحدث الغربيــون اليوم عن الفكرة الشيطانية أو عن العمل الشيطاني ويفهمون من عباراتهم معنى لايلتبس على القائل ولا على المتكلم ، ومعنى الصفة الشيطانية عندهم مرادف للصفة الجهنمية التى تنطوى على الخبث والبراعة وحب الأذى والتمتع بالايذاء كأنه منفس لطبيعة صاحبها يفرج عنه ويسره أن يلمح آثاره وهو مستتر وراءه

والرأى الغالب ان كلمة « الشيطان » هذه عبرية بمعنى الضد أو العدو ، ومن أسباب الظن باستعارتها من اللغة العبرية انها لغة اليهود وان ديانة موسى عليه السلام سابقة للمسيحية وللاسلام ، ولكنه ظن يصدق فى حالة واحدة : وهى أن يكون اليهود اصلاء فى الكلام عن الشيطان لم يسبقهم أحد من المشارقة اليه ، الا أنها حالة لم تثبت ٠ وقد يكون الثابت خلافها ونقيضها ، فان اليهود قد وصفوا الشيطان بعد هجرتهم الى بابل ، وليست طريق بابل موصدة دون الامم السامية غير اليهود

والارجح عندنا أن الكلمة أصيلة فى اللغة العربية قديمة فيها ، لايبعد أن تكون أقدم من نظائرها فى اللغة البابلية ، لان اللغة العربية قد اشتملت على كل جذر يمــكن أن يتفرع منه لفظ الشيطان ، على أى احتمال وعلى كل تقدير

ففيها مادة شط وشاط وشوط وشطن ، وفى هذه المواد معانى البعد والضلال والتلهب والاحتراق ، وهى تستوعب أصول المعانى التى تفهم من كلمة الشيطان جميعها ٠

فالشطط من الغلو الذى يدخل فى أخص عناصر «الشيطنة» والشط بمعنى الجانب المقابل قد تلحظ فى مقابلة الخير بالشر من جانب الشيطان

وشاط بمعنى احترق وتلف ، وأشاطه بمعنى أهلكه وأتلفه ،



وانطلق شوطا أى ابتعد واندفع فى مجراه ، وشطن أى ابتعد فهو شيطان على صيغة فيعال

وقد كان العرب يسمون الثعبان الكبير بالشيطان ، ويقال فى بعض التفسيرات ان هذا المعنى هو المقصود من «طلعها كأنه رءوس الشياطين » ، وذكر الشراح اليهود المتأخرون أن الشيطان تمثل لآدم فى صورة الحية حين أغراه بأكل الثمرة المحرمة ، ولم تنقطع العلاقة قط بين الحية والشيطان ، ويؤخذ من سفر أيوب عليه السلام – وهو عربى باتفاق المؤرخين – أن الشيطان كان معروفا بين العرب من ذلك العهد الذى كان سابقا لعهد خروج بنى اسرائيل من مصر ، ويؤخذ من تاريخ الادب العربى فى الجاهلية ان العرب قد عرفوا الشيطان فى أدواره الفنية والادبية مع السحرة والشعراء ، فليس هو مجرد اسم معرب نقلوه من لغة أخرى ولم يزيدوا على وضعه فى موضعه من المأثورات العبرية .

* * *

وأشهر أسماء الشيطان الاكبر فى اللغة العربية هو اسم «ابليس» الذى يختلف اللغويون فى أصله كما يختلفون فى نسبة كلمة شيطان الى احدى اللغات السامية

والمتكلم العربى يفهم من وصف انسان من الناس بأنه «ابليس» كل مايريده القائل من هذه الصفة ، فهى دالة فى كلام الخاصة والعامة على الدس والفتنة والدهاء والسعى بالفساد ، ولم تحمل كلمة واحدة من دلالتها اللغوية أكثر مما حملته هذه الكلمة مستعارا من صفات ابليس فى العقيدة الاسلامية

ويرى بعض الغربيين ان الكلمة فى أصلها يونانية من كلمة ديابلوس Diabolos التى تفيد معنى الاعتراض والدخول بين شيئين كما تفيد معنى الوقيعة ، وأصلها فى اليونانية من ديا Dia

بمعنى أثناء وبالين Ballein بمعنى يقذف أو يلقى ، ومعنى الكلمتين معا قريب من معنى الاعتراض والدخول بين الشيئين أو قريب من ثم الى معنى الوقيعة

وعندنا أن هذا التركيب أضعف من قول القائلين ان كلمة ديفل Devil أى الشيطان فى اللغات السكسونية مأخوذة من فعل الشر Do-evil أى من كلمة «دو» بمعنى يفعل وكلمة «ايفل» بمعنى الشر ، وقد أجمع اللغويون والدينيون على نبذ هذا التركيب مع أنه أقرب الى صفة الشيطان من الصفة التى توحى بها الكلمتان اليونانيتان ، بعد التمحل والاعتساف

ولسنا على يقين من انقطاع الصلة بين الكلمة اليونانية والكلمة العربية ، ولكننا على يقين أن « شخصية » ابليس تحتاج ، بل تتوقف على الدلالة التى تستفيدها من مادة « الابلاس » أى فقد الرجاء . فان ضياع الامل ألزم صفات ابليس على السنة الخاصة والعامة ، وليس أشهر من المثل الذى يضرب بأمل ابليس فى الجنة مرادفا لمعنى الامل الضائع كل الضياع ، وقد فرق هذا المعنى بين كلمة ابليس وكلمة الشيطان فى ملامح الشخصية ، فهذا قد ضيع الحق وهذا قد ضيع الرجاء ، وكذلك قد فرقت بينهما شروح الفقهاء وفرقت بينهما الدلالة الملموحة بين الشيطنة والابلاس

والغربيون اليوم يستخدمون الكلمة اليونانية فى صيغة النعت وقلما يستخدمونها فى صيغة العلم . فاذا قالوا عن شىء انه «ديابولى» أو ابليسى فالمفهوم منه انه عمل من اعمال التمرد والجبروت لايلزم انه سيىء كل السوء وانما يلزم انه خلا من الصفات الالهية أو الصفات « الرحمانية » على الخصوص ، وكذلك توصف الثورات الجائحة التى تدمر الظلم وتنسف معالم الطغيان ، فهى من الجبروت

بحيث توصف « بالديابولية » ولكنها من العنف بحيث تخالف الاعمال « الرحمانية » في الرفق والرضوان .

* * *

ومن أسماء الشيطان التي دخلت في الدلالات اللغوية اسم لوسيفر Lucifer أو حامل النور ، وهو في أصله اللاتيني اسم الزهرة حين تكون « كوكب صباح » ولم تكن له من مبدأ الامر دلالة سيئة ولكنه جاء في كلام النبي أشعيا في معرض التبكيت لملك بابل الذي سمى نفسه بكوكب الصباح ، وفهم الحواريون من كلام السيد المسيح « انه رأى الشيطان كنجم سقط من السماء » ان المقصود هو الزهرة وانه كناية عن الخيلاء التي تقود صاحبها الى السقوط . على أن سفر الرؤيا يذكر على لسان السيد المسيح انه تحدث عن نفسه فقال : انا كوكب الصبح المنير

واذا وصف انسان اليوم بأنه شبيه «لوسيفر» فالمفهوم من هذا الوصف انه يلمع ويتخايل باللمعان ويبلغ من العجب به حد السماجة والصفاقة ، فهو الخطيئة الساطعة أو الخيلاء المتبجحة ، ومن كان كذلك فسقوطه أمل يود الناس أن يتحقق ، ولايشعرون له بالرثاء الذي يصاحب المجد المنهار

ويذكر الاوربيون بعلزبوب وبعلزبول في مقام التهكم بالرئاسة الشيطانية ، وأصل بعلزبوب انه اله معبود في عقرون يقال عنه انه رب الطب وانه يشفي المرضى لانه سيد الشياطين ، وكانت الامراض العصبية كالجنون والشلل والفالج والصرع والهزال تنسب الى تلبس الشيطان بجسم المريض .

ومعنى بعل زبوب رب الذباب ، فحوله العبريون الى بعل زبول أي رب الزبالة سخرية منه وتحقيرا لأمره ودعواه ، لانهم كانوا ينكرون عبادة البعل ويدعون الى عبادة «يهوا» أو الابل . وقد

قالوا حين سمعوا بمعجزات السيد المسيح فى شفاء المرضى انه يشفيهم بمعونة رب الشياطين بعلزبول .

والدلالة اللغوية التى يفيدها وصف « بعلزبول » فى أساليب العصر الحاضر هى الاقرار بالقدرة على قمع الشر لأنها مستمدة من الشر نفسه . فهى الشيطنة التى تقمع الشياطين لزيادتها عليها فى الشيطنة ، لا لأنها تصلح أو تبتغى الاصلاح ، وهى الى ذلك لاترتفع فى قدرتها عن قدر الزبالة والذباب

***

وهناك شيطنة خاصة تدل عليها كلمة مفستوفليس ، ويقال انها مأخوذة من كلمة يونانية مركبة تفيد معنى كراهة النور،ويرجحون انها من «مى» بمعنى لا و«فوس » بمعنى نور و «فيلوس» بمعنى يحب . ولكن أصلها القديم متفق عليه ، فهى مستمدة من السحر البابلى الذى سرى الى الغرب على أيدى اليهود واليونان ، وتمثل روحا من أرواح النحس التى تتسلط على بعض الكواكب ويستعان بها على النكاية وخدمة الشهوات السوداء

وشيطنة مفستوفليس « ذهنية » موسومة بعيوب الذهن فى أسوأ حالاته من السخرية والاستخفاف والزراية بالمثل العليا واستباحة كل شىء بالحيلة والمكر والدهان ، فهو ذهن يصنع الشر لأنه لايبالى الشر والخير على السواء ، واذا طاب له الخير فعله غير مغتبط بفعله ، كما أنه يفعل الشر ولايلوم نفسه عليه ، ويسر صاحبه أن يرى خيبة الأمل فى الصلاح والفضيلة لأنه يثبت بذلك فلسفة السخرية وسخافة المثل الأعلى ، ويدفع عن نفسه نقد الناقدين واحتقار المحتقرين .

وقد كان مفستوفلس فى القرون الوسطى شيطان السحر والمعرفة السوداء ، وكان رجال الدين يتخذونه مثلا للعلماء الكفار

الذين غرتهم المعرفة الدنيوية فانصرفوا اليها وشغلوا بها عن معارف الدين

ويتردد من حين الى حين اسم اله الخراب أو اله القفـــار « عزازيل »

وهو اسم ورد فى العهد القديم واختلف الشراح فى نسبته الى أصله ، ويرى بعضهم انه من مادة الازالة العربية ، ويقول آخرون انه كان رئيس الملائكة الذين هبطوا الى الارض فأعجبتهم « بنات الناس » وتزوجوا منهن • ثم انهزم أمام جند السماء فلاذ بالصحراء ويقال أيضا أن ابليس كان يسمى عزازيل ثم سقط فزال مكانه من السماء

وقد كان من عادة اليهود أن يقترعوا على ضحيتين تذبح احداهما للرب « يهوا » وترسل الثانية محملة بالخطايا الى عزازيل رب الارض الخراب ، وشيطنة اليوم فى لغة المجاز مرادفة لمعنى العظمة التى تحتفظ بحق التضحية لها وحمل القرابين اليها ، ولو كانت تساق الى عرش يستوى على مملكة الخراب

وليس بين أسماء الشيطان الاكبر التى دخلت فى مدلولات اللغة ماهو أشهر ولا أدل من هذه الاسماء : الشيطان وابليس ولوسيفر وبعلزبول ومفستوفليس وعزازيل ، فهى اليــوم كلمات وأعلام ، وقد اجتمع لها من معــانى الشيطنة كل مانستقصيه فيما يلى متفرقا عن تواريخ الامم والديانات حول « قوة الشر الكبرى » أو قوة الشر العالمية ، فى موقفها أمام عوامل الخير والكمال

الحضارة المصرية

من أقدم الحضارات التى تمثلت فيها قوة الشر فى صورة شخصية مميزة باسمها وملامحها حضارة مصر القديمة

فمن أقدم عصور المملكة القديمة عرف المصريون حساب الروح بعد الموت وموازين الجزاء على الخير والشر والفضيلة والرذيلة وشروط البقاء التى تستوفيها الروح لتنعم بالحياة الابدية فى العالم الآخر . ولم يكن العالم الآخر عندهم مؤجلا أو منتظرا فى المستقبل بعد خراب هذا العالم الدنيوى ، ولكنه كان امتدادا للعالم الذى هم فيه وهو الديار المصرية ، فخراب الدنيا هو خراب الديار المصرية وهو كارثة طامة لم يكن من اليسير عليهم أن يتخيلوها ويتخيلوا عالما قائما بعدها ، وانما كانوا يتخيلون مصر عالمين دائمين فى كل وقت ، أحدهما ظاهر يسكنه أحياؤهم والآخر باطن يسكنه موتاهم ، فاذا حدث الخراب فى الارض فانما هو عارض يجنيه الظلم على الحاكمين والمحكومين ثم يزول العارض وتعود البلاد سيرتها الأولى مع انتظام الحكم على سنن العدل والانصاف ، وتأتى الحياة بعد الموت متصلة بالحياة على وجه الارض مستبقية لمطالبها ومآكلها ومشاربها فى ظل حكومة كحكومتها ، أو هى فى ظل

حاكم خالد كان فعلا فى يوم من الايام حاكم الارض المصرية أثناء حياته الفانية

وفى كل أمة من الامم القديمة الكبرى يتناقل الكهان والشعب قصة عن نقمة الاله الاكبر على الجنس البشرى وندمه على خلقهم وتفكيره فى ابادتهم عقابا لهم على ذنوبهم ، وتختلف هذه الذنوب باختلاف الامم والكهانات ، فهى تارة مسألة تقصـــير فى الضحايا وتارة مسألة غيرة «الهية» من المعرفة البشرية وتارة أخرى مسألة فساد واشتغال باللذات الى غير ذلك مما سجلته قصص الخلق والعقاب فى جميع الاساطير الاولى

أما هذه القصة فى الديانة المصرية فهى قصة حاكم يغضب على المحكومين لأنهم ثاروا عليه وهموا بخلعه لأنهم استضعفوه وظنوا أنه شاخ وهرم فلم تبق فيه بقية للقدرة على ولاية الامور

وقد كتبت هذه القصة على جدران الحجرة الخاصة فى هيكل سيتى الاول الذى بنى حوالى سنة (١٣٥٠) قبل الميلاد ،وخلاصتها ان الاله الاكبر «رع» علم بتآمر البشر على العصيان فعقد مجلس الآلهة وشاورهم فى أمر هذه الفتنة ، فاستقر الرأى على ابادة العصاة ، وأرسل الاله الاكبر عينه عليهم فألفاهم قد هجروا الديار ولاذوا بالجبال ، وتعقبهم جنوده فأثخنوا فيهم القتل حتى فاضت الارض بالدماء وبقيت منهم بقايا تتوارى هنا وهناك من زبانيته ، فحزن «رع» لأنه أحس حقا بالعجز عن ابادة العصاة أجمعين وطفق بعض الارباب يواسونه ويقولون له : ان مشيئته وقدرته سواء ، فكل مايشاء فهو قادر عليه

وتتم القصة على صورة أقرب الى الرفق والمسامحة فيقال فى ختامها ان «رع» سئم الكنود من رعاياه فأجمع نيته على الاعتزال والاقامة فى السماء ، فندم الناس على كنودهم وعصيانهم وتابوا الخ.

فلم يعدل الاله الاكبر عن نيته ولكنه أمر اله الحكمة « توت » أن يلقن الناس أسرار الحكمة وتعاويذ الوقاية من الآفات ومنها الهوام والثعابين وان يهدى بها الى السلامة من هو أهل للهداية

وتروى قصة النقمة من البشر على روايات شتى يكثر فيها التناقض على ماهو مألوف فى الاساطير الاولى ، فأشدها وأصرمها هذه القصة التى نقشت على هيكل ملك يهمه أن يبالغ فى بطش الارباب ومصير العصاة ، وأقربها الى الرفق تلك الروايات التى تقول ان الارباب راجعوا الاله الاكبر وراح بعضهم يمزج الجعة بالاصباغ الحمراء ليحكى بها لون الدم ويزعم للارباب الساخطين أنه قد أريق منه مايكفى للزجر والعقاب .

وكانت فكرة المصريين الأقدمين عن قوة الشر أو قوة الاله الشرير موروثة من أقدم العهود تتسم كما يتسم كل شيء فى مصر القديمة بالمحافظة الشديدة واستبقاء الكثير من مخلفات كل عصر سابق وكل عقيدة مهجورة ، فيكثر فيها الاختلاف والتناقض على حسب الحواشى والاضافات التى تلصق بها من كل حقبة مرت بها فى طريقها البعيد

ففى صورة اله الشر بقية من عبادة الاسلاف وبقية من امتزاج السحر بالعبادة وبقية من عبادة الشمس وبقية من تعدد الالهة بين مصر السفلى ومصر العليا ، وفيها مع ذلك اثارات تدل على انها فى جملتها معلومات تاريخية واقعية عرض لها التشويه وانطوت فى عداد المجهولات التى يستدل عليها بالتخمين والترجيح

ومهما يكن من خلاف فى العقائد المصرية العـــريقة فالقاعدة المطردة فى تمحيص لبابها انها مشتملة ولا بد على شيء يتعلق بكيان الاسرة وشيء يتعلق بكيان الدولة وشيء يقوم على الشريعة والعرف الاجتماعى ، أو على ماتسميه اليوم بالنظام .

وعلى هذه الصورة تتمثل قوة الشر كما خلصت من الروايات المتعددة على طول الزمن ، فهو صورة الاخ الشرير والحاكم المغتصب والمفسد الذى يعيث فى الارض ويخرج على العرف والعادة ، وهذه هى صورة الاله « ست » اله الظلام فى عقيدة الشعب المصرى على الاقل ، لان عقائد الكهنة كانت تخالف العقائد الشعبية فى تفصيلاتها ان لم تخالفها أحيانا فى الجملة والتفصيل

وقد مضى زمن كان فيه «ست» معدودا من الهة الحق والاستقامة وكان الاله الموسوم بالشر هو « ابيب » الذى كانوا يرسمونه فى صورة حية متلوية تحمل فى كل طية من جسمها مدية ماضية ، وتكمن للشمس بعد المغيب فلا يزال اله الشمس «رع» فى حرب معها ومع شياطينها السوداء والحمراء الى أن يهزمها قبيل الصباح فيعود الى الشروق ، وقد خصص الجزء التاسع والثلاثون من كتاب الموتى لوصف القتال بين الالهين اله الشمس واله الليل ، أو اله النور واله الظلام

وربما كانت القضية كلها فى أوائلها المنسية قضية النزاع على العرش بين أخوين هما أوزيريس وست ، وبقى لكل منهما حزب يعظمه وينتصر له حتى تغلب الحزب الظافر كل الغلبة فتضاءل أنصار الفريق المغلوب وشاعت عنه أنباء الشر والتهمة ، وانتهى بتمثيله فى صورة «أبيب» اله الظلام وتمثيل أخيه فى صورة «رع» اله النور

ولا يبعد أن يكون فى الامر خيانة زوجية أو شبهة من قبلها ، لان أسطورة أوزيريس تروى أن الاله « رع » فاجأ الملكة «نوت» زوجته وهى فى عناق «سب» فلعنها ولعن ذريتها وأقسم لاتلدن فى يوم من أيام السنة ، فلجأت الى الساحر الاكبر «توت» الذى كان مشهورا بعلم السماء وتسخير الارواح العلوية والسفلية

فاخترع أيام النسيء الخمسة لتضاف الى السنة ، واستطاعت نوت أن تلد ولديها التوأمين أوزيريس وست في اليوم الثالث من هذه الايام ، وهي غير محسوبة من أيام السنة التي يطلعها « رع » بعلمه كلما عاد من الظلام ، فخرج الولدان وفي احدهما — أو كليهما — طبيعة الظلمة أو طبيعة النور المختلس بغير علم من اله النور

أما الرواية التي استقرت عليها قصة أوزيريس وست فهي أن الاخوين تنافسا فخدع «ست» أخاه وصنع له صندوقا أغراه بالنزول فيه ليقيسه على جسده ، ثم قتله ومزقه وألقى أشلاءه في النيل ، فجمعتها ايزيس — زوجة أوزيريس — بمعونة الساحر توت ، وبوأته عرش المغرب فهو من ثم رمز للشمس في حالة الغروب

وهناك رواية أخرى لعلها هي الأرجح والاقدم في التاريخ ، وخلاصتها أن «ست» لم يقتل أوزيريس ولكنه نازع ابنه « حوريس » فتغلب عليه هذا وخصاه ليحرمه ويقطعه عن الملك في حياته وبعد حياته ، ولم يكن للاله المغلوب من مكان يعبد فيه غير أقصى الجنوب في مكان «كوم امبو » اليوم حيث كان معبد التمساح

ومما يرجح أن القضية في أوائلها المنسية كانت قضية نزاع على الملك ان اسم «ست» محي من الهياكل بعد زمن ، وأن اتباعه لاذوا بالجنوب حيث يلوذ كل حاكم منهزم في عاصمة المملكة الشمالية ، وان ملوك الرعاة أعادوا لـ « ست » كرامته حين أرادوا أن يحاربوا السلطان القائم ، فبنوا له هيكلا في مصر السفلى وأوجبوا عبادته هناك

وقد استعيرت صفات « ست » من صفات أوزيريس على التناقض

والتقابل بين الطرفين ، فكان من صفات أوزيريس « أنه ملك الخلود وسيد الباقيات وأمير الارباب والناس وإله الآلهة وملك الملوك ، وسيد العالم الذى لايفنى سلطانه »

أما صفات «ست» فهى نقيض الخلود والسيادة على الارباب والناس ، فلا سيادة له على غير الارواح الخبيثة والاحياء الدنيا ، ومن ثم يصورونه برأس حيوان مجهول لايراد به تمثيل حيوان معين ولكنه يمثل الحيوانية فى صورتها المبهمة ، ويجعـــلون له أذنين منتفضتين كناية عن الاسراع الى استطلاع الشر ، وذنبا شائلا كناية عن الحران والاشر ، ويعودون عليه باللائمة كلما أصيبت الدولة بالهزيمة أو أغار على البلاد مغير مغتصب ، لانهم شخصوا فيه عوامل التمرد والانتقاض فربما كان هذا من أسباب حظوته عنـــد ملوك الرعاة فاعتبروه عونا لهم وخصما للسلطان الزائل الذى أغاروا عليه ، وأحبوا أن يتقربوا الى عباده فى الجنوب تمهيدا لضم الاقاليم جميعا فى مصر العليا الى دولتهم التى استقرت بمصر السفلى زمنا وتوقفت عندها جهودهم قبل اجلائهم آخر المطاف عن الجنوب والشمال

ومن اصالة الصبغة الحكومية أو صبغة الحكم والتحكيم فى أقدم المأثورات المصرية أن الاساطير العريقة فى القدم تروى لنا من أخبار خصومة ست وأوزيريس أن «ست» اتهم أخاه بالجور عليه فوكلت الارباب قضيتهما الى أمينها الخاص الذى يعرف أسرارها ويحفظ حكمتها ويؤتمن على قضاياها ـ وهو الاله توت ـ فتبين له صدق أوزيريس وكذب ست ، وخرج هذا مدينا بالذنب والشر من زمرة السماء ، فما برح كل مصرى فى الزمن القديم يتقرب الى اله الحكمة عسى أن يتولى الدفاع عنه بعد الموت وينصفه فى قضيته كما أنصف أوزيريس من أخيه المفترى عليه

وقد شـغل « ست » وظيفـة ضرورية فى عهود الازمات التى

تنهزم فيها الدولة وتنضب الثروة ويختل نظام الحكم وتضطرب مرافق المعيشة ، فقد كان « ست » يبوء وحده بجريرة ذلك كله ، وكانت عليه وحده تبعة كل آفة لايستطاع دفعها ، ومن هذه الآفات ريح السموم وعوارض الجفاف والقحط وأوبئة المرض وسائر الامراض التى كانت تنسب من قديم الزمن الى الجان والعفاريت ، وقد كانت عليه التبعة أيضا فى بقاء السحر الخبيث لأنه كان على علم واسع بفنونه ولم يكن فى وسع الكهان والسحرة أن يعالجوا شروره ويبرئوا المرضى من آفاته بغير وسائله وأسراره ، ولهذا كثرت فى الطب المصرى القديم مقارنة الدواء بالتمائم والرقى وكثرت عندهم التمائم والتعاويذ ومنها مابقى الى اليوم فى صور الجعل والحشرات والاساور والقلائد التى لاتصنع للزينة ولكنها تقرن بالأدوية والعقاقير طلبا للشفاء ، ويقول الاطباء الذين كانوا يشتغلون بالطب والسحر أن الدواء هو الذى يشفى ويبرىء من المرض ولكن التمائم والتعاويذ هى التى تمنع « العكوس » من فعل أرواح الشر وأطياف الظلام .

وقد كان الفراعنة أنفسهم يلجأون الى السحر لمغالبة الارواح الخفية ، فاستعان رمسيس الثانى بأصحاب التمائم والتعاويذ على مداواة أهل بيته ، ولم يفعل ذلك جهلا منه بالطب ولا تعظيما منه لقدر السحر ولكنه فعله ايمانا بضرورة اختيار الترياق من جنس المرض ، ولكل شيء آفة من جنسه كما قيل من قبل ويقال فى كل زمان

ولدينا من بقايا قصص السحرة نخبة لم يتخيرها جامعو الا ثار ولكنها اجتمعت لهم من حيثما اتفق بين الانقاض والمحفورات ، وكلها تروى أعمال السحرة فى مجازاة الاشرار كقصة الساحر « ابانير » أى فالق الصخر الذى استخدم سحره فى الاقتصاص من عشيق زوجته فصنع على يديه تمساحا من الشمع أرسله فى

البركة التى يغتسل فيها العشيق فالتهمه وذهب ليبلغ الملك نبأ هذه العقوبة كى تحدث فى ملكه بعلمه واقراره ، ومن لم يكن سحره قصاصا من المسيئين اليه والى الفضيلة فهو من قبيل «خفة اليد» التى يستخدمها الساحر لاستخراج النفائس المفقودة كما فعل الساحر « خاتشا منخ » حين سقط الخاتم من أصبع احدى الجوارى المصاحبات للملك « سنفرو » فى زورقه فحسر الساحر الماء وكشف عن أرض البركة حيث استقر الزورق الى جانب الخاتم المفقود ، ثم تلا الساحر عزائمه فتلاقى الماء من تحت الزورق ورفعه رويدا رويدا حتى استوى على البركة كما كان

***

يقول صاحب كتاب صناعات السحر فى مصر القديمة :

« ان السحرة المصريين كانوا على علم تام بلزوم الفضيلة والطهارة للساحر الطبيب ، وفى اعتقادهم على الدوام ان الالهة انما يقترب منها كل طاهر القلب سليم النية ، وكانوا ينشأون على الايمان بأن العبث ومطاوعة الشهوات تجور على العقل والبدن وتعوق طالب المعرفة » (١) .

ومن أجل هذا كانوا يقسمون علم الاسرار الى أقسام ودرجات، فمنها العلم الذى يستعان فيه بقدرة اله الخير على اله الشر وجنوده ، وقوامه الصلوات والرياضات الروحية

ومنها العلم الذى يستعان فيه بقدرة الشيطان الكبير على الشياطين الصغار ، وقد يدخل فيه السحر الخبيث بحكم الضرورة على غير اختيار

ومنها السحر الخبيث للاغراض الخبيثة ، ولا يليق بالكهان الابرار أن يشتغلوا به وان وجب عليهم أن يتعلموه لاتقاء ضرره والتعوذ من سوء عقباه

---

(١) The Occult Arts of Ancient Egypt by Bernard Bromage

ويمكن أن يقال على الجملة أن الشر فى العالم كله انما كان فى عرف الحضارة المصرية « جريمة اجتماعية وطنية » غير مشروعة ولم يكن عنصرا أصيلا فى تركيب الدنيا أو تركيب الانسان ، وقد بلغ من تطور هذه العقيدة فى تفكيرهم الدينى أن اختاتون استغنى عن الجحيم وأنكر دعوى أوزيريس فى السيطرة على عالم العقاب بعد الموت

ولا تظن أن تاريخ « ست » قد استوفى حتى اليوم دراسته المثلى فى علوم الآثار أو فى علم المقابلة بين الأديان ، فان الذى عرف منه الى يومنا هذا يسوغ القول بكثير من الفروض والاحتمالات التى كانت تلوح للنظرة الأولى ضربا من الخيال أو اللعب بالجناس، ولا نعنى بتسويغ القول بها انها ثابتة أو أنها راجحة مقبولة على علاتها ، ولكننا نعنى انها فروض واحتمالات لا ترفض ولا يزال من يرفضها محتاجا الى سند وثيق

فالمؤرخ بلوتارك يذكر فى كتابه ايزيس وأوزيريس أن «ست» كان يلقب « بيبون » وان هذا اللقب معناه العقبة المعترضة فى طريق يفضى الى الخير لتتحول به الى الشر ، ويقول فى الفصل الثامن والعشرين أن الاساطير تروى أن اليهود هم أبناء « ست » من أتان ، ويعلق المؤرخ « أوليفيه بير جارد » على ذلك فى كتابه عن الارباب المصرية فيقول ان هذه الاسطورة أصل الخرافة التى شاعت فى تقديس اليهود فى هيكلهم لرأس حمار (١) .. ويقول غيره بين الجد والهزل ان شمشون حاربهم من أجل ذلك بفك حمار ، وانهم لهذا يتبركون بالمخلص الذى يأتى فى آخر الزمان على حمار ابن أتان

---

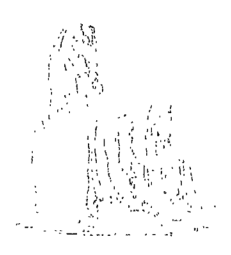
(١) صفحة ٢٠٥ من كتاب الارباب المصرية

Les Divinites Egyptienne par Beauregard

وقد تكرر القول بأن كلمة « ست » و « ستان » أو الشيطان العبرية من أصل واحد ، ولا نزاع فى اقتباس اليونان والعبريين من المصريين فى تصوير « الشخصيات » العلوية والسفلية ، فليس من الأناة أن نجزم ببطلان التشابه فى اللفظ بين الفرعونية والعبرية مع عبادة الملوك الرعاة للاله الفرعونى كما تقدم ، وليس من الأناة أن نجزم ببطلان التشابه بين مدلول اسم ست عند المصريين ومدلول اسم الشيطان Diabolos باليونانية ، وكلاهما يفيد معنى الاعتراض والدخول بين شيئين للتعويق والافساد ، وقديما شاعت نحلة ايزيس وأوزيريس وغيرهما من الآلهة المصرية بين بلاد اليونان فى آسيا الصغرى وبين الاثيوبيين واليمانين فى الجنوب ، وقال ديدورس الصقلى أنه رأى فى «نيسا» من بلاد العرب عمودا للاله أوزيريس وشيئا من قصته ملخصا على ذلك العمود

وقد ختم الاستاذ بورجارد كتابه الذى أشرنا اليه آنفـا عن الارباب المصرية قائلا ان النحلة المصرية نقلها العبريون من مصر الى الشام واليمن ، ونقلها الاغريق الى اليونان ونقلها الفينيقى قدموس الى اليونان والى بلاده ، وان أعظم العقول اليونانية كانت تهاجر الى مصر لتدرس المعرفة المصرية فى طيبة ومنف وعين شمس وسايس ، وعدد منهم ليكرغ وصولون وطاليس وفيثاغورس وافلاطون وايدوكس ، وعدد بعدهم أمما من تلميذات الثقافة المصرية بين أهل الكتاب وغير أهل الكتاب ، ولا شك فى شيوع عقيدة الثواب والعقاب وعالم الابرار وعالم الاشراء فى الديانة المصرية القديمة ، فليس من الغريب أن تتخلف منهـا بعض المصطلحات والمسميات ، وليس من الاناة على الاقل أن ينتهى تاريخ « ست » حيث انتهى فى هذا الموضوع ، وقد قيل أن العزى هى ايزيس وان مناة هى منوت أو موت ، وان النصوص متقاربة بين بعض المزامير وبعض أناشيد أتون ، وأن أيوب عليه السلام

كان يسكن الى جانب مصر ويتحدث عن أهرامها التى تبنى لتخليد الموتى ، ويكافح الشيطان الذى يوسوس له ويغـــريه بالكفران والعصيان ، وأقل من هذه الملابسات حقيق بالتريث عنده وترك الباب مفتوحا بعده لما تأتى به الكشوف وتسفر عنه المقارنات .





الحضارة الهندية

ترجح فئة من علما المصريات أن الديانة الهندية القديمة دخلتها مقتبسات كثيرة من ديانة المصريين الأوائل ، ويرى برستيدواليوت سميث أن معظم هذه المقتبسات من كتاب الموتى ومن شعائر تقديس الملوك التى يستطاع التحقق من سبق الحضارة المصرية اليها .

ويرد ذكر مصر فى كتب البورنا التى جمع فيها الهنود الاقدمون قصص الالهة وبعض الملاحم الكونية المتوارثة عن آبائهم الاولين

ولكن طبيعة الديانة الهندية تقرر الحدود التى تبلغها تلك المقتبسات ولا يمكن أن تذهب بعيدا الى ماوراءها ، فهى لاتكون بطبيعة تلك الديانة الا من قبيل الشعائر والمراسم ولا يتأتى أن تتخطاها الى أصول الديانة فى جوهرها ، اذ كانت الديانتان الهندية والمصرية على اختلاف كاختلاف النقيضين أو الطرفين المتقابلين ، ولو أراد أحد أن يضع ديانتين يتوخى فيهما التقابل فى العقائد الاساسية التى تدور عليها كل ملة لما استطاع أن يبلغ فى هذا التقابل مابلغه أهل مصر وأهل الهند فى العهود المتتابعة على غير قصد بطبيعة الحال

والعقائد الاساسية التى تدور عليها كل ملة تتناول وجود

الانسان ونظام المجتمع ووجود العالم كله أو الوجود على اطلاقه ، وفي هذه المسائل الثلاث تقف الديانتان العريقتان موقف التقابل من طرف الى طرف ، كأنهما عامدتان الى تصوير سمة الآفاق التي تحيط بالعقائد في ضمائر بني الانسان

فالديانة المصرية تصون جسد الانسان وتستبقيه الى الحياة الابدية ، والديانة الهندية تنكر الجسد وتعلم أتباعها أن الروح تنسخ جسدها مرة بعد مرة ولا تنال الخلاص الا اذا فنى الجسد كل الفناء

والديانة المصرية تعتبر دوام الأسرة آية من آيات النعمة الالهية ولا تعرف دعاء الى خالق الكون أحب الى الداعين من بقاء تراث الآباء والاجداد واتصال العقب الى آخر الزمان ، وعلى نقيض ذلك ديانة الهند التي تعلق النجاة بالافلات من دولاب الحياة والموت والرجوع الى « النرفانا » من طريق « الموكشا » أي اجتناب العلاقة الجنسية ولو في حالة الزواج .

وتؤمن الديانة المصرية القديمة بأن العالم المحسوس حق وخير فتجعله مثالاً لعالم الخلود ، وعلى نقيض ذلك ديانة أهل الهند التي تحسبه شرا محضا وباطلا موهوما ومنبعا لجميع الشرور التي تعترض عالم الحقيقة وتشغل الروح بالأعراض والقشور

ويكفي هذا الاختلاف بين الديانتين لامتناع التشابه بينهما على الخصوص في مسألة الشر وقوة الشر وعلاقة هذه القوة بنواميس الكون الخالدة سواء منها مايتمثل في صورة « الذات » الالهية أو مايتمثل في الناموس الأعظم أو « الكارما » الذي ليس له ذات

على أن الديانة الهندية تحير علماء المقارنة بين الاديان أشد الحيرة في أمر « الشخصية » التي تقابل شخصية الشيطان أو قوة الشر العالمية عند أصحاب الديانات الاخرى ، وأسباب هذه الحيرة

متعـــددة لايصادفها العلماء بهـذه الكثرة وبهذه الصعوبة فى غير الديانة البرهمية وماتفرع عليها

من هذه الاسباب أن الهنود الاقدمين قد تعاقبوا على البلاد بعقائد مختلفة يوشك أن تتناقض بين قبيل وقبيل من السابقين واللاحقين، وربما تعمد القادمون أن يهدموا عقـائد من تقدمهم فلا ينجحوا كل النجاح ولا يتركوها سليمة من التضارب والاختلاط ، ومن ذلك فى هذا الباب عقيدتهم فى العفـاريت الخبيثة أو العابثة التى يسمونها بالـ «راكشا» وينسبون اليها أعمالا كأعمال الشياطين فى الديانات الاخرى ، فان الباحثين فى اشتقاق الكلمة يقولون تارة انها تفيد معنى الحراسة ويقولون تارة أخرى انها الاسم الذى كان يطلق على الهمج الأولين الذين سكنوا الهند قبل اغارة الآريين عليها وكانت لهم حراسة على الطرق وعلى ينابيع الماء ، وقد رسخ فى الاذهان من أحاديث القتال بينهم وبين الآريين أنهم أعداء البشر وأنهم يتربصون بالناس كما يتربص الناس بهم فى كل مكان ، فلا ينجو أحدهم من الآخر حيث أصاب الغرة منه ، ثم تطاول الزمن فانقسموا فى أساطير العامة الى أقسام ثلاثة : أحدها يشبه أرواح «الياكشا» البريئة التى تهيم على وجهها ولا تؤذى أحدا الا أن يتعرض لها ، والثانى يشبه العصاة المتمردين من الجن ويعادى الانسان ألد العداء ، والقسم الاخير يلوذ بالمقابر والصوامع ويحالف الموت والخراب ، ويقـول من يزعمون رؤيتهم أنهم مشـوهون ، بعضهم ذو رأسـين وبعضهم ذو ثلاث أرجل ، ومنهم من له عين واحدة فى رأسـه ومنهم من له عدة أعين ، وكلهم على خـلاف البشر فى التركيب

ولا ينسب الى هؤلاء « الراكشا » عمل من أعمال الاغراء والاغواء ولكنهم قد يغتصبون النساء عنوة ويتلصصون فى الطرق المقفرة ويستبيحون الاذى للكيد أو للعبث والدعابة ، ورئيس هؤلاء

« الراكشا » المسمى « رفانا » هو الذى اختطف الحسناء «سيتا» زوجة البطل « رام » كما جاء فى ملاحم « الريجيفيدا » ثم حملها الى جزيرة سرنديب ولم يستطع زوجها أن يهتدى اليها ويخرجها من أسرها الا بمعونة القرد هنومان

فالشياطين فى صورة « الراكشا » هم « الشر » الذى أبغضه الآريون وصوروه لأبنائهم فى الصورة التى تنفرهم منه وتحذرهم من كيده ، واتهم عندهم بما يتهم به كل شعب مهزوم يستأصله أعداؤه ويدفعون به الى أقاصى الارض وزوايا المدن ويستثيرونه أحيانا من فرط الظلم فيثور ويهملونه أحيانا فيهيم على وجهه عاجزا عن الأذى قانعا بالسلامة أو متحفزا للانتقام

***

والى جانب التتابع فى الديانات والاقوام المغيرة على البلاد يقوم السبب الشامل فى جميع العهود ولا سيما العهود الاخيرة التى تطورت فيها فلسفة الهياكل ووجد فيها الكهان المفسرون والمفكرون على أعقاب الكهان المتنسكين أو الدهاة المتحكمين ، ففى هذه العهود الاخيرة تمكن الاعتقاد ببطلان العالم المحسوس وغلبة الشر على طبيعة الوجود كله فلم يكن فى « الوجود » الشرير محل خاص لقوة تفسده وتدحض فيه الحق أو تنقض فيه الخير ، وما فيه من حق ولا خير الا أن يفارقه الصالحون الناجون بأرواحهم الى عالم الفناء

وقد اشتمل الثالوث الابدى فى الديانة البرهمية على ثلاثة أرباب هم « براهما » الاله فى صورة الخالق و « فشنو » الاله فى صورة الحافظ و « شيفا » الاله فى صورة الهادم ، فكان الهدم — من ثم — عملا ربانيا يقوم به الاله فى صورة من صوره وينصف به الحق من هذا الوجود الباطل الذى ينبغى أن يزول ليمهد سبيل الطهارة

والصفاء ، وبهذه المثابة يضيق مجال الشيطان ولا تمس الحاجة اليه في نظام الوجود

ومن الصعوبات التي تحير علماء المقارنة بين الأديان أن التناسخ أو تعدد الصور للروح الواحد عقيدة عميقة متشعبة في الديانة البرهمية وفروعها ، فليست هي مقصورة على الانسان في أدوار حياته المتعاقبة ولا على الحيوان في أشكاله المتنوعة بل تعم الوجود كله من الارباب العليا الى مادونها من الحيوان والنبات حتى الجماد، ولهذا يتفق أن تكون للاله صور متعددة تقترن النعمة ببعضها وتقترن النقمة بغيرها ، فيدين أناس للاله « شيفا » على أنه مصدر الخير وقائد الارواح في طريق الفناء الى حظيرة « الوجود » الأسنى ، ويرهبه أناس آخرون على أنه سلطان الغضب والنكاية فلا رحمة عنده ولا موئل من قصاصه وتقلب أطواره

وليس تعدد الصور كل مايواجه العلماء من أسباب الحيرة وتناقض الصفات في الاله الواحد ، بل هناك سبب آخر يضاعف هذا التعدد ولا يمنع « الشخصية » الربانية الواحدة أن تتولى أعمال العدد العديد من الشخصيات الربانية في معظم الديانات ، وهذا السبب هو اضافة الـ « شاكتي » أي قرينة الاله الانثوية الى وظيفته في المسائل الدنيوية

فكل اله له « شاكتي » بمعنى القرينة أوالزوجة ، هي التي تنوب عنه في « شئون الدار » أو في الشئون التي يتركها ولا يتفرغ لها ايثارا للعمل في الآفاق العلوية

وتعود الأقاويل الى «الشاكتي» فتجعل لها طبيعتين: طبيعة بيضاء منها الرفق والرحمة وطبيعة سوداء منها العسف والقسوة ، وقد تسمى الطبيعة الواحدة باسمين فتصبح « الشاكتي » الواحدة ذات أربعة أسماء غير اسمها الاصيل ، وعلى هذا المثال تسمى قرينة

سيفا اله الشر باسمها الأصيل «ماهسواري» ثم تسمى باسم «أوما» واسم «جوري» حين ترجى منها الرحمة والمودة وتسمى باسم «جوري» واسم «كالى» حين تخشى منها النقمة وسوء النية ، واسم كالى الاخير هو الاسم الذى يعرفها به عبادها الذين اشتهروا باسم الخناقين واتخذوا شعارهم في القرابين البشرية قتل الضحايا بغير اراقة الدماء

وقد عاشت جماعة الخناقين زهاء ستة قرون تتعبد للآلهة «كالى» بخنق ضحاياها والتقرب بأسلابهم على محاريبها ، وتتخيل هذه الالهة على مثال امرأة عابسة تحيط خصرها بنطاق من الجماجم والسكاكين وتحمي كل من يطيعها ويتقرب اليها بتلك القرابين ، وعقيدتهم فى ذلك أن الاله « فشنو » يحافظ على الاحياء فيتكاثر عددهم ويعجز الاله «شيفا» عن ملاحقته فى مهمة الابادة والافناء، فيستعين «بالشاكتى» كالى على هذه المهمة ويتزلف اليها عبادها بالمعونة على القتل مع اجتناب سفك الدماء لأن الدم الذى يراق على الارض تتولد منه الحياة

وجماعة الخناقين هذه طائفة قليلة بين الملايين من الهنود الذين ينكرون عبادتها ويسفهون احلامها ويحرمون قتل الحيوان ، بل قتل الهوام والحشرات ، فضلا عن الانسان ولكنهم لاينكرون ربوبية « كالى » ولا يتركون عبادتها على النحو الذى يرتضونه ويحسبون انه أقرب الى رضاها ، ومن ذاك انهم يترهبون أو يكفون عن النسل فيرضونها بغير حاجة الى قتل الابرياء .

وتلك الاسباب في جملتها هى التى تحير علماء الاديان كلما أردوا أن يحصروا الشر فى « شخصية شيطانية » تنعزل بقوتها عن القوى الالهية فى أقانيمها المتعددة .

ولكنهم يثوبون في النهاية الى عقيدة واحدة مشتركة بين النحل والمذاهب ولا حيرة فيها عند تصوير الشر فى صورته الكونية

الشامله ، وهذه العقيدة هي الايمان بأن العالم المحسوس شر وباطل وان كل مايربط الانسان به شر وباطل مثله ، وتشتمل روابط الانسان بالعالم المحسوس على كل مطمع وكل شهوة وكل أمل منه بلذة من لذاته أو قنية من مقتنياته ، وتتجمع هذه الفتن ماثلة في «المرأة» لأنها سبيل الروابط الدنيوية التى تقيد الحى بالدورات الابديه فى دولاب الولادة والموت ، وان لعنة الموت تلاحق كل من يولد ويلد حتى ينقطع عن النسل ويثوب الى «النرفانا» بغير علاقة ترده الى هذا العالم المحسوس ، ومن ثم يفضى به المطاف فى الآباد المتطاولة الى غاية كل مطاف من الفناء والسلام

ويلاحظ انهم يحملون الأمر على «الانوثة» كلما عرضوا لعمل من أعمال الارباب ينزهون عنه الالهة ويلحقونه بالشواغل الدنيوية الارضيه

ويلاحظ كذلك انهم يقولون عن العالم المحسوس كله انه «مايا» أو وهم وضلالة ، وانهم يصورون هذا « المايا » فى صورة أنثى تبدو الفتنة والغواية ، ويمثلون جمال العالم المحسوس بجمال الانثى التى تستعين بالغريزة الجنسية على خداع المفتونين عن الحقيقة ، فيحسبون اللذة نعمة تبتغى وهى شقاء أبدى لايؤدى الى غير الشقاء

وليس فى الديانه الهندية وفروعها المتشعبة شخصية واحدة تشبه شخصية الشيطان غير الرب الذى يسمونه «المارا» من الموت ويقولون انه مسيطر على السماء السادسه ومادونها من العوالم الارضية ، كأنهم جمعوا فيه فتنة الحياة الدنيا مشخصة معروفة باسم واحد بدلا من تعميم القول على الفتن التى تساور النفس ولا تتمثل لها ذات فى الحس أو الخيال

وهذا « المارا » هو الذى قيل فى قصة « بودا » انه وسوس

له وألح فى وسواسه ليشغله عن النسك ويصرفه عن مسلكه من الحكمة وهو مسلك الزهد والاعتدال

فالشر الكوني هو الشر النفسى الذى يخامر الضمير ويزين له ترك الحكمة والاقبال على الاوهام والاباطيل

وديانة الهند على هذا لم تبتدع شيطانا أو أرواحا شيطانية غير الارواح التى يسمونها بالراكشا ويردونها الى الشراذم المشردة من أبناء البلاد الاصلاء الذين صمدوا للآريين زمنا ثم استكانوا على مضض وتربص أو على هوان واستسلام

أما « الشيطان الكونى » فهو مرادف للفتنة وكل مايغرى النفس بمطامع الحياة

ويصعب على المتتبع للأعمال التى تنسب الى بعض الآلهة والاعمال التى تنسب الى الشياطين الهادمة أو المعادية للجنس البشرى أن يفرق بينهما بغير الرجوع الى النيات ، فقد تتشابه فى الهدم ولاتفترق عن القصد والنية ، فما كان هدما للقضاء على مطامع الدنيا وحبائلها فهو خير ، وماكان هدما للتنافس على هذه المطامع والوقوع فى هذه الحبائل فهو من عمل الشيطان كيفما كان الاسم الذى يطلق عليه

بين النهـــرين

ظفرت بلاد « بين النهرين » بعناية من المؤرخين الدينيين وعلماء المقارنة بين الأديان لم يظفر بها قطر آخر • لانها مبدان للبحث لايضارعه ميدان آخر فى اتساعه وامتداد تاريخه وتعـدد أقوامه وتيسر البحث فيه لنوعين من المقارنة يندر جدا أن يتيسر فى رقعة أخرى من الكرة الارضية ، وهما مقارنة الاديان ومقارنة الاجناس فى وقت واحد ، اذ كان وادى الدجلة والفرات وطنا قديما أقام فيه الآريون والساميون والطورانيون ، وسواء صح أن السومريين الذين أقاموا فيه زمنا قد وفدوا اليه من الصين أو لم يصح هـــذا القول الغالب فقد صح أن « زرادشت » نبى المجوسية عاش بين الطورانيين والمغول حقبة من الزمن ووفق بين عبادتهم وعبـــادة الثنوية المجوسية بعض التوفيق

وهـــذا التعدد فى السلالة يصاحبه تعـــدد آخر فى الاحوال الاجتماعية بين مجتمع المدن ومجتمع الرعاة ومجتمع الزراعة الدائمة ومجتمع الزراعة المتنقلة ، وبين أناس يبنون الهياكل وأناس لايعرفون البناء ، أو أناس يعبدون النار والكواكب وأناس يلصقون عبادتهم بالارض ومعالمها وعناصر الطبيعة التي تهيمن على أرزاقهم ومساعيهم

وتضاعف العناية بالديانات التى نشأت بين النهرين لسبب عبر هـــذه الاسباب يهتم به الاوربيون وأتباع الأديان الكتابيـــه على العموم ، لان مراجع الاديان الكتابية تبتدىء فى بلاد النهرين منذ عهد ابراهيم الخليل الى عهد الشريعة الموسويه وشريعه حمورابى الى عهد السبى واختلاط بنى اسرائيل بالبابليين والمديين واقتباسهم مااقتبسوه منهم فى العرف الدينى والشعائر التى لها اتصال بمراسم العبادة ، ثم تاتى عبادة « مترا » وعبادة « المانوية » وقد زاحمتا المسيحية مزاحمة شديدة فى دولة الرومان من شواطىء آسيا الى الجزر البريطانيه

فالعقائد الدينية التى نشأت قديما حول بلاد النهرين لم تزل محور البحث ومرجع المقــارنة والاستشهاد فى جميع الديانات الكبرى ، وأولهــا المسيحية التى يدين بهــا الاوربيون وهم أول من درس المقارنة بين الديانات على النهج الحديث

ونحن فى هذا الفصل لانقصر الكلام على البلاد التى تحصرها الاوضاع الجغرافية بين النهرين ، ولــكننا نمضى معهــا الى حدود الحضارة التى تأثرت بها أو أثرت فيها من وراء النهرين شرقا الى أرض فارس ومن ورائها غربا وجنوبا الى الاقطار العربيـــة أو الاقطار الساميـــة التى كان لها اتصــال بالدولة القائمـــة فى بابل وأشور ، ولا حاجة بنا ـــ فى هذا الفصل ـــ الى استقصاء العقــائد والشعائر فى هذه الرقعة الواسعة من المساكن والسكان ، وانمــا ننظر الى عقائدها وشعائرها من جانب الصلة بموضوع الكتاب وهو الكلام على « الشيطان » أو قوة الشر العالمية ، وقد كان لحضارة النهـــرين صلة وثيقـــة بجميع الامم التى دخلت فى عداد المؤمنـــين بالاديان الكتابية ، فليست فى حضارات العالم حضارة أحق بالدراسه فى هذا الصدد من الحضارتين البابلية والفارسية ، وكلتاهما تدخل فى العنوان الشامل الذى نطلقه على أقطار « مابين النهرين » بشىء

من التجوز من الوجهة الجغرافية ، وبغير تجوز من الوجهةالثقافية

فنحن نرجع الى « بابل » لفهم التطور فى معنى « الخطيئة » مميزا من معنى الذنب أو العيب أو الرذيلة أو الجريمة

ونحن نرجع الى « فارس » لفهم التطور فى مذهب « التنويه » أو النزاع بين سلطان الخير وسلطان الشر فىالاكوانالعلياوالسفلى، ومنها الكرة الارضية

***

اذا كنا نعرف للحضارة المصرية صبغةنلتمسها فى جميعمظاهرها وهى صبغة الحكم والشريعة ونظام الدولة ، فالصبغة التى تغلبعلى حضارة بابل – على هـــذا النحو – هى صبغة التنجيم والازياج الفلكية ، وسنرى أن علماء المقارنة بين الاديان لم يلتفتوا الى هذه الناحية فى علاقتها بفهم المقصود من معنى « الخطيئة » مع أنهـــا – على مانرى – لاتفهم حق فهمها مالم تبتدىء من هذه البداية

لقد عرف البابليون رصد الكواكب من أقدم الازمنة ، وعلقوا مصائر الناس وأقدارهم بسعودها ونحوسها ، فلايسعد أحدهمبنعمة السماء ولا يشقى بغضبها الا وهـــو فى الحالتين عرضـــة للقضاء المسطور فى أزياج النجوم

وقد نشأ عنـدهم علم الفلك بحسابه وتقديره مصاحبا لعـــلم التنجيم بخرافاته وأوهامه ، ولم تكن كل هذه الخرافات والاوهام خداعا من الكهان والسحرة ، بل كانت عندهم عقيدة يصدقونها ويمزجونها بالقصص والألغاز التى يدركهـــا العامة ولا يدركون ماوراءها

ومامن قصة بلغتنا من أرض بابل في تاريخها القديم الا وهي قصـــة من قصص المنـــاظرة بين الارض والنجوم في شـــكل من الاشكال التي يفتن فيها الحس والخيال

قربة الارض « تيامات » تتحدى السماء فستعين بالطوافين على حكم أقطارها وتخلق من جوفها الحيات والحيتان لتوطيد سلطانها، وبرج بابل يقيمه المتمردون من البشر ليرتفعوا به الى مناجزة الارباب في سماواتها ، وكل ثورة من ثورات الاساطير المزعومة فانما هي في مدلولها خروج من الارض على ارادة السماء لاتلبث السماء أن تكبحه وتروضه على الطاعة الواجبة وعلى التسليم لها بحقوق الصلاة والقربان

فلم يكن للبابلي من هم في سره وعلانيته الا أن يستطلع ارادة النجوم ويخرج بالاذعان لها وموافقة هواها من عداد « المنحوسين» الى عداد السعداء

ويسأل العارفين بالتنجيم : ماذا تريد النجوم ؟ وماذا كتب لي في كتابها المرقوم ؟ فما كان رضى للنجوم فهو الفلاح والنجاح ، وما لم يكن رضى لها فهو الخيبة والضياع

لم يكن الامر هنا أمر الحسن والقبيح أو أمر الصلاح والفساد أو أمر الاستقامة والاجرام ، كلا ... وانما هو أمر الرضى من كواكب السماء بما يوافق المسطور المكتوب أو أمر الغضب الذى يحيق بمن يخالف قضاء الكواكب في مجراه

والفارق بين الأمرين انما هو الفارق بين الموفق السعيدوالخائب المنحوس ، أو بين من يسلك سبيل السلامة ومن يقترف حماقة الخلاف بغير رجاء

***

وينبغى أن نفهم هذا الخلاف بالمعنى الذى يميزه من معنى الذنب ومعنى العيب ومعنى الرذيلة ومعنى الجريمة ، فانه يباينها في طبيعته ولا يتأتى للانسان أن يعرف موضع التحريم منه الا اذا عرف مشيئة الله فيه ، وليست الذنوب أو العيوب أو الرذائل أو الجرائم بهذه

الصفة الخاصة بين المحرمات • لان الانسان قد يعرفها ببداهته أو بتعليم المجتمع الذى يعيش فيه

فالذنب اساءة قد يجنيها الانسان على من هو مثله أو من هو دونه وقد يصاب بها كما يصيب ، فهو مسألة انصاف أو اجحاف فى المعاملة

والعيب نقص يعترى الانسان من عجزه أو جهله ، فهو مسألة كفاية وقصور

والرذيلة اسفاف يتورع عنه صاحب الفضيلة الذى يروض نفسه على الكمال ، فهى مسألة كرامة وابتذال

والجريمة عدوان بغير الحق يتعارف الناس على انكاره ومجازاة فاعله ، فهى مسألة قانون وقضاء

أما الخلاف الذى يسمى « خطيئة » فيكفى فيه أن يعمل الانسان مالم يرده الاله ولو لم يكن من ورائه ضرر يعلمه ، لان الخلاف فلة ايمان بالمشيئة الالهية ، فهو مسألة أدب أو سوء أدب مع الله

ونفهم الخطيئة على هذا الوجه مشابه فى علم السحر والكهانة تقربه من الاذهان على نحو سائغ فى كل تعليم • فليس من أدب التلميذ الذى يتلقى خفايا السحر والتنجيم أن يجترىء على كشف القناع عن سر يحجبه المعلم الى حين ، وعليه أن يغمض عنه عينيه ثقة منه بما يختاره له معلمه من درجات المعرفة على حسب مواقيتها المقدورة ، فان خالفه يوما متعجلا أو مستريبا فهذا الخلاف سوء أدب أو جهل يخرجه من عداد الصالحين لعلم الاسرار

وهذا رسم الخطيئة بين سائر المحرمات ! رسمها انها تحريم يناط بمشيئة الله ولا يطلب من العباد أن يتجنبوه لسبب غير هذه المشيئة ، وان خفيت عليهم وجوه الحكمة فيها

وقد أورد برتشارد (١) فى كتابه عن شعائر الشرق الادنى الغابرة وعلاقتها بالعهد القديم ، نماذج من الصلوات البابلية المحفوظة يعلن أصحابها التوبة ويطلبون الغفران لانهم أكلوا طعاما محرما ووطئوا على بقعة محرمة بغير علم ولا اجتراء على مغبة العقاب

وقد نزيد المسألة توضيحا حين نقول ان الاله وحده هو الذى يحق له أن يحرم شيئا ولا يذكر سبب تحريمه ، لانه هو وحده الذى يعلم مصلحة الخلق جميعا فيما يبيحه لهم وينهاهم عنه ، فأما غير الاله فالمحرمات التى ينهى عنها لغير سبب لاتدين أحدا بالخطيئة وكل مايخشاه من اتيانها أن يتعرض للغضب أو للعقاب

فلا جرم تتقدم البلاد البابلية غيرها من البلاد لانها تقدمتها فى كشف الطوالع ورصد الكواكب وتفسير ماتنبىء عنه من سعود أو نحوس ، وتستحيل السعود والنحوس الى مباحات ومحظورات ومحللات ومحرمات حين تستحيل الكواكب أربابا علوية تريد السعد والنحس بحساب وتقدير

***

أما الحصة التى ساهمت بها عقيدة فارس فى تاريخ الأديان ، وتاريخ قوة الشر على التخصيص ، فهى « الثنوية » أو تنازع النور والظلام على سيادة الوجود

ويظهر أن الثنوية هذه عريقة الاصل عميقة الجذور فى البقاع الفارسية وما حولها ، فانها بعد تهذيب الاديان الكتابية لها لم تزل متغلغلة فى أفكار بعض الكتابيين ممن ينتمون الى اليهودية أو الاسلام ويقيمون فى أطراف البلاد التى كانت تحيط بها حضارة مابين النهرين منذ أربعين قرنا أو تزيد ، وقد روى الدكتور يوسف

---

(١) Ancient Near Eastern Texts by Pritchard

وولف صاحب الرحلة الى بخارى (من سنة ١٨٤٣ الى سنة ١٨٤٥) أن شيخا يهوديا يدعى ناثان زاره ومعه درويش من كشغار فسأله الدرويش ممتحنا : من خالق النار والماء ؟ .. قال الدكتور وولف: فلما أجبته أنه هو الله ، صاح بى قائلا : صه ! لاشىء من ذلك ، لان النار والمـاء عنصران مهلكان ولا ينبغى لله أن يخلـق المهلكات ، وعليك أن تعلم أن الكون يحكمه الهان : أحدهما اله الملأ الأعلى وهو رب الخير الذى خلق نورا لايحرق وخلق الوردة والبلبل، وقد تصدى له اله العالم الأسفل فحجب عنه خلائق الخير وشنها حربا لا تزال حتى اليوم حامية الأوار ، فمن عمل خيرا من الناس فهم خدام الاله الأعلى ، ومن عمـــل شرا منهم فهم خدام الاله الاسفل ، وسوف تحتدم الحرب كرة أخرى فيصعد الاله الاسفل الى السماء السابعة تحلق معه ألوف الالوف من جنده وتطير بينها الحيات والثعابين ، فيدور القتال سجالا حتى ينهزم الاله الاســفل ويلقى عصا الطاعة لاله السماء

وأغرب من بقاء هذه العقيدة فى موطن الثنوية أنهـا بقيت بين الاوربيين الى القرن السابع عشر وكانت لها نحل ومعابد من بلاد البلقان الى العواصم الفرنسية فى الشمال والجنوب ، واذا صحت بعض الاخبار ـ مما نشير اليه فى الفصول التالية ـ فقد بقيت شعبة منها الى القرن العشرين تتستر باسم الماسونيه وتستقبل المصلين فى باريس حيث يقربون القرابين الى الشيطان ويكررون التـلاوات التى كانت ترتل فى معابد النحل الشيطانية قبل ثلاثة قرون وتدور خلاصتها على الايمان بسيادة الشيطان على الدنيا واعتبار المادة خلقة شيطانية يتنزه عنها اله السماء ولا تسرى عليها اوامره ونواهيه

وقد تطور الايمان بالثنوية أو هو قد ترقى مع الزمن فى القرون الاولى كأنه جذر عريق لايقتلع مرة واحدة ولا يزال قابلا للنمو فى منبت بعد منبت من العبادات الخاليه

فكان الوجود قسمة متساوية بين النور والظلام كما يتساوى النهار والليل ، ثم ترقى المؤمنون بهذه الثنوية فآمنوا باله واحد يسمونه «زروان» وقالوا بولدين له كانا في رحم الغيب فوعد أكبرهما بالسيادة على الدنيا فاحتال اله الظلام منهما على الخروج أولا لعلمه بمسالك الظلمة فكان له السلطان على الرغم من أبيه انجازا لوعده، ولم يستطع الأب الا أن يعد ابنه اله النور بالغلبة بعد حين يقدرونه بتسعة آلاف من السنين الكونية !

هذان الالهان هما « أورمزد » و « أهرمان » أو الروح الطيب والروح الخبيث

ومن عقائد بعض الثنوية أن الخلائق النافعة من صنع اله النور وان الخلائق الضارة أو التي لانفع فيها من صنع اله الظلام

وبعض طوائف الثنوية يعتقدون أن الجسد كله شر ولكن الارواح العلوية أرادت أن تحارب جنود الظلام فأنبأها الاله الأعظم انها لاتقوى على حربها بغير أجساد كأجسادها ، فان شاءت بقيت على صفائها ، وان شاءت لبست أجسادا من المادة فكافحتها بسلاحها ، وهذه هي الارواح العلوية التي بقي الاكثرون منهم على صفائهم ورانت الغواية الجسدية على بعضهم فغلبتهم الفتن والشهوات

ويعتقد فريق من الثنوية ان آدم من خلقة الشيطان ولكن الارواح العلوية تعالج أن تصلحه وتقوم أوده وتستخلصه من وهدة الطين بقبس من النور تدسه له في وجدانه فيأنف الحياة الارضية ويتطلع ببصيرته الى السماء

وجاءت المانوية فانتشرت في بقاع الدولة الرومانية بعد ظهور المسيحية ونافستها أشد منافسة في آسيا الصغرى وبلاد الروم من آسيا واوربة ، فامتلأت معاهد الدينين بالكلام عن الشيطان واستصوب

أناس من آباء الكنيسة أن ينتزعوا شعائر عباد النور فجعلوا يوم الاحد يوم الاسبوع المختار لانه كان مخصصا لعبادة الشمس (١) وجعلوا اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر يوم الميلادلانه كان يوما ينصرف اليه المسيحيون الى سهرات الوثنيين لاعتقادهؤلاء أنه اليوم الذى يقصر فيه الليل ويطول النهار فهو هزيمة لاله الظلمة ونصر لاله النور

وقبل المسيحية نظر اليونان الوثنيون الى أصول العقيدة الثنوية فحولوا أسطورة زروان الذى ولد له « أورمزد » الى أسطورة كرونوس الذى ولد له زيوس رب الارباب وسيد الملأ الأعلى ، فبحق يهتم الباحثون الدينيون بهذا الميراث العريق من بلاد بين النهرين ، لانه سابقة لاتنقطع عما تلاها من أطوار الايمان بالخير والشر وبالقوة الكونية التى نزهتها الاديان الكتابية بعد ذلك فى عقيدة الوحدانية ، ودونها القوة الكونية التى تمثل فيها الشر مخلوقا متمردا على الله

***

وفى الوعى الدينى عوامل ذات بال لا تحسب من الفرائض والشعائر ولكنها تحسب من الخواطر التى تخامر النفس وتعمل عملها فى تقويم الاخلاق المصطبغة بصبغة الايمان

من هذه الخواطر التى تستكثر على اللاهوت القديم خاطران يتخللان كتب الديانة « الزردشتية » من أقدم عصورها ، أولهما أن الشر « شك » وأنه نبت فى الكون لاول مرة حين تساءل زروان بينه وبين نفسه : وما جدوى كل هذا التكوين وكل هذا التقدير ؟ والخاطر الآخر أن الشر كذب كما جاء فى قصة « يامة » التى

---

(١) ومن هنا بقى اسم Sunday بالانجليزية

تضمنت أقدم الخواطر عن السقوط والخلاص ، فقد دعا اهورمزد لحراسة الحق فاستعفاه لعظم الامانة واشفاقه من العجز عنها ، فأرسله الى الارض وخوله ما سأله من الغلبة على الموت ، فامتلأت الارض بالاحياء التى لاتفنى وامتلأت نفس « يامه » بالخيلاء فسولت له أن يناظر الاله بهذه العصمة وأن يكاذب نفسه بخيلائه ، فلحق به الشر وجاءه الموت مع الشر ، فكان ذلك من جناية « يامه » على نفسه وعلى زمرته تسللت الى الوجود من مدخل الباطل وهو أصل جميع الشرور

هذان الخاطران يتخللان الكتب الزردشتية من أقدم العصور ، ولم يدخلا العقائد التالية من طريق الفكر والتأمل بل دخلاها من طريق الاشكال والرموز التى يلم بها الحس قبل التفكير فيها .



اليونان

يحتاج النقاد التاريخيون الى تحرير موازينهم جميعا قبل الاطمئنان الى رأى صحيح فى أى شأن من الشئون الاساسية التى قامت عليها حضارة اليونان

ذلك بأنه سيرى بين يديه تاريخين غير متفقين فى بعض الاصول وفى كثير من التفصيلات : تاريخ الأمة اليونانية الحقيقية وتاريخ الامة اليونانية التى جعلها الاوربيون المحدثون عنوانا للفضائل الغربية فى مسائل العلم والفن والسياسة والاخلاق ، كلما أرادوا أن يضعوا أنفسهم موضع المناظرة والموازنة أمام الشرقيين فيما قدروه لهم من نصيب فى هذه المطالب وهذه المزايا

وبلغ من رغبة الاوربيين فى ترجيح الغرب كله باسم اليونان أن فريقا منهم تنكر للمسيحية لانها ثمرة شرقية ، وفريقا منهم زعم أن المسيحية ثمرة الفكرة اليونانية من طريق بولس الرسول وجماعة الفلاسفة المسيحيين الذين طبقوا الدين على الفلسفة بعد القرن الاول للميلاد ، وذكروا من براهينهم على ذلك أن الاناجيل كتبت باللغة اليونانية وأن كلمة الانجيل نفسها بمعنى البشارة من لغة اليونان

وقد عمد الغرب الى هـــذا الاستغلال التاريخي لتراث اليونان لانه احتاج اليه لتدعيم دعوى السيادة والرجحان على أمم الشرق فى عصر الاســـتعمار ، فاتخذ من تعظيم اليونان وسيلة الى تحقير الشرقيين واستباحة السيطرة عليهم بدعوى الوصاية الطبيعية التى تخول المتقدمين من بنى آدم أمانة الاشراف على تعليم المتأخرين

ان أمة اليونان الحقيقية غير هذه الامة « المصنوعة » التى احتـال بها الغربيون فى عصر الاستعمار على خدمة السياسة وخدمة العصبية ومرضاة الغرور الذى يساور « الغربى » فى مقام المفاخرة وان لم يكن من خدام الاستعمار

وليس من المنصفين من يبخس لهذه الامة الحقيقية فضـــلا فى تاريخ الثقافة الانسانية ، فمما لا نزاع فيه أن نصيبها فى هذه الثقافة لايعلوه نصيب ولا حاجة بها معه الى انتحال الدعوى واغتصـــاب الفخار بغير دليل ، وحسبها أنها أخرجت للعالم سقراط وأفلاطون وأرسطو فى ثلاثة أجيال متعــاقبة مع من أخرجتهم من الحكماء الســـابقين واللاحقين ، وأنها تعد من شـعرائها أمثال هوميروس ويوربيدس واسكايلاس وسفوكليس وارستوفان ، ومن علمائهـــا ومؤرخيها ذلك الطراز الاول الذى تلاحق على مدى ثلاثة قرون فى عصر لم يكن فيه أحد يضـارعهم أو يقاربهم فى هـــذه العلوم ، ومعهم رهط من نوابغ الفن وأسـاطين السياسـة والحكم يوازنون نظراءهم من كل أمة ويرجحون أحيانا على أولئك النظراء بالكثرة والقيمة

حسب الامة اليونانية هذا الفخار الذى يقره جميع المنصفين من الشرقيين والغربيين

فأما أنها استأثرت بالقيم الانسانية العليا فى الذوق والفكر والخلق فتلك هى الدعوى التى يروجها الغرض ولا يسلمها التاريخ ، فاذا

كانت الشهادة لها بهذا الاستئثار هى المقدمة اللازمة للوصول الى النتيجة المقصودة من تحقير الشرق وتسويغ استعباده فهى مناجزة يقابلها الشرقيون بما ينبغى لها من التصحيح والتفنيد ، وأنها لينبغى لها أن تصحح وتفند لغرضين واجبين : أحدهما تمحيص الحقيقة والآخر محو الاثر السيىء الذى تعقبه فى نفوس أبناء الشرق فتوقع فيها اليأس وتقضى عليها بالمهانة ضربة لازم بحكم الخصائص الفطرية التى لاتتغير ولا تتبدل مع الزمن ، فى زعم الزاعمين

لقد حصروا فى طبيعة الغربى ـ من وراء اليونانى ـ كل قيمة انسانية عالية فى مزايا الفكر أو الحكم أو الخلق ، وقابلوه فى هذه الخصائص بالشرقى فخرج الغربى بمزية العقل الذى يطلب العلم للعلم ومزية الحكم الذى يقوم على حقوق الشعب ومزية الخلق الذى تتقدم فيه الفضائل الاجتماعية على دواعى الانانية ودوافع الغريزة ، وخرج الشرقى من هذه الموازنة بالطرف النقيض كأنهما متقابلان على خط من خطوط المسطرة لايتلاقى طرفاه من أقصاه الى أقصاه

ونحن نصحح هذه المزاعم فى مناسباتها انصافا للحقيقة ومنعا للضرر الذى يتخلف من آثارها وبخاصة حين يتلقفها من أبناء الشرق من يحب الشهرة بالتحدى والمنافرة ومن يحب التشدق بالغرائب والتعالم بالبدع والنقائض ، وقديما رأينا من أصحاب هذه النزعة من ينافرون بنى آدم اعتزازا بعنصر الشيطان ، وكذلك كان بشار بن برد حين قال :

ابليس أشرف من أبيكم آدم

فتبينوا يا معشر الأشرار

النار عنصره وآدم طينة

والطين لا يسمو سمو النار

وليس للغربين امتيــاز فطرى فى طلب المعرفة للمعرفة بغير نظر الى منافع الكسب والصناعة ، وليس الشرقيون محرومين من طلب المعرفة للمعرفة فى قديم الزمن أو حديثه ، فقد رصد المصريون — مثلا — كواكب السماء وعرفوا أن الشعرى تظهر فى موضع معلوم عند وصول الفيضان الى منف فاستخدموا الرصــــد بعد ذلك فى تقرير مواعيد الزراعة ، ولكنهم كما قال صاحب كتاب الرياضيات فى الثقافة الغربية قد رصدوها مئات الســـنين حبا للمعرفة قبل أن يثبت لهم ذلك الموعد الذى انتفعوا به فى تنظيم الرى والزراعة (١)

وانما امتاز الاغريق بالبحوث الفلســـفية فى زمن من الأزمان لسبب واضح : هو أن هذه البحوث كانت مباحة عندهم حيث كانت تمتنع على غيرهم من أبناء الدول الشرقيــــة العريقة ، وهى لم تكن مباحة لهم لمزية أصلية فى طبيعة التركيب ... ولكنها أبيحت لهم لأن بلادهم نشأت وتطورت دون أن ينشأ فيها عرش قوى وكهانة قوية ، ولو قامت عندهم الدولة القوية والكهانة القوية كما قامت فى مصر وبابل لكان شأنهم فى أسرار الدين والمسائل الالهية كشأن البابليين والمصريين . فالبلاد التى تجرى فيها الانهــار الكبيرة تنشأ فيها الممالك الراســخة وتنشــأ مع الممالك كهــانات قوية السلطان تستأثر بالبحث فى أصول الاشياء وحقائق التكوين وتتــولى شئون العلم والتعليم كأنها حق لها مقصور عليها لايجوز الافتيات عليه والا كان المفتئت كالمعتدى على نظام الدولة ومحراب العبادة ، ومتى طال الامد بهذه الكهانات جيلا بعد جيل وعصرا بعد عصر تمكن سلطانها وتشعبت دعاواها وتلبست معلوماتهــا بلبــاس الاسرار والطلاسم وابتعــدت شيئا فشــيئا عن نطاق البحث الحر الى نطاق المحفوظات والمأثورات »

---

(١) Mathematics in Western Culture by Morris Kline

وقد حكم على سقراط بالموت وهرب فيثاغوراس قبله من وطنه وهرب غيره من الفلاســفة من أثينا دون أن تكون فى بلادهم تلك الكهانات الراسخة التى طالت بها العهود فى البلاد الشرقية » وحدث للاوربيين ماحدث فى الشرق حين قامت فى بلادهم الكهانات القويه وبسطت سلطانها على التعليم ومعـــارض البحث فى حقائق الدين وأسرار الطبيعة » (١)

ودعوى الامتياز الفطرى بالحكم الحر أضعف من دعوى الامتياز الفطرى بطلب المعرفة حبا للمعرفة .

فالشائع على الألسنة أن التقدم العقلى ألهم اليونان أن يختاروا الحكومة الديمقراطية ـ أى الحكومة الشــعبية ـ من كلمة ديموس بمعنى الشعب فى اللغة اليونانية القديمة

وهذا خطأ من جميع أطرافه . فان الحكم الذى سمى بالديمقراطى أو النيابى لانه يجرى بالانتخاب لم يبتدىء فى أثينـــا حيث يتكلم الفلاسفة ويتذاكرون ، بل كان مبدأه فى « سبرطة » العملية التى تختار النظام لانه أيسر تطبيقا وأنفع عملا ، وتتبع هذه السنة فى اختيار كل خطة تنتظم بها الاجراءات ويمتنع بها الشغب والنزاع

وكلمة « ديمقراطية » لم تؤخذ من حكم الشعب ولكنها أخذت من كلمة « ديموس » بمعنى المحلة التى تقيم بهـا القبيلة ثم استعيرت للقبيلة نفسها وللحكومة التى تشترك فيها القبائل

وقد كان الانتخاب فى أثينا القديمة مسألة « اجراءات » كما كان فى سبرطة من قبلها . ولم يحدث قط أن أحدا نال حق الانتخاب لانه حق انسانى تناط به التبعات والواجبات ، وانما كانت الطوائف تناله واحدة بعد أخرى كلما اضطرت الدولة الى الاستعانة بها فى

---

(١) راجع كتابنـا عن أثر العرب فى الحضارة الاوربية

القتال ، فلم تنله طائفة الملاحين مثلا الا بعد ثبوت الحاجة اليهم فى الحروب البحرية بعد وقعة سلاميس . ويصـــدق هذا القول على الديمقراطية الغربية كلها بعد الديمقراطية اليونانية القديمة بأكثر من عشرين قرنا ، فان عمال الصـــناعة نالوه بعد عمال الزراعة ، لان عمال الصناعة ألزم للدولة من غيرهم فى معامل الذخيرة والسلاح ، وأقدر على المطالبة والاضراب . ولم تنل المرأة حق الانتخاب الا بعد ثبوت الحاجة اليها فى تلك المعامل مع الحاح الطلب على المجندين من الرجال ، ولم يصل الزنوج الامريكيون الى تطبيق هذا الحق فعلا الا بعد الحرب العالميـــة الثانية التى اشتركوا فيها مقـــاتلين كما اشتركوا فيها صناعا للذخيرة والسلاح

أما حكم الشـــورى الذى هو تكليف انسانى منوط بحقوق المساواة وتبعات الحكام والمحكومين ،فلم ينشأ فى اليونان ولا فى أمة غربية ، بل نشأ مع الاسلام فى الجزيرة العربية ولم تسبقه اليه ملة ولا دعوة فكرية

***

ونأتى بعد بيان الحقيقـــة فى امتياز المعرفة وامتيـــاز الحـــكم الى موضوع هذا الكتاب وهو « قوة الشر » ومكانهـــا من الاله الاكبر أو من نظام الوجود

ففى الحضارات الشرقية التى أجملنا القول فيهـــا رأينا أن « قوة الشر » مغضوب عليها لانها تضر وتفسد وتدس الغواية على الانسان، وخلاصة المعايير الاخـــلاقية هنا أن القيم الصـــالحة فى جانب الاله والقيم الفاسدة أو الخبيثة فى جانب « قوة الشر » أو الشيطان

لكن الأمر ينقلب تمـــاما فى معـــايير الأرباب اليـــونانيين ، لان « بروميثيوس » الذى ينصب عليه غضب الارباب وكبيرهم زيوس هو المعلم الذى هدى الانسان الى سر النار وألهمه السعى فى طلب

البقاء وبصره بالمجهول من خفـايا الكون الذى يعيش فيه ، وتمثله الأساطير على قسط وافر من الفطنة يغار منه رب الأرباب ويخيل اليه من أجل ذلك أنه يتعالم عليه

أما رب الأرباب ـ زيوس ـ فهو أشـبه مايكون بالشيطان فى الديانات الشرقية القديمة ، وهو فى جميع صوره شهوان نهم أكول شديد الطمع لايبالى شيئا من الدنيـا غير استبقاء سطوته وموارد خزائنه ، ولهذا أرسل الصاعقة القاتلة على « اسقولاب » أبى الطب لأنه يشفى المرضى فلا يموتون ويخسر بلوطس فى العالم الأسفل ضرائب نقلهم الى الهاوية السوداء

وتمتلىء الاساطير اليونانية بأنباء الشـجار بين رب الارباب هذا وقرينته « هيرا » التى كانت تفاجئه فى خياناته الغرامية مع نسـاء الالهة وبنى الانسان ، وربما عنفته فى بعض هـذه المشاجرات لأنه ينحرف نحو « الشذوذ الجنسى » فيهبط الى الارض ليختطف منها الغلام الجميل « جانيميـد » ويجعله سـاقيا فى الملأ الاعلى يدير الرحيق عليه وعلى ندمائه المقربين

وتتمثل لنا صورة زيوس هذا فى أساطيره الكثيرة نموذجا للقوة الجسدية وللحقد على من يظهرون الذكاء ويحرمونه لذات المخدع والخوان ، فان غضب فانما يغضب لفوات لذة أو أكلة ، وان رضى فانما يرضى لخدمة أو وسـاطة فى طعـام أو غرام ، وهـذه احدى المحاورات بينه وبين بروميثيوس كما تمثلها لوسيان الساموسى أديب الأساطير المشهور

ـ أطلقنى يازيوس ، حسبى ما قاسيت

ـ أطلقك ؟ أطلقك أنت ؟ كيف ، انك لأولى أن يزاد عليك ثقل الأغلال وأن تنطبق عليك جبال القوقاز جميعا وأن ينهش من كبدك اثنا عشر عقابا بدلا من هذا العقاب الواحد ، فانك أنت الذى

أغريت هذه المخلوقات البشرية اللعينة بأن تجترىء على مناوأتنا ، وأنت الذى اختلست سر النار ، وأنت الذى سويت المرأة ، وما بى من حاجة أن أذكرك بما صنعت حين وضعت لى العظم على المائدة وعطيته بالشحم تخدعنى عن طعامى ، فذق اذن جزاءك فانك به لجدير

ـ وهل ترانى لم أصب من ذلك الجزاء ماهو حسبى ؟ ألم ألصق هنا بالجبل سنين بعد سنين يأكل من كبدى عقابك هذا اللعين الآثيم

ـ انك لم تصب عشر معشار الجزاء الذى أنت به حقيق

ـ تأمل . اننى لا أطلب منك الافراج عنى سماحة بغير عوض ، وانما أهب لك سرا من الاسرار الغالية التى تعنيك

ـ آه . انها اذن لحيلة من حيل برومثيوس

ـ حيلة من حيلى ؟ .. ولأى غرض ؟ انجبل القفقاز موجود، وانك لقادر على الرجعة بى اليه ان كذبت عليك

ـ قل لى أولا فى أى شىء تكون هذه النصيحة الغالية

ـ أاذا أنبأتك حقا بشىء عن هذه النصيحة ألا تعلم منها أيضا أننى أحسن النبوءة عن الغيب ؟

ـ بكل يقين

ـ انك على موعد زيارة لثيتس

ـ الى هنا أصبت . فماذا بعد هذا ؟ قل . اننى الآن أصغى اليك

ـ لا تضاجعها يازيوس . فان بنت نيريس لاتلبث أن تحمل منك حتى تلد طفلا يبتليك بما تبتلينى به الآن

ـ تعنى اننى أفقد عرشى ؟

ـ أعيذك من القضاء ، وانما أنبئك بما سيكون من وراء ذلك اللقاء

ـ اذن وداعا يااثينس • وأنت يابرومثيوس سنادك هيفستس بالفرج القريب

***

ورواية لوسيان لاخبار برومثيوس مع رب الارباب تطابق واية « هزيون » الذى تولى تنقية الاساطير وحاول أن يعرض زيوس فى معرض التقديس والتنزيه ، فلم يترفع به عن وصمة النهم الذى يغضب لأكلة ولا عن تهمة الغيرة من ذوى الفطنة والحيلة بل ألقى اللوم على المغضوب عليهم لانهم استحقوا الغضب بالتعالم عليه ، وحكى وهو يبسط القول فى اوائل خلق الكون قصته التالية :

« ••• وولدت كليمين بنت الاوقيانوس ولدا أصمع القلب هو الاطلس ، وكذلك ولدت موتيوس المجد وبرومثيوس اللبيب صاحب الحيل والاساليب ، وايمثيوس الذى كان من مبدأ أمره شرا على الناس الذين يأكلون الخبز لانه هو الذى أخذ من زيوس المرأة التى خلقها ، وكان منوتيوس ثائرا مثيرا فرأى زيوس بثاقب نظره أن يرجمه بصاعقة هبطت به الى اريبوس لادعائه وامعانه فى كبريائه ••• وقضى على برومثيوس ذى البديهة الحاضرة والعارضة القوية أن يوثق باغلال لايفلت منها وقيود قاسية لا ترحمه وأن يطعن أحشاءه بسهم يكشف عن كبده لينهشها النسر الطويل الجناحين فيلتهمها بالنهار ويتركها فى سواد الليل تعود سوية كما كانت ليعاود تمزيقها فى الصباح ، وقد جاء هرقليس فقتل هذا النسر وأنقذ برومثيوس من عذابه ••• ولم يكن ذلك بغير رضى من زيوس صاحب العرش الرفيع فى الاولمب • انما أراد نباهة الشأن لابنه هرقليس •••• فنظر بعين الرضى الى فعلته وان يكن غاضبا من برومثيوس لانه تسامى الى مناظرة الاله الاكبر فى الذكاء ••• وقد كانت لذلك قصة يوم انقسم الارباب • النسر وذبح برومثيوس

ثورا عظيما ليطعمهم منه ، فسولت له نفسه أن يخدع زيوس وأن يضع اللحم الجزل أمام غيره ويضع أمامه عظما مكسوا بالشحم يلمع عليه ويخفي مانحته بلباقته وخبثه ، فلم يلبث زيوس أن صاح به : يا ابن يابيتس سيد السادة . ما أشد اجحافك ـ سيدى ـ في قسمتك!

كذلك قال زيوس صاحب الحكمة الخـالدة يؤنبه ، فلم ينس بروميثيوس مكره ، وراح يجيبه فى ابتسام وصوت خفيض : خذ من هذه الانصبة جميعا ماترضـاه ، وظن أنه يحتال على الاله الاكبر بهذه الخديعه ، ولكن الاله الاكبر صاحب الحكمة الخالدة لمح كيده ولم يخف عليه قصده ، وأضمر فى قلبه شرا لابناء الفناء من البشر لا محيص لهم من قضائه ، وتناول الشحم الابيض بكلتا يديه وقلبه مفعم بالغضب وروحه يتلهب سخطا كلمـا رأى العظم الابيض مدسوسا فى حبث واحتيال ، ولهذا قضى على عشائر البشر أن تحرق العظم الابيض على المذابح المعطرة قربانا للارباب الخالدين . ويزمجر مرسل الغمام بصواعقه محنقا اذ يقول لبروميثيوس :

يا ابن يا بيتس . يا بارعا فوق البـارعين . كأنك ياسـيدى لم تنس بعد أساليبك فى المكر والخداع !

كذلك قال زيوس السرمدى الحكمة فى غضبه ، وظل منذ تلك الساعة يذكر الحيلة ويأبى أن يسلم سر النار الى الخلائق البشرية الهـالكة التى تعيش على الارض . الا أن بروميثيوس النسـيب الحسيب غلبه دهاء واختلس قبسا من النار فى جوف قصبته وأحس زيوس مرسل الصواعق فى العلا بلذعة فى فؤاده حين لمح النار بين أبناء البشر ...

ثم مضى هزيود يروى قصة المرأة التى خلقها زيوس شرا للبشر وجعل اجتنابها فى الوقت نفسه شرا يورث العقم وجاء بروميثيوس فأغرى الانسان بالنسل مستهينا بشر الفتنة حذرا من شر الفناء

وبديه أن تستهوى الشعراء هذه الاسطورة التى تحبط بمأساة البشر بين القوة الالهية التى تحبهم والقـــوة الكبرى التى تبغضهم وتلقيهم بين شرين من الفتنة والفناء ، فقد جرب الشعراء أخيلتهم فى نظم هذه الاسطورة وايداعها كل ماتتســـع له من أحاسيسهم وأفكارهم ومن تصويراتهم للقدر المحيط بالانسان بين السماوات والارضين ، وقد تناولها فى العصر القديم شاعر من أكبر شـعراء اليونان وتناولها فى العصر الحديث شاعر من آكبر شعراء الانجليز وشعراء الغرب أجمعين ، فنظم فيها « اسكايلاس » قصيدته بعنوان برومثيوس المعتقل ونظم فيها « شلى » قصيدته بعنوان برومثيوس الطليق ، وكلاهما قد وضع برومثيـوس وزيوس فى مكانيهما من الانصاف والأجحاف ومن الخير والشر ومن البر والعقوق ، فجعل الشاعر اليونانى زبانية زيوس نفسه يرثون لبرومثيوس الذى قضى عليه — لعطفه على أبناء البشر — أن يوثق الى صخرة نائية لايراها أحد منهم ولا يسمعه منها أولئك الذين قد شقى فى سبيلهم فيجزيه عطفا بعطف واحسانا باحسان ، وجعل الشاعرالحديث رب الارباب كالمارد العربيد أسكره النصر فقام بين مخلوقاته الذين تسعدهم عزته ونعى لهم صديقالبشر الذين يرفعون اليه قرابينهم على كره منهـم وفى قلوبهم غصة وعلى ألسنتهم نفاق

ويقرأ المثقفون من الغربيين هـذا الشـعر الرفيع ولا يشعرون بالمناقضة بين مايوحيه من القيم الاخلاقية فى تصـوير أصول الخير والشر وبين دعوى الامتياز الاوربى على أمم الشرق فى تصويرهم لهذه الاصول ، وليس فى وسعهم أن ينكروا دلالة الاساطير الكونية على معايير الاخلاق وبواطن الشعور ، وليس فى وسعهم كذلك أن ينكروا التواتر فى رواية تلك الاساطير ، ونحسب أن السهو عن بيان هذه المفارقات فى كتاب يوضـع عن « الشـيطان » يخل بأمانة الكاتب من الشرقيين وغير الشرقيين ، ولكن الكاتب الشرقى — من

أبناء هذا العصر خاصة ـ يخل بأمانتين لا بأمانة واحدة حين يسهو في هذا السياق عن تمحيص الحقائق ودفع الاباطيل التى تتجاوز الخطأ الى الضرر بالنفوس

***

ويبدو أن اليونان المتأخرين ـ قبل عصر المسيحية ـ قد استعاروا من الشرق فكرة أخرى عن أصل الخطيئة أو أصل الخطايا الشيطانية جميعا فردوها الى الكبرياء وأطلقوا على هذه الخلة اسم الهوبرى « Hubris » وهى كلمة قريبة من دلالات الرجس فى اصطلاح الدينيين

ولكن الكلام فى الكبرياء لايغنى عن تعقيب ينفى عن الكبرياء محاسنها ولا يبقى لها غير عيوبها التى ينكرها الدين كما ينكرها معيار الأخلاق

فالكبرياء على الاله الكامل العظيم فى صفاته وآلائه كفران لاشك فيه وخطيئة لا مسوغ لها من العقل ولا من الضمير . أما الكبرياء على صاحب سلطان يستسلم لشهواته ويصب صواعق السماء فى سبيل أكلة من اللحم والشحم فليس فيها من معنى الخطيئة كثير ولا قليل ، وليس فى استعارتها لهذا المعنى دليل على معيار صادق للحسنات والعيوب ، ولكنه من قبيل النقل على السماع فى غير موضعه ومغزاه



فى طريق الأديان الكتابية

قبل أن ننتقل الى عقائد أهل الكتاب فى قوة الشر العالميه نريد هنا لحظة لتلخيص المرحلة الطويلة التى عبرها الانسان فى هذا الطريق ، من خطواته الاولى حيث لايميز بين خير وشر ولا بين اله وشيطان ، الى غايته القصوى فى حضارات الامم القديمة حيث ظهرت ديانة التوراة ، وهى أول الاديان الكتابية فى التاريخ

آمن الانسان بالارواح والاطياف من أول عهده بالدين فى الهمجية الاولى ، وآمن منها بما يرجوه وما يخشاه ولكن كما يرجو النفع ويخشى الضرر من كل شىء يحيط به وتتعلق به المنافع والمضار ، ولم يكن للتفرقة بينها معنى فى مقياس الاخلاق أرفع من معنى التفرقة بين الحيوان الانيس والحيوان الضارى ، أو بين الحشرة المأمونة والحشرة السامة ، أو بين جمادين أحدهما يفيد ولا يضر والآخر يضر ولا يفيد ، وربما تلبس عنده الجماد بروح من الارواح أو طيف من الاطياف كلما ارتجى نفعه واتقى أذاه

وخطا فى طريق التدين خطوة أخرى حين قسم الأرواح والاطياف الى طيب وخبيث واحتاج الى الكاهن والساحر ليروض له الخبيث بالرقى والتعاويذ ويجزى عنه الطيب بالدعوات والقرابين ،

وعمل التخصص عمله البطىء فانفصل دور الدعاء ودور السحر وان عمل فيهما كاهن واحد ، كما كان ينفصل دور الراعى ودور الصياد وان كان كلاهما يرعى الحيوان النافع ويصيد الحيوان الذى يفتك بالاناسى والماشية

ثم خطا الانسان خطوة أخرى من التمييز بين المنفعة والمضرة وبين المنفعة التى تصدر على الدوام من الطيبة وحسن النية ، والمضرة التى تصدر على الدوام من طبع خبيث ونية سيئة ، ولم يكن أمامه فى هذه الخطوة مثل على الشر الخبيث الذى يضمر السوء ويتوارى عن النظر — أقرب الى الحس والخيال من الحية التى تزحف على التراب وتندس فى الجحور كيدا وخديعة وتمكنا من الدس والاذى فيما توهمه ولم يكن فى وسعه أن يتوهم شيئا سواه ، ولهذا بقيت صورة الحية مقترنة بقوة الشر حقيقة أو رمزا الى أحدث العصور

وعاش الانسان عصورا مديدة يعمل الاعمال أو يتركها لأنها مأمونة نافعة أو محذورة وخيمة العاقبة ، فلما أخذ يعملها أو يتركها لانها واجبة مطلوبة أو لأنها محرمة محظورة كانت هذه خطوته الأولى فى طريق التمييز بين الواجب والمحرم وبين الخير والشر فى أضيق الحدود

ولم يزل خيره وشره خير قبيلة واحدة أو شر قبيلة واحدة حتى تجمعت القبائل فى أمة ذات مجتمع واحد وشريعة واحدة ، فعمت نظرته الى الشر والخير ولم تزل تتسع فى عمومها حتى برزت فى ذهنه فكرة « النوع الانسانى » ووجدت مع هذه الفكرة الرفيعة فكرة أرفع منها وأشرف جدا فى مغازيها وثمراتها وهى فكرة الانسان عن ضمير الانسان ، ولم يكن فى الوسع أن يعقل شيئا عن « الضمير الانسانى » قبل أن يعرف أن الانسان نوع واحد من وراء العشائر والقبائل والشعوب والاقوام

وكانت الحضـــارات الاولى خطوة بل خطوات واسعة فى هذا الطريق ، ولكنها خطوات متفرقة تتقابل أحيانا ولا تتقابل دائما فى الاتجاه الى معنى الخيرات والشرور ، وقد كانت خيرات وشرورا قبل أن تجتمع فى خير واحد بمقياس واحد أو فى شر واحد بمقياس واحد يتقارب فيه جميع بنى الانسان

كانت مسألة العالم مسألة دولة وشريعة ونظام فى عرف الحضارة المصرية الاولى ، فالخير شريعة تستتب عليها الامور والشر مروق من تلك الشريعة واخلال بالنظام الذى استتبت عليه

وكانت المسألة مسألة كونية فى عرف الحضارة الهندية الاولى ، فالكون الظاهر كله باطل وزيف وشر ولا خير فى غير الاعراض عنه والنفاذ الى ماوراءه ، ولعل المجاز هنا قد فعل فعله فى المشابهة بين صيرفة الجواهر وصيرفة الموجودات على عمومها ، فقـد كانت صيرفة الجواهر فنا قديما فى حضارة اللآلىء والحجارة الكريمة وحلى التيجان والقصور وما عداها أو مادونهـا من الحلى الزائف والحلى البذول ، وكلها كثيرة قديمة فى بلاد الهنود

وكانت المسألة مسألة فلكية فى حضارة « بين النهرين » بفرعيها من فارس وبابل

فما عدا النور فهـو ظلام ، وكل ما فى الوجود فهو بين النور والظلام ، وهذه هى خلاصـة الديانات الثنوية فى مختلف المذاهب والتأويلات

وتختلف عقيدة فارس وعقيدة بابل فى تلك الحضارة ، أو تلك الحضارات الواسعة ، ولكنها لاتزال فلكية فى الصميم ، لان الخـير والشر فيها مقسومان بين السعود والنحوس كما سطرت فى أزياج الكواكب ودارت عليها أفلاك السماوات

أما الحضارة اليونانية الاولى فالخير فيها مسألة حظ والشر فيها مســـألة اعتراض لذلك الحظ الذى لاحيلة فيــه للمحظوظ ولا للمعترض عليه

فلم يكن « زيوس » رب الأرباب لانه أطيب منها أو أعلم منها أو أرفع منها خلقا أو أشرف منها مقصدا ، اذ أنه فى الواقع أقل من الاكثرين بين الارباب فى جميع هذه الخصال ، وانما « الحظ » وحده هو الذى يفسر علوه عليها بغير تلك الفضائل والمزايا ، ولم يكن هذا « الحظ » عرضا من الاعراض أو مصادفة من المصـــادفات فى الثقافة اليونانية المتقدمة فضلا عن الاساطير البدائية التى لم تخلص من سذاجتها واختلاطها ، بل كان « الحظ » مدار القصائد الكبرى والدرامات التى وضعها نوابغ الشعراء ومثلوا فيها مصـائر الابطال وما كتب عليهم قبل مولدهم من قسمة مبرمة وقضاء محتوم لا مهرب لهم منه بحيلة أو اجتهاد ، ولا نجاة منه لذى حسـنة أو ذى سيئة من المتفـــائلين أو المتشـــائمين ، واذا لخص النزاع بين زيوس وبروميثيوس فى قصة مفهومة فليس لفهمــه وجه من الوجوه على غير معنى واحد وهو النزاع بين صاحب حظ غالب وصاحب حظ مغلوب ، ولعل فلاسفة اليونان لم يجتهدوا اجتهادهم فى كلامهم على السبب والمصادفة ــ أو البخت كما ترجمه الفـارابى ــ الا لأنهم كانوا يلقون « البخت » أمامهم عقبة قائمة فى طريق كل تفكير ،وكان ايمان العظماء به قد بلغ من الرسوخ والخطر ألا يقدم أحدهم على خطة من خطط السلم أو غزوة من غزوات الحرب الا بعد استطلاع العرافين عن « الحظ » المكتوب له أو عليه

***

على أننا ــ فى هذه العجالة ــ فى مقام الحد الفاصل بين الحضارات الاولى والاديان الكتابية من وجهة النظر الى « قوة الشر العالميـة » أمام قوة الخير أو أمام المشيئة الالهية التى آمن بها الناس وهم يعلمون

فكرة « النوع الانسانى » وما تلاها من فكرة أرفع منهـا وأشرف وهى فكرته عن « ضمير الانسان »

ويحسب أن الحد الفاصل انما هو الفارق بين التقديم والتأخير بين صفتين من صفات الاله الاكبر ، وهما صفة السيادة والسلطان وصفة الخلق والتكوين

فالاقدمون قد آمنوا بخلق الله للاكوان ولكنهم لم يبرزوا صفة الخلق كما أبرزوا صفة السيادة ، ولعلهم كانوا منســاقين فى ذلك مع عقائد الفطريين الاسبقين الذين كانوا يؤمنون بأرواح لم ينسبوا اليها خلق شىء من الاشياء فضــلا عن خلق الــكون الذى يحتوى جميع الاشياء • ثم تدرج الناس من عبادة الروح المتسلط الى عبادة الاله المتسلط ، فجعلوا صفة الخلق تابعة لصفة السيادة والسلطان

أما الديانة الكتابية فقد أبرزت صفة الخلق وجعلتها شاملة لكل ما عداها من الصفات الالهية ومنها صفات السيادة وتصريف المقادير ويأتى من هذا الفارق شىء كثير

يأتى منه أن الشر فى الحالة الاولى انمـا يحسب من قبيل الحماقة قبل أن يحسب من قبيل الكنود والفساد ، فلا يقال عنه أنه يليـــق أولا يليق كما يقال عنه أنه عمل حكيم أو غير حكيم

وبين هذا وبين وصف الشر بالسوء والكفران بون واسع ، لم تعبره الامم الانسانية طفرة واحدة بل تقـــدمت فيه خطوات بعد خطوات كما سنرى فى عقائد الاديان الكتابية مما قبل التوراة الى مابعد الاسلام



الأديان الكتابية

(أ) العبرية

نسميها العبرية لأننا لانعرف تسمية تصدق عليها منذ نشأتها في بلاد بين النهرين كما تصدق عليها هذه التسمية

فلا يصدق عليها اسم « اليهودية » لان النسبة الى يهوذا حدثت بعد موسى عليه السلام

ولا يصدق عليها اسم « الموسوية » لان موسى قام بالدعوة بعد يعقوب واسحاق وابراهيم عليهم السلام

ولا يصدق عليها اسم « الاسرائيلية » لان الاسرائيلية تنسب الى اسرائيل وهو يعقوب بن اسحاق ، وكان ابراهيم الخليل جدهم أجمعين يلقب بالعبرى فى بعض كتب العهد القديم ، فاطلاق اسم العبرية على العقائد التى دانت بها العشائر التى نشأ فيها ابراهيم أصدق من كل اسم آخر فى الاحاطة بديانة القوم من أوائل تاريخها وفى جميع أطوارها المعلومة الى أن عرفت أخيرا باسم ديانة التوراة

وينبغى أن نميز العبرية فى نشأتها الاولى من ديانة التوراة كما تلقاها المسيحيون الاوائل وكما انتهت الينا مهذبة فى القرآن الكريم

فقد حملت « العبرية » عبء التوسط بين الوثنيات الأولى وعقائد التوحيد من قبل ظهورها الى ماقبل المسيحية بنحو مائتى سنه ، فلم تستقم على عقيدة الاله الواحد المنزه عن اللوثة الوثنية الا حوالى القرن الثانى قبل الميلاد

ولم تكن قط قبل ذلك ، ولا بعد ذلك ، ديانه انسانيه عامه تتساوى فيها جميع السلالات وتناط فيها العقيدة بضمير الانسان غير منظور فيه الى عنصر أو نسب ، وانما نشأت وعاشت ديانة « قبيلة خاصة » أو قوم معلومين

ولم ترتفع قط بادراكها للتنزيه الالهى الى الافق الذى ارتفع اليه آخر الاديان الكتابية وهو الاسلام

بل كان العبريون الاوائل ينكصون حينا بعد حين الى شعائر الاوثان والاصنام وعبادة البعل وتموز وعشتروت ، ويعرضون عن أنبيائهم الذين يغارون من منافسة هذه الارباب لرب ابراهيم فلا يعودون الى الوحدانية ـ أو ما يشبه الوحدانية ـ الا بعدتقرير الدعوة من جديد

ولبثوا زمانا يصفون الاله بالصفات التى لصقت به فى الوثنية أو فى ديانات الحضارات الاولى ، فكان الاله عندهم يغار من الجنس البشرى ويشفق من يوم يهتدى فيه الى شجرة الخلود ويتوعده بالموت ان أكل منها فيقيم الملائكة الاشداء حرسا حولها كما روى عن الارباب البابليين فى حواشى قصة الخلق وقصة الطوفان ، وكانوا يقولون لموسى عليه السلام أنهم يتهمون يهوا بالكيد لهم ونصب الفخاخ فى البرية للتغرير بهم ، وانه لم يستدرجهم الى سيناء الا

لانه يبغضهم ويتمنى لهم الهلاك بعيدا من أرض وادى النيل التى أخرجهم منها

وكانت فكرة السيادة فى عبادتهم للاله غالبة على فكرة الخلق كما كانت غالبة على أديان الحضارات الاولى ، فلم ينكروا وجود الارباب التى تدين بها العشائر الاخرى ، ولكنهم أنكروا سيادتها ودانوا بالولاء للاله « يهوا » وحده كما يدين الشعب لملكه وهو يعلم بملوك غيره لا تجب عليه طاعتهم ولا يامن العاقبة اذا أشرك بينهم وبين ملكه فى فرائض الولاء

ويتضح من مقارنات الاديان أن العقيدة تعزل قوة الشر وتحصرها فى « الشخصية الشيطانية » كلما تقدمت فى تنزيه الاله واستنكرت أن يصدر منه الشر الذى يصدر من الشيطان

ولهذا لم يشعر العبريون الأوائل بما يدعوهم الى عزل الشيطان أو اسناد الشرور اليه ، لانهم كانوا يتوقعون من الاله أعمالا كأعمال الشيطان ، وكان العمل الواحد عندهم ينسب تارة الى الشيطان وتارة الى الاله كما حدث فى قضية احصاء الشعب على عهد داود ، فانه فى المرة التى ورد فيها اسم الشيطان بصيغة العلم قيل أنه هو الذى أغرى داود باحصاء الشعب كما جاء فى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الايام الاول ، ولكن الرواة يروون هذه القصة بعينها فى سفر صموئيل الثانى فيقولون أنه « حمى غضب الرب على اسرائيل فأهاج عليهم داود قائلا امض واحص اسرائيل ويهوذا .. »

ولم يكن الشيطان هو الذى أغوى حواء بالأكل من الشجرة المحرمة بل كانت الحية هى صاحبة الغواية هنا جريا على سنن الاقدمين الذين كانوا يوحدون بين الضرر الحسى وبين الخطيئة الاخلاقية ، وقبل أن تصبح الحية مجرد رمز الى الشيطان تلاحظ

فيه المشابهة بين نفث السم ونفث الشر على أسلوب المجاز

ولم يذكر الشيطان قط في كتاب من الكتب قبل عصر المنفى الى أرض بابل سنة (٥٨٦ قبل الميلاد) .. ثم كان ذكره فيها على الوصف لا على التسمية ، فجاء مرة بمعنى الخصم في القضية وجاء مرة أخرى بمعنى المقاوم في الحرب ، وأطلق مرة على الملك الذي تصدى لبلعام في طريقه ، لأنه كان بمعنى المعترض أو الضد أو الخصم المقاوم ، ولم يذكر بصيغة العلم الا حيث قيل في الاصحاح الحادي والعشرين من سفر الايام انه « وقف الشيطان ضد اسرائيل »

« قد كانت قرابين الكفارة تقسم على التساوى بين الاله وبين عزازيل رب القفار أو الجني الذى يهيمن على الصحراء ، وكان ايمانهم بوجود الارباب الاخرى التي يعبدها غيرهم من الامم بديلا من صور الشياطين ، لانها كانت تعمل عمل الشيطان كلما صرفت الشعب عن عبادة « يهوا » الى عبادة غيرها تثير النقمة على العصاة ، وانما تأتى النقمة اذن من « يهوا » ولم تأت قط من أولئك الارباب الاجنبيين ، البدلاء من الشياطين

وقد تمثل الشيطان في صورة الواشي الموغر للصدور في قصة أيوب عليه السلام ، ولم يكن منعزلا عن الملائكة بل دخل معهم الى الحضرة الالهية وجرى سياق القصة على النحو الآتى كما جاء في الاصحاح الاول من سفر أيوب : « وكان ذات يوم انه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضا في وسطهم فقال الرب للشيطان : من أين جئت ؟ فأجاب الشيطان الرب وقال : من الجولان في الارض ومن التمشي فيها ، فقال الرب للشيطان : هل جعلت قلبك على عبدى أيوب ؟ انه ليس مثله في الارض . رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر . فأجاب الشيطان الرب وقال : هل مجانا يتقى أيوب الله ؟ أليس أنك حميته بحياطتك

اياه وحياطة بيته وكل مايملك من ناحيـة ؟ .. باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه في الارض .. »

ثم تبتدىء المحنة بتسليط الشيطان على أيوب لامتحان تقواه وصبره على ضربات المرض والبلاء والفقر والحرمان .

وقصة أيوب عربية باتفاق الشراح والمؤرخين ونقاد العهـد القديم ، ولها نظائر في الادب العربي ان لم تكن هي القصة بعينها منقولة في رواية أخرى ، ونعني بها القصة التي أشار اليها امرؤ القيس حيث يقول في معلقته :

ووادٍ كجـوف العير قفـر قطعتـه
به الذئب يعـوي كالخليـع المعيـل

فان الجوف بلغة اليمن هو الوادي وكلمة العير في هذا البيت بديل من كلمة الحمار اسم صاحب القصة ، ولم تستقم كلمة الحمار في وزن الشعر فجاء الشاعر بكلمة العير لتدل على معناها ، وكان حمار ابن مويلع هذا رجلا من العمالقة له مال وبنون وزرع وضرع فنزلت على أبنائه صاعقة في بعض أسفارهم أحرقتهم ومامعهم فكفر الرجل بالله وقال لا أعبد ربا أحرق بني ، ثم عكف على عبادة الاصنام فأرسل الله على واديه نارا أتت عليه وجعلته مضرب المثل في الخراب فيقال على هذه الرواية أخلى من جوف حمار

وأيا كان القول في هذه القصة فلا خلاف على قصة أيوب ولا على نسبة أيوب الى العرب ولا على انفراد هذه القصة بين كتب العهد القديم بتمييز قوة الشر والغواية في « شخصية الشيطان » .. وتلك قيمة من القيم الاعتقادية التي لم يميزها العبريون لأنهم لم يبلغوا من التمييز بين طبيعة الخير وطبيعة الشر ان يفـرقوا بين الملائكة والشياطين ، وأن ينزهوا الاله الذي يعبدونه أو تعبده الاقوام الاخرى عن قبائح الشيطان

***

وقد نبهنا الى تحرير موازين النقد قبل النظر فيما كتبه الاوربيون عن اليونان ، وليست الحاجة الى تحريرها فى صدد المأثورات العبريه باقل من الحاجة اليه فى صدد المأثورات اليونانية ، لأن الاوربيين لايتجردون من الهوى والعصبية كلما خلطوا بين تاريخ عقائد العبريين منذ القدم وبين تاريخ العهد القديم على اعتباره كتابا من كتب المسيحية التى يؤمن بعض الكنائس بتنزيلها وينظر اليه بعضهم كأنه تراث أدبى موصول بتراث الدين

فقد وهم الكثيرون من قدم الديانة العبرية وانها أسبق الديانات الكتابية فى التاريخ أن هذه الديانة سبقت المسيحية والاسلام الى أصول العقائد والشعائر فى جميع الفرائض والعادات ، ولكن الواقع أن العبريين استعاروا كل مادانوا به ولم يعيروا المسيحية والاسلام شيئا غير ماجاء من تطور الافكار ولم يكن مجيئه على يديهم فى أكثر الاحيان

وعلى خلاف الشائع بين أصحاب الدعايات والعصبيات كان أنبياء العرب أساتذة الانبياء العبريين فى أهم الاصول الدينية وهى مسألة الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب . ففى سفر أيوب قبل جميع الاسفار التوراتية ظهرت هذه الاصول ، وقد تتابعت النبوءات فى بلاد العرب قبل أن يكون للنبوءة شـــأن بين العبريين ، وذكر القرآن الكريم من الانبياء العرب هودا وصالحا وشعيبا وذا الكفل . وجاء فى التوراة ذكر بلعام وأيوب وشعيب ، وجاء فيها أيضا أن شعيبا علم موسى وهداه الى سياسة قومه وأن بلعـام كان حكما بين اسرائيل وخصومها فى جنوب فلسطين ، ومن صيحات النبى «ارمياء» يتبين أن المجهول من أخبار الانبياء فى بلاد العرب كان أكثر من المعلوم المذكور فى كتب العهد القديم ، لانه يستغيث متسائلا عن هداية الجنوب ، وينادى : أما من حكمة بعد فى تيمان ؟

وانما تضخمت مأثورات العبريين بعد اختلاطهم بأهل بابل ومصر وبلاد العرب واليونان ، واحتوت كتب التلمود والمشنا أهم عقائد القوم في مسألة الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب ، ولا بد أن يذكر على الدوام ان هذه الكتب جمعت بعد المسيحية وظلت تجمع ويضاف اليها حتى القرن العاشر للميلاد ، وفي هذه الكتب خلاصة مااستفاده العبريون من مجاورة الامم التي تقدمتهم في ادراك الصفات الالهية والصفات الشيطانية ، ومن هذه الكتب أخذ الآخذون ماحسبوه تراثا اسرائيليا وهو في حقيقته تراث الحضارات الغابرة من أقدم العصور

مثل واحد يدل على نصيب القوم من الاصالة والنقل في القصص الدينية والتعليق على المسائل الغيبية ، فانهم ظلوا الى مابعد الاسلام ينقلون عن العرب قصصا كان موطنها في أرض بابل وأشور كقصة هاروت وماروت ، وأحق مايكون بالتنبيه في هذا المقام أن اليهود خرجوا من أرض بابل وعادوا اليها أيام السبي قبل الميلاد بسنة قرون ، ولكنهم لم يأخذوا هذه القصة الا بصيغتها العربية بعد عصر السبي بأكثر من ألف سنة ، فليس من شروط القدم في الديانة الكتابية أن يكون القوم معيرين وانهم لايستعيرون

ويدل تأخر المصادر التي فصلت أوصاف الشيطان على تأخر القوم في التمييز بين الخير والشر كما ميز بينها أبناء الحضارات التي تقدمت الاشارة اليها ، ففي الروايات التلمودية المتأخرة يبدأ كل تفصيل عن العداوة الشيطانية للانسان وعن أثر هذه العداوة في خروج آدم من النعيم ، وفيها ارتقاء من وسوسة الحية الى وسوسة شمائيل رئيس الملائكة الذي عمل في القصة عمل ابليس ، وتوسع رواق اليوبيل حوالي القرن الثاني قبل الميلاد في الكلام على « مشطيم » اسم الفاعل من مادة شط في اللغة العربية يقابله كلمة « مشيطن » في اشتقاق اللغة العربية ، وتحتوى التلموديات

فى مثل هذا العصر كلاما عن الشيطان بليعال روح الكذب والخداع وهو يقابل فى العربية « بلاعول » أى لاممول عليه ولا خلاق له ولا خير فيه .. ويحتوى كتاب أخنوخ قرابة هـذا الوقت كلاما عن الملائكة الهابطين بقيادة كبيرهم المطرود من رحمة الله ، ويقول كتاب الحكمة ان الموت نزل على الدنيا من جراء حسد الشيطان .
وأما قبل هذا العصر بعدة قرون فقد كان كتاب التوراة يذكرون الشياطين بأسمائها البابلية كما ذكروا « الشعريم » أى الشياطين ذوات الشعر ، والليليت أى الشياطين الليليـة والكتيب والدبير (١) وغيرها من الجنة والعفاريت التى اقتبسوها بمدلولها أو فاتهم مدلولها فنقلوها بأسمائها ونعوتها

***

ونعود فنقول ان الديانة العبرية تحملت أعباء التوسـط بين الديانات الوثنية وديانات التوحيد الكتابية ، وصورة الشيطان فى عقائدها هى أوفق مقياس لسلم التطور الذى ارتقت عليه من أقدم عهودها فى التاريخ الى العهد الذى ظهرت فيه المسيحية

ففى أقدم العهود لم يكن عند العبريين فارق بين خلائق الكائنات العلوية وخلائق الكائنات الارضية من انسانية وحيوانية ، ولم يكن عندهم كذلك فارق بين هذه الخلائق وخلائق الشيطان .

فكان الشيطان يحضر بين يدى الله مع الملائكة ، وكان الملائكة يهبطون الى الارض فيعاشرون بنات الناس ، وكان الاله نفسه يمشى فى ظل الحديقة مبتردا ويأكل اللحم والخبز ويحب ريح الشواء ويغار ويحقد وينتقم كما يفعل كل مخلوق من مخلوقاته فى الارض أو فى السماء .

---

(١) أهم المراجع التى اعتمدنا عليها فى هذه الاسطر كتاب (الشيطان = صورة) لمؤلفه ادوارد لانجتون Edward Langton

وتطورت عقائدهم فى الملائكة فأصبح منهم نظراء لقوى الطبيعة فى أساطير الوثنيين الاقدمين ، فمنهم ملائكة للآبار وملائكة للانهار وملائكة للتلال وآخرون للمغـــاور والوهاد وآخرون للاسماك والحيتان ولكل صيد من حيوان البر والبحر والهواء . ومن هؤلاء الملائكة من يعمل فى طاعة الشيطان ويتنقل بين الاعمال السماوية وأعمال الارض والهاوية كأنها نمط واحد من الاعمـــال يختلف باختلاف الرؤساء والدعاة

وتروى « الزوهار » أن الملائكة هم الذين استكبروا آدم يوم صنعه الله لاول مرة ملء السماوات والارضين فتساءلوا مستنكرين: أفى الكون الهان ؟ فصغره الله وجبل له جسما من التراب

وفى ميثاق أخنوخ أن الملك شمهازى قاد رهطا من الملائكة الى الارض ففسق وعصا وخاف أن ينفرد بالعقاب فدعاهم أن يقسموا معه ليفعلن مثل فعله ، فأقسموا معه على جبل حرمون وسمى الجبل بهذا الاسم لانهم أقسموا عليه بحرمة الحرمان وعقدوا النية على المحرمات ، ثم فجروا مع النساء وعلموهن الزرع والحصاد وهموا باهلاك رجالهن فتعلم الرجال منهم الفتك والعدوان

ويروى عن اخنوخ انه هو الذى عزر الملائكة المتمرســين بشهوات الارض وقال لهم حين تشفعوا به : أولى لكم أن تهجروا الارض وأن تعيشوا سماويين لاتأكلون ولا تشربون (١)

ومن علماء الاســاطير العبرية ـ مثل ايشـتين وجرنبوم ـ من يقررون أن اليهود أخذوا طائفة من قصص الشيطان رواية عن المصادر الاسلامية ، وأن سعديا وابن سابا نقلا أسباب سقوط أبليس

---

(١) تراجع فى كل هـذه العقـــائد مجلدات الاساطير اليهودية جمع جنسبرج The Legends of The Jews. by Gingburg

عن هذه المصادر ومعها كثير من الاوصاف والفعال التى يتميز بهـا الشياطين

وكان الحكماء والربانيون يختلطون بكهان الديانات البابلية والمجوسية ويسمعون منهم أوصـاف أهريمان اله الظلام وجنوده فينقلونها الى الشيطان ويضعون هذا الشيطان شيئا فشيئا فى موضع العدو المناجز لله والانسان ، ومما اقتبسوه من أولئك الكهان ـ من الفصل الثالث فى كتاب البنـداهش Bundahesh ـ أن أهرمان تشكل بشكل الحيـــة وملأ آفاق الفلك الاعلى والارضين حتى لم يبق فيها منفذ لأبرة ونفث سمومه فامتلأت بها الآفاق وسرت فى كل شيء بين الأرض والســـماء ولم ينهزم حتى هبط اله الخـير « أورمزد » الى الارض فرده الى قراره

ولوحظ فى المقارنات بين العقائد أن اختصاص الشيطان بخلائقه التى تنافر الاخلاق العليـــا انما كان يزداد ويتمكن كلما استـــعار العبريون شعائرهم ومأثوراتهم من أبناء الحضارات الكبرى ، وأن أنبياءهم الذين أكدوا لهم عقيدة التوحيد والتنزيه لم يجدوا منهم سميعا قبل القرون الثلاثة الاخيرة التى سبقت ظهور المسيحية ، ولم يكن تمييز الشيطان بخلائقه المنافرة للخير « عقيدة رسمية» يقـرها الرؤساء المسـؤلون ، ولكنه كان من قبيل التراث المحفوظ الذى تعرف مصادره حينا وينقل من رواته فى البيئة التى يشيع فيها بغير مصدر معلوم

فلما تلاقت العبرية والمسيحية فى الزمن كانت صورة الشيطان على ما انتهت اليه يومئذ ميراثا مشاعا لايستند فيه اليهود الى نسختهم من التوراة ولا الى أسانيدهم « الرســـمية » ولكنها كانت صورة لايختصون بها ولا يمتنع أحد على غير ملتهم أن يقبلها ، لانهم نقلوها كما نقلها سواهم من مصادرها المعلومة أو مصادرها المجهولة ، ولم ترجع بها كتب التلمود والمشنا الى نبى من أنبيائهم المعدودين

الأديان الكتابية

(ب) المسيحية

ذكر الشيطان بأسماء متعددة فيما روته الاناجيل من أقوال السيد المسيح أو أقوال المتحدثين اليه على اختلاف المعتقد والنية

فذكر باسم الشيطان واسم « روح الضعف » واسم الشرير واسم رئيس هذا العالم واسم بعلزبول ، وقيل عن بعلزبول بلسان الفريسيين أنه رئيس الشياطين

وتذكر الاناجيل أخبار المجانين الذين شفاهم السيد المسيح فتقول عنهم تارة أنهم صرعى الشياطين وترد كلمة الشيطان فى الترجمة اليونانية مقابلة للكلمة اليونانيـة التى تطلق على ابليس Diabolos أو مقابلة للكلمة التى تطلق على العفريت والروح المتسلط Demon سواء كان شريرا أو غير شرير

وفى أحد هذه الاخبار ذكرت امرأة مصابة فقيل عنها أنها « كان بها روح ضعف ثمانى عشرة سنة ، وكانت منحنية ولم تقدر أن تنتصب البتة ، فلما رآها يسوع دعاها وقال لها : يا امرأة ! انك محلولة من ضعفك .. » الاصحاح الثالث عشر من انجيل لوقا

وبصدد المخبولين والمصروعين وشفائهم على يد السيد المسيح

قال الفريسيون أنه يحالف رئيس الشياطين ويأمرهم باسمه وسلطانه فيطيعونه ويخرجون من أجسام صرعاهم ، وقد جاءت هذه القصة بصيغ مختلفة فى الأناجيل ورواها انجيل متى فقال أنه « أحضر اليه مجنون أعمى وأخرس فشفاه وتكلم الاعمى الاخرس وأبصر . فبهت كل الجموع وقالوا : ألعل هذا هو ابن داود ؟ أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا : هذا لايخرج الشياطين الا ببعلزبول رئيس الشياطين ، فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم : كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لايثبت . فان كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته فكيف يثبت ملكه ؟ وان كنت أنا ببعلزبول أخرج الشياطين فأبناؤكم بمن يخرجون ؟ لذلك هم يكونون قضاتكم . ولكن ان كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله »

وموضع الالتفات فى كلام السيد المسيح هنا هذه المقابلة بين مملكة بعلزبول وملكوت الله ، وان السلطان الذى لايكون بقوة الشيطان انما يكون بروح الله

وأصرح من ذلك فى الاشارة الى سلطان ابليس على العالم قصة التجارب التى امتحن بها السيد المسيح فى البرية ، وكان ابليس هو الذى يجربه ويحاول اغواءه بما يملكه من العروض والمغريات ، ويستوفى انجيل لوقا هذه القصة اذ يقول أن يسوع «رجع من الاردن ممتلئا من الروح القدس ، وكان يقاد بالروح فى البرية أربعين يوما يجربه ابليس ، ولم يأكل شيئا فى تلك الايام فلما تمت جاع أخيرا وقال له ابليس : ان كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزا ، فأجابه يسوع قائلا : مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكل كلمة من الله ، ثم أصعده ابليس الى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة فى لحظة من الزمان ، وقال له ابليس لك أعطى هذا السلطان كله ومجدهن لانه الى قد دفع وأنا أعطيه لمن

أريد ، فان سجدت أمامي يكون لك الجميع ، فأجابه يسوع وقال : اذهب ياشيطان ! انه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد ، ثم جاء به الى أورشليم وأقامه على جناح الهيكل وقال له ان كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا الى أسفل لانه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك وأنهم على أياديهم يحملونك لكى لاتصدم رجلك بحجر ، فأجاب يسوع وقال له : انه قيل لاتجرب الرب الهك . فلما أكمل ابليس كل تجربة فارقه الى حين .. »

وهذه القصة أوفى ماجاء فى الاناجيل عن سلطان ابليس على ممالك العالم وأنها دفعت اليه ليعطى منها مايشاء لمن يشاء ، فهو قريب من صورة أهريمان اله الظلام فى ديانة الفرس القديمة ،ولكنه لا يملك الا مايدفع اليه بمشيئة الاله القادر على كل شيء ، وتلك أول تفرقة فى الديانات الكتابية بين اله الظلام وأمير الظلام كما سمى ابليس بعد عهد السيد المسيح

وآخرة ابليس كما جاء فى كلام السيد المسيح تناسب موضعه هذا من العالم ومن العزة الالهية ، ولا تصعد الى المنزلة التى أنزل بها الفرس الاقدمون اله الظلام فى ديانتهم الثنوية ، وفى الاصحاح الخامس والعشرين من انجيل متى شرح هذه الآخرة كما ينتهى اليها الملائكة والقديسون وينتهى اليها الشياطين والاشرار : «ومتى جاء ابن الانسان فى مجده وجميع الملائكة والقديسين معه فحينئذ يجلس على كرسى مجده ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعى الخراف من الجداء ، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار . ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركى أبى .. رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم ... ثم يقول للذين عن اليسار : اذهبوا عنى يا ملاعين الى النار الابدية المعدة لابليس وملائكته .. »

ويقول السيد المسيح فيما رواه انجيل لوقا أن الشيطان يغربل تلاميذه .. « وقال الرب : سمعان ! سمعان ! هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة .. » الاصحاح الثاني والعشرون .

ويذكر انجيل لوقا قبل ذلك آن الشيطان يداخل من يوسوس لهم وأنه « دخل في يهوذا الذي يدعى الاسخريوطي ... فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجند » ليسلم المسيح اليهم

وينفرد انجيل يوحنا بكلام منسوب الى السيد المسيح يصف فيه ابليس بأنه رئيس هـذا العالم ، وتكرر ذلك في غير موضع فجاء في الاصحاح الثاني عشر أن السيد المسيح قال لتلاميذه ليلة وداعهم: « الآن دينونة هذا العالم . الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجا، وأنا ان ارتفعت عن الارض أجذب الى الجميع »

وفي الاصـحاح الرابع عشر يقول : « .. ان أبي أعظم مني ، وقلت لكم الآن قبل أن يكون ... لا أتكلم معكم كثيرا لان رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء »

وفي الاصحاح السادس عشر « الآن أنا ماض الى الذي أرسلني وليس أحد منكم يسألني أين تمضي . لكن لاني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم . لكني أقول لكم الحق انه خير لكم أن أنطلق ، لانه ان لم أنطلق لايأتيكم المعزي ، ولكن ان ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء ذلك يبكت العـالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة . أما على خطية فلأنهم لايؤمنون بي ، وأما على بر فلأني ذاهب الى أبي ولا ترونني أيضا ، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قددين»

وفي انجيل لوقا وردت الكلمة التي شـبهت لقراء الاناجيل اسم الشيطان باسم « لوسيفر » حامل النور كما كان يدعى بعـد عصر الاناجيل بعدة قرون ، ففي الاصحاح العاشر من انجيل لوقا يقول

السيد المسيح للتلاميذ السبعين الذين أرسلهم للبشـارة من قبله : « انى رأيت الشيطان ساقطا كالبرق من السماء »

أما غاية ما وصف به ابليس من السطوة فهو قول بولس الرسول عنه فى رسالة كورنثوس الثانية « ان كان انجيلنا مكتوما فانمـا هو مكتوم فى الهالكين الذين فيهم اله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين »

وانما كان بولس يذكر سطوة الشيطان وهو يرى أمامه معابد « مترا » فى كل مكان يرحل اليه ، ويسمع أتباع مترا يذكرون اله الظلام واله هـذه الدنيا السفلى التى تخضع لسـلطانه وتنتظر نور الخـلاص بعد رجعة مترا بالظفر والغلبة فى الدهر الموعود ، وقد أخـذ العبريون تقسيم الدهر الى دهرين من أقوال أهـل بابل وفارس ، ولم يكن من شأن المسيحيين الاوائل أن يهونوا من شرور اله الظلام فى هذه الدنيا ، بل كانوا يسبقون أتبـاع « مترا » الى تعظيم الفارق بين النور الالهى والظلمة الشيطانية ، وتسمية بولس للشيطان باله هذا الدهر انما هو من قبيل تحقير الدهر الذى يعبدونه فيه ، وتلك عادة من عادات العبريين الاقدمين فى الزراية بأدعيـاء الربوبية عند الامم الاخرى ، فكان من أساليبهم فى انكار ربوبية بعل أن يسموه — على رأى الـكثيرين من الشراح — رب الذباب ورب الزبالة ، ومن ثم اسم بعلزبوب وبعلزبول

وتمتزج بأقوال بولس على الدوام تعبيرات مجازية تدل على المامه بالاساليب اليونانية فى التعبيرات وسماعه بالآراء التى كانت تنقل عن حكماء اليونان ويسوقونها مرة فى معرض الطبيعيات ومرة فى معرض الديانات ، ومن ذاك قوله عن ابليس فى رسالة افسس « أنه رئيس سلطان الهواء الروح الذى يعمل الآن فى أبناء المعصية » ومنه قوله فى تلك الرسالة « ألبسوا سلاح الله الكامل لكى تقـدروا أن تثبتوا

ضد مكان ابليس ، فان مصـارعتنا ليست مع لحم ودم .. بل مع أحفاد الشر الروحية فى السماوات »

ويرى اللاهوتيـون المحدثون أن أقوال بولس هنـا تحتمل الاشارة الى الطبيعيات اليونانيـة كما تحتمل الاشـارة الى التراث العبرى فى مسـائل الروحانيات . قال الدكتور هـوجو راهنر Hugo Rahner فى بحثه عن الروح الارضى والروح الالهى فى علم اللاهوت القديم : « ان عبـارة رئيس سلطان الهواء فى كلام بولس الرسول تثير أسئلة شتى فى التاريخ الدينى ينبغى أن نعرض لها ان أردنا أن نفهم آراء آباء الكنيسـة الرفيعة فى طبيعـة الارض الروحية الشيطانية .. أفلا يقع فى أخلادنا اننا نسمع هنا نغمة مألوفة ؟ أليس تصـور الروح الشيطانى سلطانا على الطبقـه المظلمة من الهواء صدى واضحا من نظريات أفلاطون وزينقراط وبلوتارك ؟ ان التشـابه لظاهر وان البحوث التى عرضت لهـذه المسألة لكثيرة منوعة ، ولكن الارجح على مايبدو أن بولس الرسول انما اتخذ هذه الصورة من الروحانيات اليهودية المتأخرة ، فقد كان من العقائد الشـائعة بين اليهود أن الارواح الشريرة لاتهبط الى مادون الهواء المحيط بالارض وانها من هذا المهبط تباشر عمل الشر عليها . وانما ترمز هذه الصورة فى ذهن بولس الرسول الى خصومة أصبحت خلقية نفسية ولم تبق كما كانت قبل ذلك كونية طبيعية . فالعالم عنده فى أساسه انما هو الانسان ، وهذا الانسان الذى يوصف بأنه أرضى وأنه موثق الى الارض وأنه خاطىء ، خليق أن يخضع لسلطان أرواح الشر عليه ، ولكنه قادر كذلك على أن يرتفع بنفسه من الظلام الى النور ومن الشيطان الى الله »

***

ومعلوم أن كتاب « العهد الجديد » هو مرجع المسيحية الأكبر الذى تتفق الكنائس على اعتماده فى العقائد الجوهرية ، ولكن العهد

الجديد ينقسم الى ثلاثة أقسام « أولها » الاناجيل و « ثانيها » أقوال الرسل وثالثها أقوال الصحابة والرواة المتصلين بالرسل ، وترتيبها كما جاء في شروح بعض اللاهوتيين المحدثين أن الأناجيل وحي غير مصحوب بتفسير ، وأن أقوال الرسل وحي وتفسير ، وأن أقوال صحابتهم تفسير بغير وحي ، وقد جاءت في أقوال الرسل وما بعدها تفسيرات في المنزلة الاولى من مأثورات العقيدة المسيحية يتقدمها جميعا ماجاء عن خطيئة آدم وعن تكفير الخطيئة وعن الحية والشيطان ولم تسبق الاشارة اليه في الأناجيل

ففي هذه المراجع أول اشارة الى تسمية الحية بالشيطان كما جاء في الاصحاح الثاني عشر من أعمال الرسل حيث يذكر التنين ويقال عنه «أنه التنين العظيم ، الحية القديمة ، المدعو ابليس والشيطان الذي يضل العالم .. »

وفي رسالة يوحنا الرسولي الأولى « من يفعل الخطيئة فهو من ابليس ، لان ابليس من البدء يخطيء ، ولأجل هذا ظهر ابن الله لكي ينقض أعمال ابليس »

وفي هذه الرسالة أيضا أن الانسان من الله أصلا ولكن « العالم كله قد وضع في الشرير »

وتتكلم الكتب البوكريفية» عن دخول الموت الى العالم بدخول الخطيئة فيه ، ومعظم هذه الكتب لايرتقي الى طبقة الاقوال المأثورة عن الرسل مباشرة ولكنه يعتمد للترجيح والتفسير ، وسمي بالكتب « البوكريفية » بمعنى « السرية » أو الخاصة في اليونانية لأنه كان من المراجع التي يضن بالاطلاع عليها على غير الواصلين في الايمان والمعرفة

وعندنا أن الفرق في أوصاف الشيطان بين الأناجيل وما تلاها انما هو الفرق بين الاوصاف السماعية والاوصاف القياسية أو العقلية

فان الشيطان لم يتقرر له « شأن » أو دور معلوم فى الاديان الكتابية قبل القرن الاول للميلاد ، وانما كان فى الكتب العبرية أو اليهودية واحدا من الملائكة المغضوب عليهم أو واحدا من الارواح المتمردة فلا يعرف الا بما سمع من أوصافه ولا شأن له فى ذلك الا كشأن الابطال التاريخيين أو « الشخصيات التاريخية » التى تعرف بالمسموع عنها بين المسموعات المختلفة ولايمكن أن تعرف بأوصاف عامة يقتضيها العقل والقياس

أما الشيطان الذى تقرر له « دور » معلوم أمام الله فلا يتوقف العلم بأوصافه على السماع بل يجوز للمفكر أن ينسب اليه كل مايقتضيه ذلك الدور من الالوان والملامح والخصائص والتبعات ، ويجوز له كذلك أن ينسب له ما سوف يأتى به بعد أزمنة طويلة فى نهاية العالم ومصيره المقدور

وقد تقرر دور الشيطان وتقرر سلطانه على الشر وعلى العالم الارضى فى مقابلة العالم الالهى فى السماء ، فكل صنيع يوصف بالشر فهو من عمله بغير حاجة الى رواية السماع ، وكل خطيئة أو غواية أو ضلالة أو عاقبة محذورة فانما تنسب اليه كما تنسب الخصائص الى معدنها بحكم البداهة التى لاتحتاج الى عيان أو الى اسناد ، وعلى هذا القياس قال بولس الرسول فى رسالته الاولى الى أهل كورنثوس أن رؤساء هذا الدهر ـ أى الشياطين كما جاء فى تعبيراته السابقة ـ هم الذين صلبوا السيد المسيح ، ورماهم بالجهل وقلة الدراية بعقبى مايصنعون لانهم ظنوا أنهم يخدمون مقاصدهم بتقديم المسيح الى الصليب وما كانوا يخدمون غير مقاصد الله منذ الازل بما دبروه ورتبوه ، فقال عن حكمة الايمان وحكمة الشيطان « اننا نتكلم بحكمة بين الكاملين ، ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر ولا من عظماء هذا الدهر الذين يبطلون . بل نتكلم بحكمة الله فى سر الحكمة المكتوبة التى سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا .

ولم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر ، لانهم لو عرفوها لما صلبوا رب المجد .. »

فاذا كان الائمة الاسبقون فى صدر المسيحية يذكرون الشيطان بصفات لم ترد فى الاناجيل ولا فى كتب العهد القديم فانما يذكرونه بالصفات التى تكون له لا محالة بحكم طبيعته المميزة أو بحكم دوره المعلوم ، وهو الدور المقابل للخير والحق وصدق النية فى كل عمل مضى وكل عمل يتكشف عنه الغيب

وينبغى أن نلاحظ النقلة الواسعة هنا فى تطور الاخلاق والمقاييس بين أوائل العقائد العبرية وبين العقائد التى شاعت فى القرن الأول للميلاد

فقد كان الضرر والشر بمعنى واحد فى العقائد البدائية ، وكان الروح الضار كالحيوان الضار فى مقـــاييس الاخلاق أو مقاييس النعمة والبلاء ، وكان من الجائز أن تستقل الحية بالضرر دون أن يلقنها الشيطان غواية آدم ، فهى حيوان ضار يؤذى ويخيف وكفى بذلك وصفا للشرير فى العقائد البـدائية ، فما زال الضرر والشر يتميزان ويختلفان فى الميزان حتى وجب عقـلا أن يكون الشيطان وراء الحيـة فى غواية آدم وحواء ، وحتى وجد فى عالم الضـــمير فارق واسع بين الخوف من لذعة الحية الماكرة ودسيسـة الشهوة والعصيان

***

الا أن المسيحيين الاوائل استرسلوا فى حديث الحية لانهم وجدوا فيها أصلح صورة لتمثيل الشيطان للحس ، وكان تمثيل الشيطان للحس يتتابع فى « رؤى » النساك والمتنبئين مستقلا عن تمثيله للنفس فى بحوث الفقهاء وعلماء اللاهوت . فاذا تكلم اللاهوتى عن الشيطان فانما يستنبط أوصافه بالقياس الى طبيعته وعمله كما تقدم ، ولكن الناسك المتنبىء صاحب الرؤى والمشـاهد الغيبية انمـا ينقل رموزا

وجدانية قابلة للمشـــاهدة فى الحس كما هى قابلة للمشاهدة فى الرؤيا ، وليس فى الاشياء التقليدية ولا فى تشبيهات الخيال أقرب من الحية القديمة واذا بولغ فى تشـويهها وتبشيعها وتعظيم ضررها فهى التنين الذى يضيف اليه الخيال من الاشياء والطبائع مالم يتحقق فى الحية المعهودة ، فهو ذو رأسـين أو ذو أرجل وأجنحة أو ذو لسان يندلع بالشرر ويقذف باللهب ، وقد سـاعد على انتشار هذه الصورة للشيطان أنها كانت شائعة من أقصى الصين الى أرض بابل وآسيا الصغرى ، وانها كانت شائعة كذلك فى كتب العهد القديم ، وصادفهم خطر التنين الاكبر أو خطر الحية الشيطانية فى مقر عبادتها بآسيا الصغرى فكثرت فى رسائل العهد القديم اشارات النساك الى « برجاموم » عاصمة هذه العبادة التى يظهر أنها كانت متوارثة هناك منذ زمن قديم وتجددت دعوتها بعد قيام الدعوة المسيحية على سبيل المقاومة ورد الفعل مع غيرها من الدعوات التى كان أصحابها يتألبون عمدا أو على غير عمد لمقاومة الدين الجديد

ويمكن أن تعتبر رموز الرؤى مقدمة للصور الفنية التى اختارها المصورون والمثالون بعد انتشار المســيحية وقيام هياكلها واشتغال أصحاب الفنون برسومها ومبانيها ، فهناك صور للشيطان على مثال التنين وصور أخرى على مثال التنين فى جميع أعضـائه غير الرأس فقد كانوا يجعلونه رأس انسان ذى قرنين أو أذنين صـاعدتين فى مكان القرنين ، وكلما تقدم اللاهوت فى وصــف طبيعة الشيطان غابت ملامح الحية والتنين وخلفتها ملامح انسان خبيث الطلعة يعمل الفن عمله فى ايداعه دلائل الشر التى تغنى عن اسـتعارة الشـبه الشرير من مشابه الحيوان ، ولكنهم ظلوا الى زمن أخير يصورون الشيطان بظلف مشقوق ويحتفظون فى هذا الشبه بصورة «الساتير» اليونانى المتهالك على الشهوات ومعاقرة الخمور

أما الصور اللاهوتية فقد أفاض الآباء الاولون فى شروحهـــا

وفروضها واجتهد كل منهم على حسب علمه واطلاعه فى تطبيقها على الطبيعة المفروضة للشيطان ، ويعتبر ترتوليان Tertullian المتوفى سنة (٢٣٠ م) وأوريجين المتوفى سنة ٢٥٤ م) أوفر الفقهاء المتقدمين مشاركة فى وصف الطبيعة الشيطانية واسناد الافعال والنيات التى تلائمها الى الشيطان وأجناده على حسب درجاتهم فى السيادة العالية ، وعند ترتوليان أن الشيطان الأكبر يرصد شيطانا من جنوده لكل انسان من بنى آدم وحواء ، وان أدلة وجود الشياطين عامة متواترة فى عقائد المهتدين والوثنيين المضللين ، وكلهم يسلمون أن الشيطان يتعقب الانسان ويتسلل الى مخادع نفسه على غفلة منه أو بعلمه واختياره ، ولكن المسيحى المؤمن بقدرة السيد المسيح المستقيم على منهجه يملك السلطان النافذ فى هذه الشياطين ويستطيع أن ينقذ منها فرائسها اذا صدقت نيتهم فى طلب الخلاص منها ، وليس المسيحى الذى يعجز عن قهر الشيطان خليقا عنده بوصف الايمان

ولا شك أن « أوريجين » كان فقيه القرون الثلاثة الأولى غير مدافع ، وكان له من العلم بحكمة عصره مالم يكن لأحد من معاصريه ، وكان الى جانب ذلك مؤمنا راسخ الايمان تقيا شديد التقوى ، ولم يكن له مطمع فى رئاسة كهنوتية أو غنيمة دنيوية ، فقد جب نفسه ليتقى فتنة الشيطان وهو يعلم البنات والفتيات ويعظ النساء فى البيع والبيوت ، وقد علم وهو يفعل ذلك أنه يحرم نفسه منصب الكهنوت العليا التى تحرم على المجبوبين والمشوهين ، فلم يستعظم هذا الحرمان حماية لسريرته من غواية الشيطان ، وهذا مع اسهابه فى التفرقة بين دواعى الشر التى يوحى بها الشيطان وجنوده ودواعى الشر التى ركبت فى طبيعة الانسان وهى شهوات الطعام ولذات الجسد وفى مقدمتها اللذة الجنسية . ولعله فى كل ماكتبه عن تسخير الشيطان لهذه الشهوات لم يعدت قدرته على الغواية كما أثبتها على ذلك النحو الرهيب

ولم يجد أوريجين مشقة فى إسناد الشر والخطيئة الى سيادة هذا العالم ، فانه عاش فى زمن قد اجتمعت مذاهبه على تحقير المادة واعتبارها جرثومة النقص والكثافة والفساد ، وعم فيه القول بين النساك والزاهدين بأن طلب السيادة هو المحنة التى أسقطت ابليس وجنوده وان « التواضع » هو شعار ملكوت السماء وهو آية المسيح المخلص الذى يزهد فى المواكب ويأتى كما أتى من قبل على حمار ابن أتان . غير أن أوريجين كان يمزج اللاهوت بمعارفه الفلسفية ويقرر طبيعة الشيطان وفقا لما تمليه عليه الفلسفة والدين ، ورأيه فى تكوين الشيطان أنه ذو جسد يلائم مقامه فى الهواء الكثيف المحيط بالارض ويتطلب الغذاء من الدواخين والابخرة والدم الخالص مجردا من اللحوم والعظام ، ولهذا يحاول أن يفسد القرابين الالهية ويختلس أبخرتها ودماءها ليتحول بها عن مقصدها

ويفرق أوريجين بين الملك الساقط والشيطان الرجيم ، ويوافق بعض الذين سبقوه فزعموا أن الطبيعتين تلتقيان فى ذرية الملائكة الذين هبطوا الى الارض فعشقوا بنات الناس وقالوا أنهن حسنات ولم يقصدوا العصيان بل وقعوا فيه وهم لايعرفون عقباه

وللشيطان سبيلان الى غواية الانسان فى رأى الفقيه الفيلسوف: أحدهما أن يوسوس له من حيث لايراه لان طبيعة جسده كما تقدم من طبيعة الهواء ، فهو يجرى من سريرة الانسان مجرى النفس الذى لاتراه العينان ، والسبيل الآخر أن يستولى عليه ويتخبطه على هواه ويبتليه بالامراض والعاهات ، وقد يسلط الاوبئة والطواعين على المدن والاقطار الواسعة ليذودها عن رحمة الله ، وله جنود فى كل مدينة وكل قطر وبين كل معشر يعبدون الاوثان أو يعبدون ربا من الارباب غير الاله الواحد الذى يدين به أتباع السيد المسيح ، فما كانت هذه الأرباب والاوثان الا شياطين من جنود ابليس تنتزع أبناء آدم وحواء من سلطان السماء وتموه عليهم

العقيدة الصالحه بما يشبهها من الشعائر المسيحيه ، ليختلط عليهم الحق والباطل وطريق الهدى وطريق الضلال

وكان من عقائد أوريجين أن التمييز بين الخير والشر فطرة فى كل موجود عاقل يدرك ويختار ، ولا استثناء فى ذلك للشياطين عامة ولا لرئيسهم الاكبر ابليس ، فهم لم يخلقوا منحرفين مضللين ولكنهم انحرفوا وضلوا بما داخلهم من الكبرياء والتمرد والحسد فغلبتهم الشقوة وعز عليهم أن يستمعوا لنداء الخير والمحبة والسلام ، فأقبلوا على الشر وأمامهم سبيل الصلاح يمضون فيه لو سلست له قيادتهم ورفعوا عن أعينهم تلك الغشاوة التى وضعوها عليها بأيديهم ، ولابد لهذا الضلال من نهاية بعد زوال المحنة وانقضاء التجربة التى يبتلى بها العالم كله آخر الزمان

ولما أراد أوريجين أن يقدر للشيطان مصيره فى نهاية العالم لم يتبع أقوال المتنبئين وأصحاب الرؤى بل اتبع النصوص القديمه وفسرها على هدى الحكمة الحديثة فى عصره ، ولم تكن فى عصره حكمة أحب اليه من الحكمة الروافية التى تلقاها اليونان قديما من الهند وبثوا فيها من عقائد فيلسوفهم فيثاغوراس فيما يقربها الى العلم وأدب السلوك

فقد وجد « أوريجين » فى عصره قصصا دينيا مستفيضا عن وقائع الشيطان مع الملائكة ومصيره بعد الهزيمة الحاسمة فى آخر الزمان ، وفى هذه القصص ملاحم الحرب بين ميخائيل رئيس الملائكة وابليس رئيس الشياطين ، وأطوار القتال الذى يدور سجالا بين الفريقين ويؤسر فيه بعض الشياطين فيحبسون فى باطن الارض أو يشدون بالاغلال حتى الموعد الاخير ، وتروى هذه القصص أخبارا عن الشياطين والملائكة المطرودين الذين يستطيعون الصعود الى السماء أو الذين يصعدون اليها فيرتدون

عنها خوفا من الرجوم الالهية ، فمقامهم بعد ذلك عند السماء الثانية أو فى مغاور الارض يتحصنون بها من هجمات الملائكة الصالحين والقديسين المقربين ، ثم تنشب الملحمة الاخيرة قبل القيامة وبعد ظهور المسيح الاول بألف سنة ، فيذهب أهل النار الى النار ويرتفع أهل النعيم الى النعيم

أما « أوريجين » فنهاية العالم عنده هى نهاية الدورة الكونية التى اعتقدها الهنود من قبل ثم اعتقدها الرواقيون بعدهم وفرضوا لها آدابا من آداب السلوك تكفل لمن يسلكها أن ينجو من الكارثة الكونية مطهرا من شوائب الحياة الارضية ، فيخلص الى الوجود الحق فى آفاق عليين

وستنتهى الدورة الكونية وتتطهر الخلائق بالنار الابدية ويبطل الفناء وبموت الموت فلا خطيئة ولا عقاب فى عالم لا موت فيه ، ويتعذر ـ طبعا وعقلا ـ أن يبقى الشيطان على شره بعد زوال معدنه وخلاص العالم من الموت الذى ابتلاهم به من طريق الخطيئة ، ومن الجائز ألا يتم الخلاص والتطهير على درجة واحدة بل يأتى تباعا على درجات مترقيات ، ولكنه لايكون متى أتى الا كما ينبغى أن يكون بلا موت ولا خطيئة ولا عقاب

***

ونكتفى بما لخصناه من شروح أوريجين وفروضه فى التعريف بالشيطان أو التعريف « بالشيطانيات » على الأصح لانه قد جعل هذا التعريف بابا من أبواب الدراسة اشتهر فى الأزمنة الاخيرة باسم « الديمنولوجى » أى علم الشيطانيات ، ولكننا لاننتقل منه الى مابعده دون أن نلاحظ على هذه التعريفات ملاحظة جديرة بالتوقف لديها فيما يروى عن القرن الثالث للميلاد على التخصيص • ففى ذلك العهد المريب لم تكن فى العالم عقيدة غير المسيحية توحى الى المؤمن بها مثل هذه الثقة بالامور المغيبة فى أدق الجزئيات ، وذلك

هو سر قوتها وارتياح النفوس اليها بين ظلمات الحيرة والريبة التى رانت على المذاهب جميعا وتركتها لمعتقديها أشبه شيء بالسلوى التى يزجى بها الفراغ ولا تمضى مع الجـد خطوة الا عادت الى اللعب خطوات ، وقد كان أشبه المذاهب بالجـد فى ذلك العصر مذهب المعرفيين Gnostics الذى كان فى حقيقتـه عنوانا لكل مذهب يرد على الخاطر فى تلك الآونة ، اذ كانت المعرفة ألوانا وكانت ألوان الوسـائل التى تطلب بها لاتقل عن ألوانها ، ومنها . فيما نحن بصدده من حديث الشـيطان ـ معرفة الخبرة باللذات والرذائل المحرمة لان الجهل بهـا يسلب طلاب المعرفة حظا يتاح للجاهل ولا ينبغى لهم أن يتجنبوه ، وقد أباحت طائفـة من هؤلاء المعرفيين عبادة الشيطان مع أصحاب النحل التى كانت تعبده وتتقرب اليه باستباحة الرذائل والارجاس ، وتسميها المعرفة بالنور من طريق المعرفة بالظلام ، ولم تنقض فترة طويلة على هذه النحل المتفرقة حتى تجمعت منها نحلة كبيرة أوشكت أن تعم القارة الاوربيـة من أقصاها شرقا الى أقصاها غربا فى القرون الوسـطى ، وبقيت منها ـ كما تقدم ـ بقية الى أوائل القرن العشرين

***

ولا يتوقف تاريخ اللاهوت بعد أوريجين على أسماء أكبر من أسماء القديس أوغسطين والقديس توما الأكوينى ومارتن لوثر رافع علم الثورة الذى سمى هو نفسه شيطانا وسمى الحبر الاعظم فى زمانه بالشيطان

***

عاش القديس أوغسـطين بين أواسط القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد (٣٥٤ ـ ٤٣٠) وأحاط بما تقـدمه من الشروح والفروض فى موضوع الشيطانيات ، وذهب فى علة سقوط الشيطان مذهبا كمذهب أوزيجين فقال أنه خلق للخير ولكنه أشقى نفسه بحسده وكبريائه فأنزله الله من سماء الأثير الصافى الى هواء

الارض الكثيف ، ولا يمتنع عند أوغسطين أن يكون هـــذا الجسد ملائما للتناسل من الأجساد البشرية لأن الحديث عن علاقة الشياطين بالنساء الآدميات متفق عليه بين الوثنيين عباد الشياطين وبين المؤمنين الذين يلعنونها ويؤمنون بوجودها ، واطلع أوغسطين على أطراف من الفلسفة اليونانية كما اطلع عليها أوريجين ، فلم يستبعد أن يكون جسد الشيطان أرفع من جسد الانسان كما زعم الفيلسوف الافلاطونى أبوليوس Apuleius الذى كان له بعض الحظوة بين المثقفين من رجال الدين ، ولكنه أبى أن يقول أن امتياز الشيطان بالجسد يرفعه رتبة على الانســان ، فان الحيوان ليمتاز على الانسان بالحس كما يمتاز النسر بالنظر والكلب بالشم والطير بالخفة ، ولا يقال أنها أرفع منه رتبة لرجحانهاعليه فى هذه الحواس ، وقد يخف جسم الشيطان عن الجسم البشرى ولكنه يصلى بجسمه نار العذاب كما جاء فى وعيد السيد المسيح

وأوغسطين هو صاحب الكتاب المشهور عن مدينة الله أو عن ملكوت الله ، وتقابله مملكة العالم التى قد يسيطر عليها الشيطان عنوة أو بالكيد والخديعة ، وفى وسعه أن يتسلل الى الارواح من مسكنه فى طبقات الهواء أو يترصد لها وهى صاعدة الى الملأ الأعلى فانها فى معراجها لاتنى تعبر بالشياطين الملعونين والملائكة الابرار ، فاذا كانت فى حياتها قد غلبت سيادة الشر بقمع الشهوات والزهد فى المطامع فلا سلطان للشيطان عليها فى معراجها الى عليين ، واذا خرجت من الدنيا وفيها شائبة من غواية الشيطان عالقة بها فتلك هى العلاقة التى يقنصها منها الشيطان ويعوقها بها من الصعود ويهبط بها الى هوائه أو هاويته حيث يشاء

ويرى أوغسطين كمن تقدموه وأتوا بعده أن الشيطان عليم بالسحر قادر على نشر الاوبئة والمداواة منها ، وان الاوثان المعبودة شياطين لها هذا العلم وهذه القدرة وفى وسعها أن ترضى عبادها

بقضاء المطامع وترهبهم بالخوف والمرض ، ولكنها قدرة محدودة تقصر عن عزيمة الايمان اذا صدقت نية المؤمن عليها ، ولم يترك المؤمنون سدى فى حربهم معها لانهم معانون عليها بكفارة السيد المسيح .

وأعظم الاعلام فى اللاهوت المسيحى بعد أوغسطين فيلسوف القرون الوسطى توما الاكوينى (١٢٢٧ - ١٢٧٤) الذى فلسف العقائد المسيحية على مثال لم يسبق اليه ولم يلحقه أحد بعده ، ومحور فلسفته حرية الارادة التى يملكها كل مخلوق عاقل ، وأولهم الشيطان لانه كان فى المنزلة العليا بين المخلوقات العلوية وكان امتحانه من ثم أعسر من امتحان سواه ، وكانت قدرته كذلك على الثبات والنجاة أعظم من قدرة الآخرين ، فأذهلته العظمة عن كل شىء غير نفسه وطمح الى مساواة الله فى عظمته ومشاركته فى وحدانيته ، وتبعه من تبعه ممن هم على غراره فهوى من عليائه وهوى معه تابعوه

ويسمى الفيلسوف هؤلاء الشياطين جميعا بالكائنات العقلية أو الكائنات الذهنية ، تمييزا لها من الكائنات الحيوانية المولدة من التراب ويقول أنها مسلطة على عقول البشر لاستدراجها واستخراج غاية ما انطوت عليه من الصدق والمناعة ، وقد يحدث ذلك باذن الله وقضائه ، وقد تكون ذرائعه الكبرى مستقرة فى غرائز الانسان ويكون الانسان فيها عدوا لنفسه اذا غلب عليه هواه قبل أن يغلبه وسواس الشيطان

ويجارى الفيلسوف من تقدموه فى الاعتراف للشيطان بالقدرة على العجائب والافانين التى تشبه المعجزات ، ولكنه يحد هذه القدرة حد العالم الفيلسوف الذى يرفض عقله التسليم بالعبث فى نظام الطبيعة ، فلا خوارق على التحقيق فى طاقة الشيطان ، ولا تعقل

الخوارق الا من عمل الاله الذى وضع للعالم نظامه وأجراه عليه ، وانما يستطيع الشيطان اثارة المادة بعناصرها فيدمر بها من تراد له الفتنة ولا يتعدى هذه العوارض الى تبديل جوهر المادة أو تبديل جوهر الروح ، وكل مايصنعه الشيطان ممـــا يلتبس على الناس بالمعجزات فانما هو خداع لحس الانسان حتى يرى الاشياء على غير صورها ، أو تبديل لاشكال تلك الاشياء لاينفذ الى الصميم

ولعل القديس توما الاكوينى قد قال كلمة اللاهوت الاخيرة فى هذا الموضوع ، فلم يحدث بعده رأى غير هذا الرأى فى تصوير الشيطان أو تصوير قدرته على بنى الانسان

***

ويأتى أكبر الاعلام بعده فى اللاهوت المسيحى على اتجـاه غير هذا الاتجاه ، ولكنه لايغير شيئا من وصف الشيطان كما يغير الشيء الكثير من وصف الذين استهواهم الشـــيطان فى رأيه بين رجال الدين ورجال الدنيا

جاء مارتن لوثر فى أواخر القرن الخامس عشر وعاش الى مابعد منتصف القرن السادس عشر (١٤٨٣ – ١٥٤٦) ولم يتغير بين عصر الاكوينى وعصره معتقد واحد من المعتقدات التى كانت شائعة عن الطبيعة الشيطانية

فكان لوثر يؤمن بوجود الســـحرة ومبايعتهم سرا أو علانيـة لأرواح الشر وزمرة الشيطان ، وكان يؤمن بقدرتهم على تسخير الاوبئة والآفات واستحقاق السحرة قضاء الموت الابدى اذا ثبتت عليهم ممـالأة الشـــياطين على المؤمنين الابرياء ، وتمتلىء أحاديث المائدة التى نقلت عنه بما كان يرويه لجلســـائه من قصص الشياطين السحرة فى زمانه وقبل زمانه ، ومنها أن رجلا من المؤمنين بصق [illegible] الشيطان فلاذ بالفرار ، وان رجلا آخر لقيه فكسر له قرنا من [illegible]ونه ، وحاول ذلك رجل آخر دونه فى الايمان فبطش به الشيطان .

ونصيحة لوثر للمؤمنين أن الشيطان ســـخرية فاضحكوا منه ولا تهابوه !

ومما تحدث به فى مجالسه قصة عن الامبراطور فردريك الذى كان يصادق علماء العرب ويطلع على علومهم ويتهم بالزيغ والكفر لاشتغاله بالمحرمات من العلوم والصناعات ، وخلاصة هذه القصة أن الامبراطور دعا الى مائدته ساحرا مشهورا وأراد أن يناجزه فى القـدرة فجعل له فى يديه مخـالب كمخالب الرخاخ الاسطورية ذات الاجنحة والقوائم والانياب ، فخجل الساحر ولم يمد يديه الى الطعـــام ... وانهم لعلى المائدة اذا بصـيحة من الطريق تزعج الامبراطور فينهض الى النافذة ليطل عليها ، فيغتنم الساحر فرصته السانحة ويجعل للامبراطور قرونا على رأسه كقرون الايائل ، فلا يستطيع أن يرتد برأسه من النافذة وعليه تلك القرون ...

وعلى جدار من جدران قلعة « وارتبرج » مداد ســـائح بقيت آثاره ، وعلم الزوار مما يرويه حراس القلعة نقلا عن المعاصرين أنه من مداد الدواة التى ألقاها لوثر على الشيطان حين تراءى له ليصده عن دعوته ويكفه عن هجماته على أحبار زمانه ، ولم يبرح لوثر طوال أيامه الى آخر حياته ينـــادى بأنه فى حرب مع الشـــياطين ويحسب القائمين بالسلطان فى الارض باسم الدين ثوارا على ملكوت السماء

***

ثم انقضت القرون الوسطى وتقدمت النهضة العلمية فاصطدمت فى كل وجهـــة تتجـه اليها بالكلام فى « الشـــيطانيات » أو علم « الديمولوجى » كما عرف فى الزمن الأخير

كانت النهضة العلمية تصطدم بهذا البحث خاصة لانه كان يدور على السحر والسحرة ومحالفة « المعرفة الدسوية » للشـياطين أعداء الله وأعداء الدين ، وكانت مجالس التفتيش تعمل عملها فى مطاردة

السحرة أو المتهمين بالسحر لانهم ينظرون فى الكتب التى لايقرءها اللاهوتيون

وانقسم الباحثون فى « الديمنولوجى » قسمين متنازعين : قسم اللاهوتيين وهمهم الاكبر أن يوفقوا بين النصوص الكتابية ومعارف الزمن الحديث ، وقسم العلماء التجريبيين وهمهم الاكبر أن يدفعوا عن أنفسهم تهمة التحالف مع الشيطان ، ويشككوا فى وجود الشيطان أو يجزموا بانكاره لانه لا يظهر لهم عيانا ولا يظهر لهم بالتجربة والبرهان

غير أن اللغة التى تداولها الناس من قبل القرون الوسطى قد تلقت من « الديمنولوجى » تعبيرات مفهومة غير ملتبسة على أحد يتكلم بها أو يسمعها ، وجرت هذه التعبيرات على ألسنة المتدينين كما جرت على ألسنة المنكرين أو المتشككين فى العقائد الدينية . فلما كان لوثر يقول ــ مثلا ــ عن الربا وبيوت التجارة والمصارفة فى القرون الوسطى انها « مخترعات » شيطانية وان الشيطان هو الذى يدير تلك البيوت لحسابه ، لم يكن أحد يحمل كلامه على المجاز أو يشك فى قصده الى شيطان غير شيطان النصوص الدينية الذى يجوز أن يبدو للعيان أو يعمل مع أصحاب تلك البيوت فى الخفاء . ولكن المتدينين وغير المتدينين شهدوا بعد ذلك قيام الصناعة الكبرى وأجهزة البخار الضخمة فوسموها «بالشيطانية» ونعتوها بالصناعة السوداء أو بصناعة الظلام وهم يأخذون من هذه الكلمات معناها الذى لايختلفون فيه ويفهمون منها ان تلك الصناعة خلو من الرحمة والعطف ، مظلمة من ظلام الفحم والدخان أو ظلام الغشم والقسوة ، سواء نسبوها الى الشيطان أو جعلوا الشيطان علما مفهوما على كل هذه المساوىء والنعوت

ويغلب على الظن أن سهولة التعبير المجازى على هذا النحو سولت للأناس فى القرن التاسع عشر أن يقحموا فوارق اللون

والعنصر في أحاديث « الديمنولوجي » وأن يزعموا كما زعـــم الدكتور كارترايت أن الشيطان لم يتكلم في الجنة بلســـان الحيه بل كان كلامه بلسان زنجي أسود على مثال الشيطان الذى كان يصبغ بالسواد في صور القرون الوسطى ، وكأنما أراد كارترايت أن يترقى بالفكرة درجة فوق الدرجة التى وصل اليها الاسقف آدم كلارك في تعليقاته على سفر التكوين (سنة ١٨٢٥) فجعل الحية زنجيا بعد أن كانت في رأى كلارك قردا من فصيلة الاورانج أو تانج .. وفى هـذه الآونة ـ أو حواليهـا ـ كان الرحالون يسيحون في أمريكا الجنوبية فيسمعون من أهلها البيض أن الزنجي هو البهيمة الكبرى التى ذكرت في كتاب الرؤيا الابكريفية (١) ويتشكك الكثيرون منهم في نسبته الى حام ، لانهم لاينسبونه الى فصائل الآدميين .

***

يعود نقاد الاجتماع المحدثون الى عقيدة الخطيئة وزلة آدم في الفردوس وهبوطه مغضوبا عليه الى الارض فيحاولون تفسيرها بأحوال الطبقات واختلاف هذه الاحوال بين عصر النبلاء وعصر أبناء الطبقة الوسطى ، ومن هؤلاء النقاد جون فلكسنر Flexner الامريكي الذى يقول في فصل كتبه عن الملك والفنـان : « إن عقيدة القرون الوسطى أن الانسان سيىء بطبيعته من أثر الخطيئة المتأصلة فيه قد وافقت الميول الارستقراطية لانها سوغت كبح الفرد والحد من حريته . بيد أن الطبقة الوسطى الناهضة باجتهادها لتستقل الفرص السانحة لها أصرت على براءة الانسان وانه قد ولد ملكا وأفسدته النظم التى فرضها عليه الملوك » .

وليس في المقارنة بين العقائد والاحوال الاجتماعية مايرجح هذا

(١) كتاب « الكبرياء العنصرى » تأليف دكجوال .
Racial Pride by Dixgwall

التفسير أقل ترجيح ، لأن عقيدة سقوط آدم تشمل الانسان الحاكم وتشمل الانسان المحكوم ، وقد اقترنت بها عقيدة ملازمة لها أشد قسوة على الحاكمين من كل عقيدة شاعت فى العصور الحديثة ، وتلك هى عقيدة السيادة الشيطانية على الارض وأن سادة هذا العالم شياطين أو حلفاء للشياطين

ولم تقرر المسيحية دعوة كما قررت هذه الدعوة التى تفرق بها كل التفرقة بين مملكة العالم وملكوت السماء أو ملكوت الله ، وتكاد المسيحية كلها أن تكون مجموعة فى هذه الدعوة قبل غيرها من دعواتها الأصيلة ، فقد كان حتما لزاما أن تجتهد المسيحية اجتهادها كله فى التفرقة الكاملة بين مملكة الارض وملكوت الله الذى بشر به السيد المسيح : كان ذلك حتما لزاما لانها نقلت رسالة المسيح المخلص من اقامة العروش على الارض — أو تجديد ملك داود — الى اقامة الملكوت الالهى فى السماء ، وكان ذلك حتما لزاما لانها جاءت بالعزاء للمحرومين من سيادة الأرض والمبتلين بطغيان سادتها ، فهم فى حمى الله صاحب الملكوت الأعلى اذ يكون أصحاب السيادة والطغيان فى حمى الشيطان وفى هاوية الارض وما وراء من هاوية الجحيم : « طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السماوات ، طوبى للحزانى لانهم يتعزون ، طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض ، طوبى للجياع والعطاش الى البر لانهم يشبعون ، طوبى للرحماء لانهم يرحمون ، طوبى للانقياء القلب لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السماوات ... »

فرسالة المسيحية فى جانب الانسان المغلوب ، وسيادة العالم هى ثمرة الخطيئة التى باء بها الغالبون ، ولم يتسم الشيطان بوسم السيادة على العالم تعظيما له بل تهوينا من شأن العالم وتحقيرا

لغنائمه ومطامعه وشهواته ، ولم يكن أيسر على طالب الحرية الفردية فى الحضارة الحديثة من أن يقول انه هدم سيادة الشيطان وانه غلب الخطيئة فى معقلها وكفر عن جرائرها بالثورة على أصحاب السيادة الشيطانية .

وعلى هذا الفهم ينبغى أن تفهم رسالة المسيحية التى بشرت بملكوت الله وجعلت هذه البشارة مقارنة للنعى على السيادة الشيطانية والازراء بها ، فكل تعظيم لسيادة الشيطان فهو فى لبابه تهوين للعالم الذى يسوده وتقديس للملكوت الالهى الذى يرجوه المساكين والحزانى والودعاء والمطرودون من أجل البر وصانعو السلام .

أما رسالة المسيحية فى تقرير طبيعة الشيطان نفسه فهى تفرقة أخرى لاتقل فى قوة مغزاها عن تلك التفرقة بين مملكة هذا العالم ومملكة السماء .

لقد كان الضرر والشر مترادفين فى الديانة العبرية أو كالمترادفين ، فالمسيحية هى التى فرقت بين الضرر الذى هو نقيض السلامة والامان والمنفعة ، وبين الشر الذى هو نقيض الخير والفضيلة والصلاح ، فذلك ضرر مرتبط بالانانية ، وهذا شر مرتبط بالمروءة والتقوى .

ان المسيحية هى التى فرقت بين مثال الضرر فى الحية الحيوانية ومثال الشر فى الروح الخبيث الذى ينفث سمومه فى القلب ولا يضير الانسان الا حيث يضار حقا فى أشرف خصال الانسان

***

وكلمة عابرة تقال فى ذيل هذا الفصل عن رسالة المسيحية التى جاءت بها للتعريف بمعانى الشيطان

ان الكنيسة الرومانية اذا رفعت أحدا الى منزلة القديسين لم

تفعل ذلك قبل التحقق من براءته من العيوب التي تنتفى معهـا القداسة ، وتعهد في هذه الحالة الى وكيل للخصومة عليم بكل مايقال عنه لانتقاصه بالحق أو بالباطل

ووكيل الخصومة هذا يسمى بالمحامى الشيطانى Advocatus Diaboli تشبيها لعمله بعمل الشيطان فى انكار فضائل ايوب أمام الله ، وآية جديدة على عمل الشيطان فى امتحان الخير ، وانه دور لازم فى تقرير كل قداسة ، يخلقه الناس مختارين ولا يصح من أجل هذا أن يقال انه وهم من اختراع الخيال .



الأديان الكتابية

(ج) الاسلام

دور الشيطان فى الديانات الكتابية الثلاث مختلف

واختلافه بينها جوهرى يدخل فى كيان كل ديانة منها ، وترتبط به مقاييسها للخير والشر والتبعة والعقاب

فهو فى الديانة العبرية دور عامل مستغنى عنه ، لأنه شبيه بغيره

وهو فى الديانة المسيحية دور عامل فعال لاينفصل من حكمة الوجود كله

وهو فى الديانة الاسلامية دور عامل فضولى مرذول ، يختلس ويروغ ويخذل فريسته بالنية الخفية والعمل المكشوف .

على مسرح الخلق دور الشيطان فى الديانة العبرية دور «النكرة» الذى ينوب عنه كل نكرة مثله ، اذ ليس بين الشيطان والملك طريق مفترق ولا عمل منقسم ، وليس بين الاله الذى يعبدونه والاله الذى يعبده سواهم خلاف فى الرضى والغضب ولا فى النعمة والنقمة غير الخلاف بين النظراء فى السلطان

أما فى المسيحية فدوره على مسرح الخليقة دور الشرير فى قصة

الخلق كله ، اذ كان قوام الخليقة سجالا بين الخطيئة والكفارة أو الغفران ، فلولا غواية الشيطان لم يسقط آدم ، ولولا سقوط آدم لم تكن به ولا بذريته حاجة الى الخلاص من طريق الفداء.

وليس في الاسلام ذنب يرثه أحد من أبيه أو يورثه لبيه ، فغواية الشيطان لاتخلق الخطيئة ولا تعفى منها ، وشوكة الشيطان لاتحمي أحدا ولا هو يسخرها لحماية أحد ، وحدود التبعات واضحة حيث يعمل الشيطان وحيث لايعمل ، فهو لايحمل عن شريك من شركائه تبعة وزر من أوزاره ، ولا يداري حماقة الغافل الذي ينقاد اليه

وفي القرآن الكريم يحمل آدم وحواء تبعة الخطيئة على علمهما بغواية الشيطان« **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** »

وكلما ذكرت في القرآن الكريم غواية ابليس ذكر معها انه ماكان له عليهم من سلطان ... « **ان عبادي ليس لك عليهم سلطان** »

وكذلك تقول الشياطين لمن يرجع اليها بذنبه « **وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين** » .. « **ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين** »

ولا ينفع من ضل ان يعتذر من ضلالته بوسواس الشيطان ، فان الشيطان ينكره ويبرأ منه « **كمثل الشيطان اذ قال للانسان أكفر فلما كفر قال اني بريء منك اني أخاف الله رب العالمين** » .. « **وقال الشيطان لما قضي الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم** »

وليس شياطين الجن بأقدر على الغواية من شياطين الانس ، فان الشيطنة هى عداوة الحق حيث كانت : **«وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخـرف القول غرورا »**

بل ليس للشياطين من الجن علم الغيب ولا علم السحر الا أنه خداع للحس وفتنة للنفس تخيل الى المخدوع ماليست له حقيقة قائمة فى غير وهمه : **« .. يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفـرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ، ويتعلمـون ما يضرهم ولاينفعهم ولقد علموا لمن اشـتراه ما له فى الآخرة من خلاق »**

وفى سورة سبأ عن جنود الجن التى جهلت موت سليمان وهو قائم أمامهم **« فلمـا خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين »**

وانما المسحور كالمخمور مخدوع الحواس **«انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »**

« يخيل اليه من سحرهم انها تسعى »

« ولا يفلح الساحرون »

***

وقد ورد فى القرآن ذكر الجن الذين يعملون للانسان باذن الله ومنهم جنود سليمان **« ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات»**

وفيه ذكر الجن التى تؤمن بالدين وتصدق بالكتب ، وذكر

الجن التى تسترق السمع من السماء ، وذكر الجن التى تقارر الانس ، وذكرت الجن والعفريت الذى تطوى له المسافة وتنقاد له المصاعب ، ولكنه لم يذكر لها فى مجال التكليف عملا قط يسقط عن الانسان تبعته أو يجعل لها سلطانا عليه بغير مشيئته ، ولا يستعاذ فيه من شر يأتى به الجن الا وهو كذلك من الشرور البشرية ، أو من الوسواس الخناس **«الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس»**

وعلى هذه الصفة تروى تبعات الخطيئة حيث رويت فى قصة آدم ومابعدها من قصص الاولين

وقد رويت قصة آدم فى مواضع متفرقة من القرآن الكريم ، ورويت توبته من عمله أو قوله فى بعض هذه المواضع ، وهى جميعا مآل التكليف الذى يفرض على الانسان : يسأل عن خطيئته وان وسوس له الشيطان ، وتحسب له توبته وان كانت بهداية الله

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة . قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال انى أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم . قال ياآدم انبئهم باسمائهم فلما انبأهم باسمائهم قال الم اقل لكم انى اعلم غيب السماوات والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فازلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم

لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فاما ياتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

***

وجاءت فى سورة الحجر حيث يفاضل ابليس بين خلقته وخلقة آدم : **« والجان خلقناه من قبل من نار السموم ، واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، الا ابليس ابى أن يكون مع الساجدين ، قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين ، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ، قال فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين ، قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم ، قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الارض ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط على مستقيم ، ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين »**

***

وقد تساءل المعقبون على قصة آدم من الشراح الغربيين عن معنى الشجرة التى أكل منها آدم فى الدين الاسلامى ، وقال بعضهم ان القرآن تركنا فى حيرة من أمر هذه الشجرة ، ما معناها وماذا جناه آدم وحواء من جراء الاقتراب منها وأكل ثمراتها ، وليس فى الامر مايدعو الى التساؤل ولا الى الحيرة ، لولا أن هؤلاء الشراح وضعوا فى أذهانهم معنى معلوما وأرادوا أن يجدوه فى القرآن فلم يجدوه كما أرادوه . اذ لايخفى على الناظر فى القصة ان ثمرات هذه الشجرة هى ثمرات « التكليف » بجميع لوازمه

ونتائجه ، وماكان الفارق بين آدم قبل الاكل منها وبعد الاكل منها الا الفارق بين الحياة فى دعة وبراءة والحياة « المكلفة » التى لا تخلو من المشقة والشقاق والامتحان بالفتنة ومعالجة النقائص والعيوب ، وكلما تكررت القصة فى الآيات القرآنية كان فى تكرارها تثبيت لهذا المعنى على وجه من وجوهه المتعددة ، ويبدو ذلك جليا من المقابلة بين ماتقدم وماجاء عن هذه القصة فى سورة الاعراف ، وذاك حيث يذكر التصوير بعد الخلق ، أو اعطاء الصورة بعد اعطاء الوجود ، ثم تمضى القصة على مايلى :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين ، قال انظرنى الى يوم يبعثون ، قال انك من المنظرين ، قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين . قال فيها تحيون

وفيها تموتون ومنها تخرجون . يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما . انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون »

ومن تمام التوكيد لحدود التكليف فى هذه القصة أن خطاب آدم به لا يغنى عن خطاب بنيه وأعقابه ، فهو مكلف وهم مكلفون ، وخطيئته لاتلزمهم وتوبته لاتغنى عنهم ، ومولدهم منه يخرجهم على الأحياء المولودين حيث يحيون وحيث يكدحون وحيث يموتون

ويميل الشراح الغربيون الى النقد كلما وجدوا له ندحة فى قصص القرآن ولا سيما هذه القصة ، وآخر من وقفنا على نقد له من هذا القبيل « بابينى » الايطالى صاحب كتاب الشيطان ، فانه يستغرب أن يؤمر ابليس بالسجود لآدم مع غلو القرآن فى تحريم الشرك وتنزيه الوحدانية الالهية ، ولكن المطلعين من الشراح الغربيين على اللغة العربية يفهمون معنى السجود هنا ولا يخرجون به عن معنى التحية والاكبار ، ومنهم من يفعل ذلك لانه يريد أن يرجع بعقائد الاسلام الى الاصول الاسرائيلية كما فعل تورى Torrey فى كتابه عن أسس الاسلام من التراث اليهودى ، ولم يكن فى التراث اليهودى ذكر لغير الحية فى هذا المقام ، وهو فارق شاسع تقوم عليه الفوارق الشاسعة جميعا فى التفرقة بين الضرر والشر أو بين الشر الحيوانى والشر الاخلاقى كما قدمناه

***

وقليل من النقاد الدينيين فى الغرب من يفطن للخاصة الاسلامية الاخرى التى تتمثل فى قصة آدم مع الملائكة والجان ، فان الغالب عليهم أن يتكلموا عن زلة آدم فيسموها « سقوطا » ويرتبوا عليها

مايترتب على السقوط الملازم لطبيعة التكوين ، وليس فى القرآن أثر قط للسقوط بهذا المعنى فى حق كائن من الكائنات العلوية أو الارضية ، فليس فيه شيء عن سقوط الانسان وانما هو انتقال من حال الى حال ، أومن عهد البراءةوالدعة الى عهدالتكليفوالكلفة، وليس فيه شيءعنسقوط الملائكةوانحدارهم منطبيعةعلياالىطبيعة دونها من طبائع الشيطان ، وقصة الملكين هاروت وماروت فاصل بين مايعزى الى الملك ويعزى الى الشيطان من ضروب السحرالمباح أو السحر الحرام : « **واتبعوا ماتتلو الشياطين علىملكسليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر ..** »

فالملك الذى يعرف السحر لايخدع به أحدا ولا يعلممن يريد أن يتعلم الا أن يطلعه على حقيقته ، وليس الخداع ولا الاضرار بالعلم من طبيعة الملك بل من طبيعة الشيطان .

***

هذه القصة بعينها ـ قصة هاروت وماروت ـ يطول فيها الجدل بين اللاهوتيين الباحثين عن أصولها ، لان شراح التلمود من اليهود يعتسفون الاقوال والشواهد لردها الى المصادر الاسرائيلية ،وكثير من الشراح اليهود أنفسهم وغير اليهود ينفون العلاقة بينهما وبين تلك المصادر ، فمن الذين ردوها الى المصادر الاسرائيلية من يرى أن الملكين هما اريوخ وماريوخ الموكلان بحراسة كتاب ادريس، ويستند صاحب كتاب أساطير اليهود الى مراجع كثيرة لتصحيحهذا الخطأ وترجيح مصدرها الفارسى (١) ... ويزعم جيجر Geiger انهما الملكان شمهازى وعزائيل اللذان هبطاالىالارض فى عهد نوح فتزوجا من بنات الناس ووجدا انهما « حسنات» كما

---

(١) ص ١٦٠ من الجزء الخامس منمجموعة جنزبرج Ginyberg

جاء في سفر التكوين ، ويعتمد جورج سيل مترجم القرآن على تحقيقات هايد Hyde في تصحيح هذا الخطأ والرجوع بها الى أصل بابلي كما جاء في القصة القرآنية ، وكاد الخلاف على هـذه القصة أن يعدل الخلاف على قصة آدم وتعليمه الاسماء ومخالفته أمر ربه بغواية الشيطان ، وهي القصة التي يحسبها بعضهم من الاخبار التلمودية ، ويقول ابشتين وجرنوبم أن التلمود اقتبسها مباشرة من المراجع الاسلامية وبطريق غير مباشر من المراجع المسيحية (١)

غير أن هذه المناقشات جميعا يعتورها النقص الشامل لتحقيقات النصوصيين والحرفيين أجمعين ، وهو الوقوف عند النص أو عند الحرف واغفال الجوهر الذى من أجله استحقت القصة ان تكون موضع اهتمام ومناقشة في مباحث المقارنة بين العقائد والديانات ، فليست المسألة في هذه القصص مسألة أسماء ومواقع ولكنها مسألة القيم الروحية التي ترتبط بها وتتغير مع الزمن حسب تفسيراتهـا ولو بقيت بنصها وحرفها في الروايات المتعاقبة

وجوهر المسـألة كله في القصة التي نحن بصـددها ان القرآن الكريم لم يذكر قط شيئا عن سقوط الخليقة من رتبة الى رتبة دونها ، ولم يذكر قط شيئا عن سقوط الخطيئة الدائمة أو سقوط الخطيئة التي يدان فيها الانسان بغير عمله ، اذ العقيدتان - كلتاهما - غريبتان عن روح الدين الاسلامي كل الغرابة ، ولا يعرف الاسلام ارادة معـاندة في الكون لارادة الله يكون من أثرها أن تنـازعه الارواح وتشاركه في المشيئة وتضع في الكون أصلا من أصول الشر وتسقط الخـلائق التي ارتفعت سوية بمشيئة الخـالق . فقد جاء الاسلام بهذه الخطوة العظمى في اطوار الاديان فقرر في مسـألة الخير والشر والحساب والثواب أصح العقائد التي يدين بها ضمير

(١) ص ٨٤ من الجزء المتقدم

الانسان ، وقوام ذلك عقيدتان : أولاهما وحدة الارادة الالهية في الكون ، والثانية ملازمة التبعة لعمل العامل دون واسطة أخرى بين العامل وبين ضميره وربه

فليست الخطيئة في الاسلام أصلا كونيا يعاند الارادة الالهية بارادة مثلها أو مقاسمة لها في أقطار الوجود العليا والسفلى،ولكنها اختلاس وخلل وتقصير ، وله علاجه من عمل العامل نفسه بالتوبة والهداية أو بالتكفير والجزاء، ولما كانت فضيلة آدم على الملائكة والجن انه تعلم الاسماء التي لم يتعلموها ، كانت هدايته الى التوبة كذلك بكلمات من المعرفة الالهية ولم تكن بشيء غير عمله وقوله

فاذا فهمت العقيدة الاسلامية على هذا الوجه فهذه هي القيمة الروحية التي تجرى المقارنة والموازنة عليها كائنا ماكان القول في تشابه الاسماء والقصص وتوافق المراجع والأسانيد ، وما من دين قط خلا من الاسماء والقصص التي سبقته اليها الاديان المتقدمة عليه في تاريخ دعوتها ، وليس أكثر من الاسماء البابلية والفارسية في كتب العهد القديم وكتب التلمود ، وليس أكثر من هذه جميعا في المراجع المسيحية ، وانما العبرة بالقيمة الروحية التي تناط بها في مسألة واحدة قبل كل مسألة يتناولها الايمان ، وتلك هي مسألة الخير والشر والتبعة والجزاء ، ولا خلاف ــ مع فهم هذه المسألة ــ على فضل الاسلام في هذه السبيل

***

ان الاديان الكتابية لم تتعاقب عبثا ولم تأت المقدمات فيها بغير نتائجها

فالعبريون تلقوا ديانتهم وهم على حالهم من الوثنية فلبثوا زمنا يخلطون بين فواصل الخير والشر وفواصل المنفعة والضرر ،ولبثوا زمنا أطول من ذلك يخلطون بين الوحدانية في الوجود كله وبين

الوحدانية التى تميزهم باله لايقبل المشاركة من الارباب الاخرى ، كأنهم شركاء المنافسة والمناظرة بغير حق وبغير قدرة

ثم جاءت المسيحيــة ففصلت بين الخـير والشر بفاصــل كبير ، وحققت معنى الخـــير الروحانى الذى ينفصل من معنى المنفعـــة والسلامة ، وباعدت بين العالمين وتركتهما من بعدها كانهما دولتان تتقابلان، هذه فى السماوات وهذه فى الارضين ، وتكاد الارضـــية منهما تبسط يدها الى حوزة الاخرى وتأخذ منها الى حوزتها معقلا يسترد ويستعاد ، ولا يملك الانسان فيه حيلة أمام الاله وامام الشيطان، وانما يجىء الذنب بعمل الشيطان ويزول الذنب بعمل الاله

ثم جاء الاسلام فبسط على الوجود كله وحدة لا مثنوية فيها على وجه من الوجوه ، ومنح الارادة الانسانية حقها وتبعتها فجعلهـا ظالمة لنفسها اذا سمحت للشيطان أن يظلمها، فانما هو خداع وضعف، وانما هما طريقان بينان لايخدع عنهما سوى المأخوذ أو المسحور، الا أن يؤثر الضـــلالة على الهدى ويصر على ضلالتــه بين دواعى التوبة والندم

فهــذه الديانات لم تتعاقب عبثــا ولم يكن لها فى أطوارها سبيل أقوم من هذا السبيل ، ولو نظرنا اليها فرضا وتقديرا ولم تنظر الى وقائع التاريخ

***

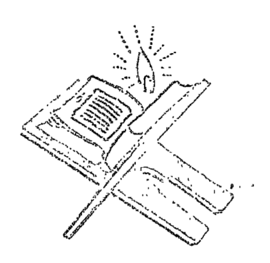
وكل ماتقدم انما يتبين لنا من العقائد الاسلامية كما تلقاها من القرآن الكريم ، وقد أحسن فهمه مفسرون وأساء فهمه مفسرون، ولعله لاينصف العقائد الاسلامية شىء كما ينصفها فى هذا المقام ان نرجع الى المسيئين فنراهم جميعــا قد أســاءوا فهم كتابهم لأنهم فسروه بالاسرائيليات والتلموديات وحسبوها سندا محققا عند أصحابها

الأولين ، وما كانت عندهم غير أحاديث يتلقفونها ممن تقدمهم لأنهم لم يفهموا كتبهم فالتمسوا فهمها بمعونة من تلك الاحاديث

***

وليس من عملنا هنا أن نستقصى أقوال المفسرين فى شئون الغيب ، ولكننا نلخصها اجمالا فيما نحن بصدده من طبيعة الشيطان وطبائع الخلائق العلوية كالملائكة والارواح . فأضعف الاقوال ان الملائكة والجن ، تشملهم كلمة الاجتنان لمعناها اللغوى الذى يفيد معنى الخفاء ، وأرجحها القول الذى أخذ به الفيلسوف الرازى فى تفسيره حيث يقول : « لما ثبت أن ابليس كان من الجن وجب ألا يكون من الملائكة لقوله تعالى : ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون : قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن ، وهذه الآية صريحة فى الفرق بين الجن والملائكة .. »

ولا حاجة بنا الى اسهاب أو ايجاز فى نقل احاديثهم عن الجن وأسمائها وأجسامها ومن يأكل منها وما يأكله أو لا يأكله ، فهو على لغوه وخطله ليس له مساس بما نعنيه فى هذا السياق



عباد الشيطان

تخلفت ـ بعد الاديان الكتابية ـ نحلة تتسم بالشذوذ المطلق في جميع اطوارها . لانها شاذة فى موضوعها ، وشاذة فى انتسابها الى أصولها ، وشاذة فى تلفيق مقوماتها وأركانها ، وشاذة فى وسائل نشرها والدعوة اليها

موضوعها شاذ وهو عبادة الشيطان

وانتسابها الى أصولها شاذ لانها تأخذ من الهندية والمجوسية والشامانية واليونانية وأديان الحضارة الاولى والاديان الكتابية

وجميع مقوماتها وأركانها شذوذ فى شذوذ ،لأنها تجمع النقائض فى شعائرها وتعمل أحيانا على مرضاة الشيطان ومرضاة الاله الاعلى بفريضة واحدة

ووسائل الدعوة اليها شاذة لانها سرية يبالغون فى كتمانها مع امتداد معابدها من آسيا الوسطى الى أوربة الغربية وأفريقية الشمالية ، ويعجب الناظرون فى أمرها من الذى يتولى نشرها وما بواعثه النفسية أو القومية التى تحضه على نشرها، وهى مع الاديان الاخرى بين موافقة تأباها تلك الاديان ومناقضة تثيرها عليها

***

ومن العسير أن توضع هـــذه النحلة فى نسق منتظم مع تطور العقائد فى مجموعة الأمم الانسانية ، ولكننا نحاول وضعها فى مدرجة من هذه الاطوار جهد المستطاع ، مع ملاحظة الاصول الجغرافية والعنصرية

فمن الراجح المعقول أن عبادة الشيطان تنتمى قديما الى الشعور بقوة الشر فى البيئة التى نشأت فيها وأحاطت بها

ومن الراجح المعقول أيضا أن الشعور بقوة الشر قد كان على أشده حيث آمن الناس بقسمة العالم بين النور والظلمة وبين الطيبة والخباثة ، وجعلوا لاله الشر حصة فى الكون مساوية لحصة اله الخير أو قريبة منهـــا ، وتلك هى الثنوية « الزردشتية » منذ أقدم أطوارها

وينبغى أن نذكر أن الثنوية كانت تفرض لاله الشر فى بعض الازمنة سلطانا أكبر من سلطان اله الخير فى العوالم الارضية ، وتسوغ هذا الفرض الغريب بأن سلطان الشر سلطان موقوت يندثر بعد حين ، فالنور والخـــير منفردان بالسماوات العليا ، والظلمة والشر غالبان على الارضين السـفلى الى الموعد المعلوم ، ثم يتقهقر هذا السلطان فى العالم الانسانى ليخلفه سلطان الخير أبد الآبدين

قامت هذه العقيدة قديما فى أرض فارس على تخوم السهوب الاسيوية ، حيث لاتعرف العشائر المترحلة غير شياطين الصحارى أو أرواحها المتمردة ، ولا تزال فى كل رحلة من رحلاتها عرضة لعصف الثلوج والحرور وفتك الســباع والافاعى ونكبات القحط والطوفان ، ولا تأمن فى طريقها مالم تكن على هوى الشيطان

ولم يكن هوى تلك العشائر فى حياتها الاولى مخالفا كل المخالفة لهوى الشيطان فى عنفه وعسفه أو فى كيده أو ختله أو فى اندفاعه

مع شـــهواته وأطماعه ، فكانت تنساق لاهـوائها حين تزعم أنهـا تنساق لاهواء الشيطان

فى تلك الارجاء تأصلت العبـــادة الثنوية وتأصلت معها العبادة الشامانية وهى عبادة الارواح والشياطين

ففى بلاد العمار ـ أو بلاد الحضارة الفارسية ـ تهيأت الادهان للعقائد الكونية الواســـعة فتأصلت الثنوية وعلمت الناس أن الشر غالب على الارض ولكنه مغلوب بعد حين ، وأن « اهريمان » رأس الارواح الخبيثة نافذ السلطان فى عالم الانسان

وفى السهوب المقفرة تأصلت الشامانية وشـعائرها التى لاتفصل بين الكهانة والسحر بفاصل محدود ، فقـد يكون الروح الواحـد طيبا هادئا اذا رضى واستراح الى مقامه واستوفى مطالبه من فرائسه وضحاياه ، وقد يكون خبيثا عارما يتخبط فريسته فلا تجدى عنده شفاعة الكاهن الساحر أو يثوب الى السكينة بمحض هواه

***

لما ظهرت المسيحية كانت الثنوية والشامانية على أقوى ما كانتـا عليه قبل الميلاد

ونشطت مع المســـيحية فى مجال واحد عقيدة ثنوية حملها جنود الرومان من تخوم الهند الى الجزر البريطانية ، وهى عقيدة « مترا » بطل النور الذى استشهد فى حربه لاله الظلام ، ووعد عباده بالعودة اليهم بعد حين مظفرا متمكنا من الارض والسماء مادامت الأرض والسماء

وانهزمت عقيدة « مترا » أمام المسيحية

ولكن هزيمة العقيدة المترية لم تقتلع الثنوية من جـذورها ، ولم تكن أحوال العالم فى القرون الاولى بعد الميـــلاد مما ينسى الناس

وطأة الشر وسلطان الشيطان ، ولم تكن المسيحية فى دعوتها تنفى غلبة الشيطان على العالم وانقياد السادة المنسيطرين على الأمم لوساوسه ورذائله ، فتجمت من بلاد الثنوية نحلة أخرى تسمى المانوية منسوبة الى « مانى » الذى ولد فى بابل الجنوبية حوالى سنة (٢١٦ للميلاد) واستهل دعوته فى ابان قيام الدولة الساسانية فكان له من ملكها الثانى «سابور الاول» نصير قوى أيام حكمه، على أمل منه فى توحيد النحل المجوسية على قواعد الدين الجديد، ولكنه أمل لم يتحقق ولم يستطع مانى أن يصمد لأقطاب النحل الاخرى بعد حكم سابور، فألقى فى السجن حيث مات وهو يناهز الستين،ووسم أتباعه باسم الزنادقة أى الكذبة المنافقين ، وقيل عنهم أنهم «اهرمانيون شيطانيون »

الا أن « مانى » كان من المجددين فى عقائد قومه وفى ثقافتهم وفى كتابتهم الابجدية ، ومن مساعيه فى تجديد الثقافة تيسير الكتابة بالحروف الآرامية وتنقيح أوزان الشعر والاناشيد المقدسة وتقريب مذاهب المعرفيين Gnostics الى مذاهب المجوسية والمسيحية وتحقيق الخلاص الروحانى من طريق الحكمة والتعمق فى أسرار العلوم

ولم يخرج مانى من نطاق الثنوية فى آفاقه الواسعة ، فمعظم مذهبه ثنوية « زردشتية » أو مجوسية ، وقليل منه مقتبس من آراء المعرفيين وعقائد المسيحية فى الصدر الأول قبل أن يتوسع فيها الآباء المتأخرون .

فالوجود من أزل الآزال وجودان منفصلان : عالم النور وعالم الظلام ، ولا فاصل بينهما يمنع أحدهما أن يبغى على الآخر اذا شاء ، ولكن عالم النور لايعرف البغى بل يعرفه رب الظلام حسدا لرب النور ، فيزحف بجنوده كرة بعد كرة ويأبى رب النور أن



يقابل العداء بالعداء لأنه بطبيعته محبة وسلام وحسبه أن يتخلى حيث شاء فيحفل منه الظلام

ولما تكررت هجمات رب الظلام على العالم النورانى يحاول أن يكمن فيه وينتزع منه مااستطاع ، خلق رب النور آدم السماوى وأرسله الى الارض بمزيج من طبيعة الملك العلوى والحيوان الارضى ليلقى جنود الظلام فى ميدان القتال، وكان آدم هذا ـ أوجايومارث كما يسميه المجوس ـ طيبا سليم القلب يحارب شريرا مزودا بسلاح الخدعة والدهاء ، فانهزم ووقع فى أسر الظلام ولم يجد رب النور بدا من الهبوط بنفسه الى الميدان لانقاذ مخلوقه الاثير لديه من عياهب العالم السفلى ، فأنقذه ورفعه الى الشمس حيث يقيم بعيدا من الارض وعالمها المهدد بغزوات الشياطين

الا أن الاله السفلى عرف من تركيب جايومارث سر الآدمية العليا فصنع على يديه « آدم » آخر يمتزج فيه الخير والشر والروح والجسد ، وظل آدم حائرا بين طبيعتيه حتى أشفق الاله السماوى عليه فأرسل اليه المسيح ليدله على أشرف طبيعتيه ويعلمه الغلبة على أخس هاتين الطبيعتين ، فجعل آدم ينادى منذ ذلك الحين : « ويل لمن خلق جسدى واستعبد روحى » وخذلته حواء فهبط بها الملائكة الى الجحيم ومعها ذريتها من أبناء الشياطين ، ولم يكن للملائكة منذ تلك اللحظة من رسالة تحت السماء الا أن يستخلصوا العوالم النورانية من شوائب الظلمات ، ثم ينفصل العالمان ويقضى على العالم السفلى بالدمار .

سرى هذا المذهب المانوى شرقا الى الصين والهند وغربا الى افريقية الشمالية وآسيا الصغرى ، وسرت معه عقيدة خلق الشيطان للبشرية وسيادته على العالم الارضى وبقائه متسلطا عليه الى اليوم الأخير

ووافق ذلك السريان النحلة الشامانية بين أواسط آسيا وأوربة الشرقية ، فدخلتها المسيحية وعشائرها مؤمنة بالسحرة والشياطين تقسامع بأن اله المسيحيين ترك الارض للشيطان الاكبر فلا حيلة لها معه غير أن ترضاه وتزدلف اليه ، وقد بقيت المسيحية الصحيحة مجهولة فى تلك الاقطار الى مابعد القرن الثانى عشر ، وبقيت نحلة « البوجوميل » — أى النحلة الشيطانية — غالبة على عشائر البلغار والعشائر البلقانية عدة قرون

ومع المانوية والشامانية نحلة أخرى — أو نحل شتى على الاصح — تعرف باسم النحل الاورفية Orphism وتشترك فى المراسم الخفية التى تعاقر فيها الخمر وتستباح الشهوات ، ويعلو فيها اسم ديونيسس Dionysus الذى يعتقد اليونان أنه ابن زيوس رب الأرباب من بيرسفون وأنها حملت به منه وهو متنكر فى صورة الحية ، فقتله المردة واستخلصت الربة « أثينا » قلبه فهو القلب المقدس الذى كان أصحاب النحل الاورفية يحتفلون به ويتخذونه رمزا للاهواء والآلام

ويعتقد الاورفيون أن الاله أورفيوس يهدى صحابته فى ظلمات العالم الاسفل بعد الموت ، ويحفظون لرحلته هذه مراسم منقولة من كتاب الموتى المعروف فى الديانة المصرية القديمة

وظاهر من صور الشيطان التى شاعت بين الاوربيين المشارقة فى صدر المسيحية أن عباده يقرنون بينه وبين ديونيسس صاحب التجلى الاعظم فى حفلات الخمر والمجون ، وكانوا يتقربون لديونيسس بجدى يربونه لهذا الغرض ويصورونه — أى ديونيسس — فى صورة « الساتير » الذى يتزيا بجلد المعز ويلبس قرونها على جبهته ويجر وراءه ذنبا طويلا كأذنابها ويمشى بقدمين لهما ظلفان شقوقان ، وكذلك كانت صورة الشيطان فى محافل عباده الأولين

ومع المانوية والشامانية والاورفية ينتشر المرفيون من بلاد فارس الى عاصمة الدولة الرومانية ، ومنهم من يؤمن بالخلاص الى النور من طريق الظلام ، والخلاص الى الطهارة من طريق الرجس ، والخلاص الى الله من طريق الشيطان ، والخلاص الى المعرفة من طريق الجهالة بمعانيها جميعا فيما اشتملت عليه من جهالة العقل وجهالة الطباع

هذه فلول العقائد التى تجمعت منها نحلة الشيطان وطال بها الزمن قبل شيوع المسيحية فى دور النزاع بين بقايا الأديان الوثنية وطلائع الدين الجديد ، ويؤخذ من ألقاب الشيطان فى بعض اللغات الاوربية الشرقية أن المظالم الاجتماعية كانت بعض أسباب الكفر بالاله السماوى والاقبال على عبادة الشيطان المتمرد الذى يناوئه ويعلن الثورة عليه ، فقد كانوا يسمون هذا الشيطان « نصير العبيد » وكانوا يحسبون أنه ضحية القضاء الكونى الذى هم ضحاياه

***

ولم يكتب عباد الشيطان أسرار عبادتهم ، لانهم كانوا يكتمونها حذرا من خصومهم ويكتمونها مجاراة لطبيعة العبادة « الشيطانية » التى لاغنى لها عن الظلمة والخفاء ، وما رواه عنهم خصومهم لاتتفق فيه روايتان على جميع التفصيلات ، ولا نخال أن عبادات الشيطان كانت متفقة بينها فى أماكنها المتباعدة بين آسيا الوسطى وأوربة الغربية ، فان العبادات الصريحة المكشوفة تختلف وتتنازع حين تنتشر على هذه المسافات الشاسعة من الاقاليم والسلالات واللغات والاحوال الاجتماعية والنفسية ، فلا جرم تختلف العبادات السرية اذا باعدت بينها مسافات كهذه المسافات

الا أن المشهور من نحل العبادة الشيطانية ثلاث ، هن الكاثارية والبوجمولية والألبية ، ويرجح المؤرخون أنها أسماء مفترقة لنزعة واحدة تختلف فى التسمية حسب علاقاتها المحلية ، مع

وحدتها فى مصادرها والتقاء مصادرها جميعا فى الرقعة الوسطى بين القارتين الاسيوية والاوربية

غلبت الكاثارية على العشائر الالمانية ، واسمها مستعار من كلمة Cathar بمعنى الطهارة فى اللغة اللاتينية المتوسطة ، وكانت فى أصلها نحلة زهد ورهبانية ثم انحرفت قليلا قليلا الى خليط من الوثنية وبقايا الديانات المتخلفة من الحضارات الاولى

وغلبت البوجمولية على بلاد البلقان ، واسمها مأخوذ من السلافية بمعنى أحباب الله ، أو مأخوذ من اسم داع مشهور من دعاتها حولها من العبادة الصريحة الى عبادة الخفاء Bogomil

وغلبت الالبية Albigenses على فرنسا الجنوبية ونسبت الى « ألبى » Albi التى كان مركزها الأشهر فى غرب القارة وجنوبها

ولم تتفق هذه النحل فى شعائرها وعقائدها كما أسلفنا ، ولكنها تتفق فى قاعدة مشتركة بينها وهى قاعدة الديانة المانوية ، فكلها مانوية تضاف اليها حواشى الوثنية المحلية والمقتبسات المشوهة من العقائد المسيحية ، ولا تخلو عباداتها جميعا من اباحة بعض المحرمات وتحريم بعض المباحات التى تخالف بها جميع الاديان الكتابية ، وان لم يكن بينها وفاق شامل للمحرمات والمباحات

فمنها مايحرم الزواج لان الزواج يستبقى النسل فى عالم الشر والفساد ، ولكنه لايحرم الفسق ولا الشذوذ ، بل يدخلهما أحيانا فى الشعائر المفروضة لانهما يرضيان الشيطان

ومنها مايحرم اللحم والجبن والبيض وكل ماجاء من تناسل بين ذكر وأنثى ، ولكنه يبيح السمك لاعتقادهم أنه لايولد بالتلاقح بين الجنسين

ومنها مايزعم أن آدم طلق حواء وتزوج بالربة البابلية التى تسمى ليليت أو ليلى ، وأن حواء تزوجت بعده بمارد من الجن فجاء النوع الانسانى خليطا من الآدميين والمردة وذرية الارباب الوثنية

ومنها مايقدس المسيح وينكر الصليب ، ولا ينكرونه لتكذيبهم صلب المسيح ، بل لانهم يقولون « أن ما من أحد يعبد المشنقة التى خنقت أباه ! »

واشتهر من عباداتهم عبادة القداس الاسود ، ومحورها صورة الشيطان عاريا وصورة فتاة عارية تتقدم المصلين اليه وتنقل اليهم «البركة» بلمس أعضائه ، وتنتهى الصلاة بضروب من الاباحيات كالتى كانت تقترف فى عبادات أرباب النسل عند الوثنيين

وكل جماعة « سرية » ظهرت فى القرون الوسطى فهى على صلة بطائفة من تلك الطوائف ، ومنها الجماعة التى سميت باسم الهيكليين والحبليين ، وكان هؤلاء يتقلدون حبلا قصيرا ويلبسون قميصا يسمونه الكميسية (Camisia) ويقال أنهم نقلوا الاسم من جزيرة مالطة التى كانت معقلا للهيكليين وكانت الكلمات العربية شائعة فى لغتها منذ القرون الوسطى ، ولا تزال كذلك الى اليوم

والعقيدة الغالبة بين هذه الطوائف ، على تنوع مذاهبها ، هى سيادة سلطان الشر على العالم الارضى خاصة وتنازع الكون بين القوة العليا والقوة السفلى ، وضرورة « التفاهم » مع الشيطان فى أمور هذه الدنيا أو ضرورة هذا التفاهم فى كل أمر من الامور ، لان اله الخير على قوته وحكمته قد نفض يديه من دنيا بنى آدم لاعوجاجهم ودخيلة السوء فى طباعهم باختيارهم لا بدسيسة عليهم من قبل الشيطان

وقد بقيت على هذا المعتقد طائفة كبيرة من الاوربيين الغربيين ، وسيق ثلاثة وستون رجلا وامرأة الى محكمة التفتيش فى طولوز (يونية سنة ١٣٣٥) فقالت احداهن آن مارى جيورجل « ان الله ملك السماء والشيطان ملك الارض ، وهما ندان متساويان سرمديان يتساجلان النصر والهزيمة وينفرد الشيطان بالنصر البين فى العصر الحاضر » (١)

وينقل رودس صاحب كتاب القداس الشيطانى نبذا من تاريخ فرنسا للمؤرخ الكبير ميشليه Michelet يفهم منها أن هذه العبادات قد امتزجت زمنا بالثورة الاجتماعية وانحلال الاخلاق وفتور الايمان بالدين ، فقد كان القداس الاسود صلاة الى الشيطان ينادونه فيها باسم رئيس العبيد ، وتقوم فيها بوظيفة الكهانة فتاة عارية تمعن فى الرقص حتى يأخذها الدوار ، ثم يتصدى من الجمع أحد الرجال المندوبين للعبادة فيتمم الصلاة باتخاذ دور الشيطان واعتبار الفتاة محرابا حيا للمعبود (٢)

***

وعاشت هذه النحل الشيطانية حقبة طويلة ، لاشك أنها كانت أطول مما يتاح لها لو لم يكن لها سند من الحوادث غير مزاياها الخلقية أو الوجدانية ، ولكنها استفادت من تنازع الكنائس وانحلال الدولة الرومانية وغارات الهمج وما اقترنت به من السبى والسلب والاباحة ، واستفادت من مظالم المجتمع وجهالة المؤمنين بالسحر وسلطان الشيطان على المقادير الارضية ، فلما استقرت المسيحية وشاع الخوف والحذر من الجماعات المتسترة لاشتباك الخصومات السياسية واتهام كل فريق من عداه باستخدام تلك الجماعات فى محاربته والدس عليه ، تألبت القوى على جميع تلك النحل وأخذتها

---

(١) القداس الشيطانى تاليف رودس The Satanic Mass by Rhodes

(٢) صفحة ٥٣ من الكتاب المتقدم

الكنيسة والدولة معا بالقمع الشديد والرقابة المتلاحقة ، فلم تبق لها بقية بعد القرن السابع عشر ، الا اذا صحت الاشاعات عن قصة النحلة الشيطانية التي كانت تستتر باسم الماسون فيما رواه الصحفي الفرنسي جوكاند Jogand وأثار حوله حملته التي سماها الشيطان في القرن التاسع عشر ، ولم تقم عليها البينة القاطعة بعد البحث في أسانيدها ودعاواها

***

أما النحلة التي ينسبونها الى الشيطان ولاتزال لها بقية في العصر الحاضر فهي النحلة اليزيدية التي تقيم في شمال العراق وينتمي أبناؤها جميعا الى الكرد ولا يعرف أحد على التحقيق سبب تسميتهم باليزيدية ، ولا يعول على أقوال أحد من علمائهم أو جهلائهم لانهم يحرمون التعليم على عامتهم ويجعلونه وقفا على أسرة منهم تتولى الكهانة وأمانة الاسرار في هذه الديانة ، فمن كان منهم عالما بتلك الاسرار فهو لايبوح بها ومن كان من جهلائهم وعامتهم فهو يتلقى مايسمعه ويؤذن له بعلمه ، وجميعهم مع ذلك يتوارثون التقاليد ولا يفقهون خباياها سواء منهم من أباحوا له العلم أو حرموه عليه

ويرجع بعض الباحثين بالاسم الى يزيد بن معاوية ، ويرجع آخرون به الى مدينة يزد الفارسية ، ويرجع به غيرهم الى اسم يزدان الاله الاقدم في الملة المجوسية ، وغير بعيد أن يكون الاسم منسوبا الى يزيد ، الخليفة الاموي ، لان النزاع بين الكرد والفرس قد فرق بين عصبياتهم في السياسة وفي الدين ، فكان الكرد من غلاة السنيين اذ كان الفرس من غلاة الشيعة ، وربما كانت الطائفة الكردية التي تؤله « يزيد » في صورة الاله الارضي مقابلة للطائفة الفارسية التي عرفت باسم « على الهي » لانها تغلو في حب الامام علي رضي الله عنه الى حد العبادة

تؤمن الطائفة اليزيدية بسبعة آلهة خلقت من نور اله واحد كما

تضاء الشمعة من الشــمعة ، وقد خلق كل منهم فى يوم من أيام الأسبوع ونديه الاله الاكبر لابداع جزء من العالم الاعلى أو العالم الادنى ، وهم يعتقدون أن الله خلقهم من نطفــة آدم غير ممتزجة بجسم حواء ، خلافا لسائر البشر ممن ينتسبون الى آدم وحواء ، ولعلهم أخذوا معتقدهم هذا من المانوية أو من المعرفيين الذين يروون فى أساطيرهم أن آدم طلق حواء فأسلمتها الأرباب الى شياطين الجحيم ، وعندهم أن آدم هذا هو آدم الحادى والسبعون، كلهم ذهبوا بالمعصية من الوجود ولم تبق منهم على صلاح غير ذرية آدم من صلبه دون مخالطة المرأة ، وهم اليزيديون

ويعتقدون بتناسخ الارواح وعودة الاشرار الى الحياة فى أجساد الحيوان ، ويحرمون ألوانا من الاطعمــة والاكسية لايعرفون علة لتحريمها غير التعلات التى هى أشبه بأحاجى الاقاصيص ، ومنهـــا تحريم أكل الخس لأنقديسهم الشيخ عادى مر به فلم يعرفه وسأل عنه فلم يجبه ، وتحريمهم لبس الثوب الكحلى لانه عدو السماء

وهم يقدسون السيدة مريم والحلاج ويحجون الى جبل الدروز كما يحجون الى مكة ، وكتابهم المقدس يسمى كتاب الجلوة يلحق به كتاب يسمى مصحف رش أو المصحف الاسود ، ولكن الفصل الثـــالث من كتاب الجلوة يعلمهم أن الله يرشد بغير كتاب ويخص عباده المقربين بالالهام من غير سماع

وليس فيما رواه الثقات عنهم مايثبت عبادتهم للشيطان ، ولعل القول بعبادتهم للشيطان لبس جاء من اعتقـــادهم أن الاله الذى يسمونه « طاووس ملك » نصح لآدم بأكل الحنطة فانتفخ بطنه وضاقت به الجنة فأخرجه طاووس ملك الى العراء وصعد الى السماء ولم يكن لآدم مخرج فأرسل اليه طائرا نقر بطنه فاستراح من أكلة الحنطة ، وعاش بعيدا من الجنـــة المطهرة يأكل هو وبنوه من ذلك الطعام الارضى الى يوم القيامة

فالذين سمعوا أنهم يعبدون « طاووس ملك » الذى أخرج آدم من الجنة قد وحدوا بين هذا الملك وبين الشـــيطان وحسبوهم من النحل الشيطانية التى تعبده عبادة الارباب

على أننا نعرض النحل الشيطانية جميعا فلا نرى نحلة منها تعبـد الشيطان بالمعنى المفهوم من العبـادة وهو الحب والتنزيه والتسليم ، وانما يقصدون بتلك المراسم التى يسـمونها العبادة أن يزدلفوا اليه بالترضية والمداراة ، وأن يتقوا منه الشر الذى لايقيهم منـه رب سواه ، لانه موكل بحكم الارض الى اليوم المعلوم • فهى مصـانعة خوف أو نقمة على الخير الذى لاينـــالونه ، وليس فى شعائر هذه النحل أثر واحد يحق لنا أن نطلق عليه اسم العبـــادة حيث نعنى بالعبادة ايمان الحب والتعظيم والرضى بالفداء والبـلاء فى سبيل ذلك الايمان ، فليس فى تلك الشعائر كافةعلامة على قبول الفداء فى سبيل العقيدة الشيطانية أو قبول الامتحان والصبر عليه ايثارا لرضى الاله المعبود ولو لم يكن فيه نعمة أو هبة من هبـات الدنيـا والآخرة ، وكأنما كانت « عبـادة الشيطان » تهمـة جرت على ألسـنة المنكرين لعقائدهم زراية بهم وضـــنا عليهم أن يحسبوا فى زمرة « العباد » المؤمنين بالله

واذا كان الفداء شرطا من شروط العبادة الخالصة فما من نحلة شـيطانية يتقبل المؤمنون بهـا أن يخسروا كثيرا أو قليلا فى سبيل الشيطان ، فهى مساومة وانتفاع بالواقع الذى لامهرب منه ، ومثل هذه المساومة لاتسمى بالعبادة الا من قبيل المجاز والتمثيل

حلفاء الشيطان

يدل تاريخ السحر على تضامن النوع الانسانى فى التهدى الى العقائد العميقة التى تعرب عن نظرة شاملة الى الحياة أو الى الكون كله ، وتبدو أفكار الناس فى هذه العقائد كأنها تصدر عن عقل واحد يتعاون فيها بداهته وخياله وبذهنه وحسه وتتقارب فيه ملكة التشخيص والرمز فى وعى الانسان الساذج وملكة التجريد والتعميم فى تفكير الفيلسوف المدرب على دقائق التفكير

لو قال قائل فى هذا العصر أن الكون كله فكرة ، أو أنه كله عدد وحسبة رياضية ، لما احتاج فى قوله هذا الى تعمق بعيد ولا ظهر منه أنه يشتط فى نزعات التصوف أو نزعات التجريد ، لأن الخاصة والعامة فى زماننا يسمعون أن المادة كلها على اختلاف عناصرها وتراكيبها وأجسامها انما هى ذرات تتألف من النواة والكهرب وأن الذرة حين تنشق تؤول الى شعاع ، وأن الشعاع هزات فى الأثير ، فلا صعوبة على العقل الساذج فى تجريد المادة من تلك الكثافة أو تلك الصلابة التى كانت عنده وصفا عاما لكل مادة ، وكان الهواء عنده غاية مايتصوره من الخفة والشفافية والانطلاق من قيود الجسم الكثيف

لا يؤخذ العقل الساذج مأخذ الدهشة اذا سمع اليوم أن الكون كله عدد وأن طبيعة العالم المحســوس من طبيعة الفكر المجرد أو طبيعة المعنى الغنى عن التجسيم

ولكن كيف كان موقع هـذا القول عنده حين ســمع قبل نيف وعشرين قرنا أن الوجود كله عدد وأن « الكلمة » أصل كل شيء كما قال بعض فلاسفة اليونان نقلا عمن تقدمهم من الكهنة والمفكرين؟

كيف كان موقع هـذا القول عنــده حين ســمع باللوجوس Logos لاول مرة وحين سمع معها أو قبلها بالنسب الهندسية التى تفرق موجودات الكون المادى كلها فلا تبمخض عن شيء سواها

كان هذا كلاما أشبه بالتخريف أو هو التخريف بعينه ، وظل أناس من المطلعين الى عصر الذرة يسمعونه فلا يصفونه بأكثر من أنه هراء ، ولم يكن قول من الاقوال أبعـد فى الشطط عند جمهرة الناس من احالة هـذه الموجودات الى فكرة خالصــة أو الى عدد لايعرفون معه ماهو المعدود

وقد كان حقا من الاعجاز فى التفكير أن يستطيع عقل قبل خمسة وعشرين قرنا أن يشف تلك الشفافية بهذه الأجسام ذات الأوزان والاحجام

كان اعجــازا لو كان معوله كله على الطفرة من الحس واللمس الى التفكير المجرد أو الصوفية الرياضية ، ولكنه فى الواقع لم يكن كله طفرة من هذا القبيل ، وقد تنظر الى خطواته القريبة عيانا اذا تذكرنا تاريخ السحر وفهمنا منه ذلك التضامن فى البديهة الانسانية بين ملكة التشخيص والرمز وملكة التجريد والتعميم

كان الناس يفهمون من عمل الساحر منذ آلاف السنين أنه يحرك الطبيعة وعناصرها بكلمة يعرفها وبأعداد مقدسة يوفق بينها فتعمل فى القوى العلوية والسفلية عملها

كان بتلك الكلمة يبطل الأحجام والاوزان ويجعلهـا فى يديه كالهواء أو أخف من الهواء ، وكان يلقى الكلمـة أو يجمع العدد فيحرك الجبال ويزلزل الاوتاد ويطير بالاجسـام وينفذ الى ما وراء الحجاب ولا يبتعد منه بعيد أو يتعسر عليه عسير

ولم يكن أصحاب العقيدة فى السحر فلاسفة يجردون الاجسام وينظرون من ورائها الى الحقائق فى العقل الالهى أو فى عقل من العقول العليا ، ولكنهم كانوا أناسا حسيين واقعيين يفهمون أن الساحر يعمل بالكلمة مايعمله كل منهم حين يأمر انسانا مثله فيطيعه ، وغاية ماهنالك أن الساحر يأمر بالكلمة أرواحا واعية وان الطبيعة كلها أرواح

غاية ماهنالك أن الساحر يعرف الكلمة التى تطيعها تلك الارواح، وانه هو ـ الانسان الساذج ـ لو عرفها لحرك الجبال كما يحركها وزلزل الاوتاد كما يزلزلها ، فلا تعمق عنده ولا تصوف ولا تجريد

والى اليوم يستطيع الانسان الساذج أن يقول أن الكلمة تفعل الاعاجيب وتحكم الدنيا لانها تحكم الانس والجان ، ولكنه يقولها ولا يشعر بعمق فيها ولا يشعر السامع بدهشة عند سماعها ، وانما « تعمقها » الفلسفة لانها تعطيها المعنى الذى لا يقدر عليه العقل الساذج ، ويفعل التضامن فى البداهة الانسانية فعله فلا تبدو هذه النقلة كأنهـا الطفرة المنقطعة بين الحس واللمس وبين الصوفية العقلية فى أعلى الدرجات

***

ولما فرق الانسان الساذج بين السحر والعبادة لم يعتمد فى تفرقته هذه على مقياس الشعرة الذى استخدمه علماء العصر الاخير فى مراجعة العقائد وضم الأشباه منها وفصل المختلف منها بكل فارق دقيق أو جليل

ولكنه فرق بين السحر والعبادة غير عامد ولا ملتفت الى شيء بينها غير الفارق بين حالته وهو يذهب الى الساحر وحالته وهو يذهب الى امامه في العبادة ، وربما كان الساحر والامام شخصا واحدا ولكنه يشعر من نفسه بالفارق بين حالته وهو يذهب اليه طلبا للسحر أو يذهب اليه طلبا للصلاة .

فحيثما ذهب اليه يطلب سحرا فهو يحس من نفسه أنه يذهب اليه خفية ويستر عنده مايطلبه ولا يبوح به لغيره ممن لا يأمنه ولا يطمئن اليه ، وحيثما ذهب اليه يطلب صلاة فهو يذهب مع غيره ويعلن مايفعله ومايرجوه ولا يخطر له أنه يتواطأ على دسيسة من دسائس الظلام

ومنذ افترق الساحر والكاهن وظيفة وخلقا أصبح السحر عملا من أعمال الظلام وان اختلف الاعوان عليه بين الارواح الخبيثة والأرواح الطيبة ، أو بين الارواح التي يحكمها الشيطان والارواح التي لا حكم له عليها ولا يرجع اليه في تسخيرها

ومع الزمن ظهر التخصيص في صناعة السحر كما يظهر في كل صناعة تتفرع وتتشعب وتتميز فيها المتشابهات والمتخالفات ، فانقسم السحر الى أبيض وأسود ، والى سحر الحكماء وسحر الكذبة والمشعوذين ، ولم يفهم الناس من وصفهم بالكذب والشعوذة انهم لايقدرون على صناعتهم التي لاشك فيها ، وانما فهموا من هذا الوصف انهم يحتالون في الصناعة ويسلكون مع طلابهم مسلك الشياطين وحلفاء الشياطين ، ولا غرابة في الكذب أو الشعوذة من شيطان

. وبقيت « السرية » شرطا ملازما للسحر بنوعيه ، وبقيت هذه السرية معنى مرادفا لمعنى الظلام وتدبيرا لايؤمن على الذين يعتقدونه ولا يرونه ولا يعرفون كيف يكون تدبيره ومتى يكون وعلى أي

وحه يكون : بقى الساحر مخيفا غير مأمون ، وغار منه الكاهن على سلطانه فوقعت الجفوة بينهما ولعن الكاهن غريمه ولم يستطع غريمه أن يلعنه لان الناس لا يصدقون لعنته ولا يرون اللعنة من حق السحر وان لم يكن سحرا من عمل الشيطان

وقد وجد الكهنة والمتنبئون ووجد معهم السحرة « وأصحاب الجان » جنبا الى جنب في أخبار التوراة من أقدم أسفارها بعد موسى عليه السلام ، ولكن الرؤساء والولاة كانوا يخرجون الانبياء لانهم ينكرون انهم أنبياء ، ويخرجون السحرة وأصحاب الجان اذا عرفوا أنهم سحرة وأصحاب جان ، وكذلك فعل الملك شاول قبل موت النبي صمويل ، فلما مات النبي بحث عن السحرة الذين نفاهم ليحضروا له روحه بعد موته ، وقصته مع النبي في محضره ومع السحرة بعد غيبته نموذج للعقائد الاولى التى لم تفصل بعد كل الفصل بين الوظيفتين ، وان فصلت بينهما في التجلة والتقديس .

ويقول الاصحاح الثامن والعشرون من كتاب صمويل :

« .. ومات صمويل وندبه كل اسرائيل ودفنوه في الرامة في مدينته . وكان شاول قد نفى أصحاب الجان والتوابع من الارض ، فاجتمع الفلسطينيون وجاءوا ونزلوا في شونم ، وجمع شاول جموع اسرائيل ونزل في جلبوع ، ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب ، فسأل الرب فلم يجبه الرب بالاحلام ولا بالاوريم ـ أى القرعة الكهنوتية ـ ولا بالانبياء ، فقال شاول لعبيده فتشوا لى على امرأة صاحبة جان فأذهب اليها وأسألها ، فقال له عبيده : هوذا امرأة صاحبة جان في عين دور ، فتنكر شاول ولبس ثيابا أخرى وذهب هو ورجلان معه وجاءوا الى المرأة ليلا وقال لها : اعرفى لى بالجان واصعدى لى من أقول لك .. فقالت له المرأة : هو ذا أنت تعلم مافعل شاول . انه قطع أصحاب الجان والتوابع من الارض . فما بالك تضع الشرك لنفسى تريد لها الموت ؟ فحلف لها شاول

بالاله آخى لا يلحقنها اثم من هذا الامر ، فسألته المرأة : من اصعد لك ؟ فقال : اصعدى لى صمويل ، فلما رأت المرأة صمويل صرخت بصوت عظيم وقالت لشاول : لماذا خدعتنى وانكرت نفسك ؟ قال لهاالملك : لاتخافى . ماذارأيت ؟ فقالتالمرأة : رأيتآلهةيصعدون من الارض .. ثم قالت : رجل شيخ صاعد مغطى بجبة . فعلم شاول انه صمويل فخر ساجدا على وجهه ، وقال صمويل لشاول : لماذا اقلقتنى باصعادك اياى ؟ قال شاول : قد ضاق بى الامر غاية الضيق . ان الفلسطينين يحاربوننى والرب يتخلى عنى ولم يعد يجيبنى لا بالانبياء ولا بالاحلام ، ودعوتك لتعلمنى ماذا أصنع ؟ فقال صمويل : ولماذا تسألنى وقد تخلى عنك الرب وعاداك ؟ لقد فعل الرب لنفسه ما أنبأنى به وتكلم به على يدى ، وقد شق الرب المملكة وأعطاها لقريبك داود لانك لم تسمع لصوت الرب ولم تنفذ غضبه فى عماليق ، فهو صانع بك ماصنعه اليوم وغدا يدفع بك وباسرائيل الى أيدى الفلسطينين ، وغدا تلحق بى أنت وبنوك ويدفع الرب الى الفلسطينين جيش اسرائيل . فسقط شاول على الارض وغشيه الوجل من قول صمويل ، ولم تكن له قوة لانه لم يذق طعاما نهاره كله وليله ، ثم جاءت المرأة الى شاول ورأته مرتاعا فقالت له : لقد صدعت جاريتك بأمرك ووضعت نفسها فى كفها تلبية لكلامك ، والآن تسمع أنت لصوت جاريتك وتأكل من هذا الخبز الذى أضعه أمامك . كل فتكون لك قوة على المسير فى الطريق . فأبى أن يأكل ، وألح عليه عبداه والمرأة فاستجاب لهم وقام من الارض وقعد على السرير ، وكان للمرأة عجل مسمن فى البيت فأسرعت وذبحته وأخذت دقيقا وعجنته وخبزت منه فطيرا وقدمته أمام شاول وعبديه ، فأكلوا وذهبوا ...

***

هذه القصة كنز من كنوز البحث فى مقارنة الاديان يندر العثور على قصة مثلها فيما احتوته من شواهد المرحلة التى يبدأ فيها التميز

بين الخير والشر والثواب والعقاب والامامة الدينية والكهانة السحرية دون أن ينتهي التميز الى حدوده الواضحة •

فهاهنا تمييز بين من يختاره الله ومن يغضب عليه كالتمييز بين مقام صمويل ومقام شاول ، ولكنه يجمع بين الاثنين في مكان واحد بعد الموت فيذهب شاول الى حيث يلحق بصمويل •

وهاهنا تمييز بين الامامة الدينية وبين السحر ، ولكن السحر تنسب اليه القدرة على تحضير روح النبي بغير مشيئته

وها هنا تمييز بين السحر الصالح والسحر الخبيث أو السحر الاسود ولكن الساحر يستعين بالجان كما يستعين بأرواح الموتى ، ولا يقال عن الجان أنهم من أعوان الخير أو من أعوان الشر ، لانهم في خدمة شاول وهو مغضوب عليه

وهاهنا استطلاع للغيب يطلب من النبوة كما يطلب من القرعة أو يطلب من صاحبات الجان والارواح

غير أن العبريين لم يسبقوا غيرهم في مراحل كثيرة من أطوار المسائل الغيبية والعادات • فمن قبل هذه المرحلة تميز السحر في الحضارة القديمة فانقسم الى السحر الابيض والسحر الاسود والى عمل الحكمة والمعرفة وعمل الخبث والدنس ، وجاء عصر السيد المسيح وقد عرف السحران بوظيفتين وقيمتين وأثرين مختلفين ، فتكلمت الاناجيل عن حكماء المجوس الذين رصدوا الكوكب وعرفوا منه مولد السيد المسيح في مهده ، وظل هذا السحر وغيره من ضروب السحر الممنوع مختلفين بالاسم والعمل فيما نقله الغربيون من حكمة المشرق وثقافته وظلت بقاياه الى اليوم

فالسحر يسمى عندهم باسمين : أحدهما بسحر المجوس ويدل عليه اسمه « الماجي » Magic الذي بقي في اللغات الغربية بلفظه القديم

والسحر الآخر يسمى بصناعة الساحرة Witchcraft ويوخذ من اسمه هذا انه كان مقصورا على المرأة منذ كانت المرأة فيالعرف الشائع أداة الشيطان فيالغواية وعون الشيطان علىكيده وعصيانه

فقد كان الاقدمون يخلطون بين فتنة المـــرأة بوحى الغريزة الجنسية وفتنتها بوسوسة الشيطان ، ويحسبونها من ثم حبالةشيطانية يسخرها الشيطان أو تستعين به هى على تسخير المفتونين لاغراضها ومشتهياتها ، ويقع فى أذهانهم أنها أقرب الى الخلسة والخداع لانها تعاشر الشيطان فى زواج غير مشروع ولا يحسبونه الا من قبيل السفاح الممنوع ، بل همبحسبونه شرا منالسفاح الممنوع ، لان السفاح الممنوع بين الرجل والمرأة من الانس لايبلغ فى العصيان والمنكر مبلغ المعـاشرة التى تجمع بين بنت من بنات حواء وبين عدو الله

وتتميز أدوات السحرين كما يتميز السحران فى المقصـــد والوسيلة ، فسحر الحكمة والمعرفة له أدواته من رصد الكواكب ورياضة النفس والروائح الزكية من الطيب والبخور .

وعلى نقيض ذلك سحر الخبث والاذى ، أو سحر الشيطان بعبارة أخرى ، فانه يتوسل الى مقاصده الخبيثة بكل دنس كريهمن الادوات والآلات ، ويقال عن سحرته انهم يلوثون اكل طهر ويبتذلون كل قداسة ، وانهم يدنسون اللبن والكتب الشريفـــة ويتقربون الى الشيطان باحلال الدعوات والصلوات محل الحطـة والهوان ، ويزعمون ان الوضوء الشيطانى أيسر للمرأة منالرجل لانها تستخدم فيه الدم المطرود ، ويتعمدون التبشيع والتنفير جهدهم من التخيل فيزعمون أن الساحرة تمسح قدميها بشحم منتزع من جثة طفل ذبيح وتخرج للطيران من مدخنة البيت وهى تمتطى المكنسة المتسخة ، لانهم لايريدون أن يسلموا لها القدرة علىالطيران

الا أن تكون من طريق الحريق والسواد وعلى أداة من أدوات الاوساخ والارجاس

***

ومن أصول السحر ، فى عصور الحضارة الاولى ، مايسمى بعلم التنجيم ويطلق على علم الفلك وعلم الغيب فى وقت واحد

كان التنجيم أصلا من أصول السحر يوم كان الكاهن يتولى وظيفة الامام ووظيفة العالم ووظيفة الساحر ، وكان الناس يؤمنون معه بربوبية الافلاك وسريان مشيئتها فى الارضين ومن عليها ، فكان الكاهن اماما يصلى لها وعالما يعرف حسابها وساحرا يستطلع أسرارها ويتوخى التوفيق بينها وبين مطالب أتباعه ومقاديرهم التى يستنبىء عنها الغيب ويعلم كيف يتعجلها ويتقيها

وبقى التنجيم أصلا من أصول السحر بعد زوال عبادة الافلاك وبطلان القول بربوبيتها ، ولكن بطلان القول بهذه الربوبية لم يبطل القول بسلطان الافلاك وتأثيرها بأمر الله فى العوالم السفلية، واختلف المتدينون فى مدى هذا التأثير ، كما قال الكشناوى فى كتابه عن خلاصة السحر والطلاسم ، اذ ينقل آراء المختلفين فيقول « ان الذى اختص به الصابئة وبعض الفلاسفة الذين وافقوهم على رأيهم انما هو القول بألوهية الكواكب واستحقاقها للعبادة واستقلالها بالتأثير والتدبير فى هذا العالم ، فهذا كفر مجمع عليه فى جميع الملل والاديان . لان الملل كلها مطابقة على أن المستحق للعبادة والذى بيده التأثير وتدبير الكائنات انما هو اله واحد واجب الوجود متصف بصفات الالوهية والربوبية وان كل ما عداه حادث مفتقر اليه على الدوام لا يستقل بنفسه فى شىء من الاشياء ولو لحظة واحدة . وأما القول بأنها مؤثرة بقوة أودعها الله فيها ثم تركها تؤثر بتلك القوة فى العالم باذنه تعالى بحيث لو لم يرد ذلك تبارك وتعالى لما أثرت أصلا ومثلوا ذلك بملك يولى شخصا بقطر من الاقطار فيفوض له

الامر والحكم هناك فيصير ذلك الرجل يمضى الاحكام فى ذلك القطر باذن ذلك الملك بحيث لو لم يرد ذلك منه لعزله عن تلك الولاية ـ فهذا القول قد قاله جمع من المليين ومنهم امام الحرمين ولم يرتضه السنوسى بل عده من البدع المنكرة وشنع على القائلين به ولم يصل بهم الى حد الكفر . وأما من يقول أنها أسباب عادية أجرى الله عادته بوجود الحوادث عندها لا بها مع تجويز التخلف عن خرق تلك العادة كما هو الحكم فى سائر الاسباب العاديه من الأكل والشرب والقطع والاحراق ، فهذا القول لا ينكره أحد ...

الى أن يقول « وثاني الشيئين المذكورين اثبات القوابل السفلية الارضية ، لانهم قالوا أن حصول الفاعل المؤثر لايكفى وحده فى حصول الاثر بل لابد معه من حصول القابل ولا يكفى أيضاحصول القابل وحده بل لابد مع وجوده من كون الشرائط المعتبرةللقبول حاصلة والموانع زائلة ، لانه ربما حدث فى العالم الاعلى شكل غريب صالح لافادة آثار غريبة فى مادة العالم الاسفل ، فلا تكون المادة السفلية متهيئة لقبول تلك الآثارلعدم الشرط أو لوجود المانع.. فعلى هذا لو تيسرت لنا معرفة طبيعة ذلك الشكل ومعرفة طبيعة الأمور المعتبرة فى كون المادة السفلية قابلة لذلك الاثر ، لكان يمكننا أن نهيىء تلك المادة لقبول ذلك الاثر ...»

وعلى هذا التأويل بقى سحر التنجيم بعيدا من شبهة الاتهام بطاعة الشيطان بين أهل المشرق والمغرب ، حتى ظهر فى كليهما من يلحقه بالوسائل الشيطانية ويعتبر السحرة تلاميذ للشيطان فى هذه الصناعة لقدرته على الصعود والهبوط بين الافلاك والعوالم السفلية وعرفانه بخفايا العوالم السفلية ونزعاتها وتهيؤ أحوالها للتأثر والانفعال بما فوقها

وقد أورد صاحب الكتاب المتقدم أقوالا مختلفة فى التعريف بما

سماه علم السحر فقال : « .. اعلم انهم اختلفوا فی تعریفه لاختلاف المذاهب فیه ، فعرفه صاحب ارشاد القاصد بأنه علم یستفاد منه حصول ملكة نفسانیة یقتدر بها علی أفعال غریبة بأسباب خفیة ، وعرفه أبن العربی الفقیه المالكی بأنه كلام مؤلف یعظم فیه غیر الله عز وجل وتنسب الیه الكائنات والمقادیر ، وبعضهم عرفه بأنه مایغیر الطبع ویقلب الشیء عن حقیقته .. ومنفعته عند الاسلامیین أن یعرف لیحذر منه لا لیعمل به ، ولا نزاع فی تحریم العمل به بتا ، وأما مجرد تعلمه ففیه خلاف بین الأئمة ، فبعضهم منعوه وحرموه حسما للباب كالمالكیة ومن وافقهم ، وبعضهم أباحوه ، وأغرب بعض النظار حیث عدوه من فروض الكفایات لجواز ظهور ساحر یدعی النبوة فیكون فی الامة من یكشفه ویقطعه ، وقد حكاه ابن صاعد فی ارشاد القاصد .. ولتعلمه فائدة أخری وهی أن یعرف منه ما یقتل فیقتل فاعله به قصاصا عند من یقول بذلك »

ثم مضی المؤلف یذكر أقسامه فقال : انه حقیقی وغیر حقیقی .. وأن الطرق فیه اختلفت علی أربعة مذاهب : أحدها طریقة تصفیة النفس وتعلیق الوهم وهی طریقة أهل الهند ، لانهم یعتقدون أن تلك الآثار السحریة انما تصدر عن النفس الناطقة ولذلك یلازمون الریاضات الشاقة حتی تصفو نفوسهم وتتجرد عن جمیع الشواغل البدنیة بحسب الطاقة البشریة . وهذا المذهب مبنی علی ثبوت التأثیر لتوجیه النفس وتعلیق الوهم .. والمذهب الثانی من المذاهب الاربعة التی للسحر ، طریقة النبط وهی عمل أشیاء مناسبة للغرض المطلوب مضافة الی رقیة ودخنة بعزیمة نافذة فی وقت مختار ، وتلك الاشیاء تارة تكون تماثیل كالطلسمات وتارة تصاویر ونقوشا كالشعابیذ وتارة عقدا تعقد وینفث فیها وتارة كتبا تكتب وتدفن فی الارض أو تطرح فی الماء أو تعلق فی الهواء أو تحرق بالنار ، وتلك الرقیة التی یرقی بها تضرع الی الكوكب الفاعل للغرض المطلوب علی زعمهم ، وتلك

الدخنة منسوبة لتلك الكواكب لاعتقادهم ان هذه الآثار انما تصدر عن اجرام الكواكب ، وكتاب سحر النبط نقل ابن وحشية يشتمل على تفاصيل تلك الطريقة .. والمذهب الثالث من المذاهب الاربعة السحرية مذهب اليونانيين المتقدمين وهو تسخير روحانية الكواكب والافلاك واستنزال قواها بالوقوف والتضرع اليها لاعتقادهم أن هذه الآثار انما تصدر عن روحانية الافلاك والكواكب لا عن اجرامها ، وهذا هو الفرق بينهم وبين الصابئة أهل المذهب الثانى وأهل الطلسمات .. والمذهب الرابع من المذاهب الاربعة السحرية مذهب العبرانيين والقبط والعرب وهو الاعتماد على ذكر أسماء مجهولة المعانى كأنها أقسام وعزائم بترتيب خاص كأنهم يخاطبون بها حاضرا لاعتقادهم ان هذه الآثار انما تصدر عن الجن ويدعون فى تلك الاقسام أنها تسخر ملائكة قاهرة للجن »

وقد أورد الاوغنستانى فى رسالة اللؤلؤ والمرجان فى تسخير ملوك الجان ، أمثلة فى الآيات وجملة اعدادها بحروف الجمل وتقسيمات هذه الآيات والاعداد الى جداول مناسبة لدعوة الملائكة الذين يسخرون الجان ليعود هؤلاء فيسخروا الطبيعة والناس ، فى زعم أصحاب هذه الارصاد

***

والمفهوم من مؤلفات الاوربيين فى السحر والطلاسم انهم نقلوا جميع هذه النفسيات واقتدوا بالشرقيين فى الحكم عليها من الوجهة الدينية ، واتخذوا من عطارد كوكبا راعيا للسحر كأنه خليط من الرب اليونانى القديم والشيطان ، وجعلوه وليا للشطار والجناة وأدعياء النظم وأصحاب الخداع باللسن والخطابة ، وانتهى بهم الامر الى تحريم هذه المعارف السحرية جميعا وتقسيم المعارف كافة الى قسمين: قسم حلال وهو ما يشتغل به رجال الدين برخصة من الرؤساء ، وقسم حرام وهو كل ماعداه بلا استثناء لمذاهب الفلسفة وتجارب

العلوم الحديثة ، فدخل في عداد المعارف الشيطانية والسحر الممنوع كل علم يتولاه اناس من غير رجال الدين ، ولم يستثن ـ كذلك ـ كل سحر يزعم أصحابه انه من العزائم التى يستعينون فيها بالملائكة ، فقد شاع فى تلك القرون أن الشيطان يتشكل بأشكال المـــلائكة والارواح العلوية كما قال بولس الرسول فى رسالة كورنثوس الثانية « لأن هؤلاء هم رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم الى شبه رسل المسيح ، ولا عجب لان الشيطان نفسه يغير شكله الى شبه ملاك النور ، فليس عظيما ان كان خدامه يغيرون شكلهم كخدام للبر »

واحترز أحبار الكنيسة من دعوى كل مدع ينسب الى نفسه القدرة على مخاطبة الملائكة واستيحاء الغيب ، فعم التحريم كل عزيمة من عزائم السحر وما اليه ، وكان القانون يعاقب على جريمة السحر بالموت اذا ثبت أن الساحر استخدم طلاسم لاهلاك المسحور ، ثم صدر فى انجلترا قانون معدل له (سنة ١٦٠٣) يقضى بالموت على كل من يثبت عليه تعاطى السحر ولو للعلاج وشفاء الامراض ، لانه محالفة مع الشيطان وكل محالفة مع الشيطان خيانة لله ، وكانت انجلترا مع هذا معدودة من البلاد التى تخضع كل الخضـــوع للسيطرة الكهنوتية ، ولم تعمل محاكم التفتيش فيها كما كانت تعمل فى القارة الاوربية حيث أحرقت النساء عقابا على السحر وأحرق الاطفال لانهم من ولد الشياطين ، وصدرت آخر هذه الاحكام فى منتصف القرن الثامن عشر ، وكان بعضها مما صدر فى الولايات المتحدة

وانتهى القرن الثامن عشر والرأى الغالب على أهل الغرب أن السحرة جميعا حلفاء الشيطان ، وان من السحرة كل من يروض الطبيعة بعلم غير العلوم التى يقرها الدينيون .



الشيطان والفنون

قال أبو العلاء :

وقد كان أرباب الفصــاحة كلما
رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

وربما كان أبو العــلاء يخص العرب دون غيرهم بهذا القول ، ولكنه فى الواقع قول يعم جميع الاقوام ويعم جميع أنواع الاحسان فى الكلام وفى غير الكلام

فالعبقرية عند الأوربيــين منسوبة الى الجن ، ومعنى العبقرى عندهم أنه صاحب الجنة أو الشبيه بالجنة فى القدرة والتفوق كائنا ماكان العمل الذى يتفوق فيه ، وكلمة « جينياس **Ginius** » تطلق على كل صاحب قريحة خارقة للمألوف فى الابتكار والابتداع سواء كان ابتداعها فى الشعر والنثر أو فى التصوير والنحت أو فى الانشاء والتلحين أو فى العلم أو الصناعة أو تدبير المال وسياسة الشعوب

والعبقرية فى التعبير العربى الحديث مأخوذة من كلمة عبقر ، موضع يقولون أن الجن تسكنه وأن الصناعات الفائقة كلها تنسب

اليه ، ومنها صناعة السيوف كما قال أمرؤ القيس :

كأن صليل المرو حين تطيره
صليل سيوف ينتقدن بعبقرا

ويقولون انسكانه أنفسهم موصوفونبالجمال كما قال الأعشى « كهولا وشبانا كجنة عبقر »

ويرد بعضهم أن الكلمة مأخوذة من الكلمة الفارسية «آبكار» بمعنى الرونق ، وهو بعيد لان اقتباس كلمة الرونق لا يفسر القصص المنسوجة حول البلد المسمى بعبقر ولا يوجد فى الاصل الفارسى ما يوحى بهذه القصة أو يوحى بأسباب اقتباس الكلمة على حسب العرف المأثور فى هذه المقتبسات

وتذكر كلمة « عبقرى » وصفا للنفاسة بغير نظر الى اشتقاقها من المكان المزعوم ، كما جاء فى سورة الرحمن من القرآن الكريم : « متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان »

***

ومن التعبيرات المتشابهة بين اللغات وصف الابداع بالاعجاز ووصف الاعجاز تارة بالدقة التى تخفى أسرارها على غير ذوى الفطنة ، وتارة بالفخامة التى تتعاظم العاملين من غير ذوى العزم والقدرة الخارقة

يقال ذلك فى البلاغة ومعانيها الخفية وفطنتها النافذة الى الخبايا والأعماق

ويقال ذلك فى المساعى الكبار التى يضطلع بها المردة الجبارون ولا يقوى على الاضطلاع بها من دونهم من ذوى الأجسام المحسوسة .

وحيث تسرى الخواطر الى تصور الخفاء والدقة والقدرة الخارقة

لا جرم تنتهى بمسراها الى العوالم الخفية التى لاترى بالعيون ولا تحد قدرتها بما يحد الأيدى والاقدام من أجسام بنى آدم وحواء

ولهذا الاستطراد الطبيعى فى تتابع الخواطر توافقت بداهة البشر على علاقة البلاغة بالجن بل على علاقة كل « بالغ » من الاقوال والاعمال بتلك الخلائق المستترة التى لا تحدها نقائص اللحم والدم ، لانها متلبسة فى الاذهان بخلقة النار والريح ومادة « الجو اللطيف » مما لا يحصر ولا يحال بينه وبين مسعاه

والعرب تزعم أن شعراءها تستوحى الجن وأن كل شاعر منهم يستعين بشيطان يصاحبه ويعرفه باسمه . فهبيد اسم شيطان عبيد ، ومسحل اسم شيطان الأعشى ، وجهنام اسم شيطان عمرو بن قطن وسنقناق اسم شيطان بشار ، ويزعم الفرزدق أن الشعر منقسم بين شيطانين أحدهما يسمى الهوجل وهو موكل بالجيد من الشعر والآخر يسمى الهوبر وهو موكل برديئه وسقطه ، وأنشده رجل من تميم بيتا يقول فيه :

ومنهم عمر المحمود نائله كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحكت وقال : انهما قد اجتمعا لك فى هذا البيت فكان معك الهوجل فى أوله فأجدت وخالطت الهوبر فى آخره فأفسدت

وكان أبوالنجم الرجاز يفخر على الشعراء ويقول أن شياطينهم جميعا أناث ما خلا شيطانه فهو شيطان ذكر :

انى وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

وكأنه نظر فى ذلك الى فحولة الكلام ، مما اشتهر به الرجز ولم يشتهر به الشعر فى زمانه

ويكون مع الشيطان تابع أو «رئى» كأنه الراوية الذى يحفظ ما يلقيه الشيطان القائل عفو الخاطر

وفى كتاب «آكام المرجان فى أحكان الجان» نظم كثيرمنسوب الى الجن بغير واسـطة الانس آو مشترك بين قائلين أحدهما من هؤلاء والآخر من هؤلاء ، ومن هذا الشعر المشترك

قال بعـد عنعنـة طويلة : « ... خرجت مع نفر من قريش نريد الشام فنزلنا بواد يقال له وادى عوف فعرسنا به فاستيقظت فى بعض الليل فاذا أنا بقائل يقول :

ألا ملك النســـــاك غيث بنى فهر
وذو الباع والمجد التليد وذو الفخر

فقلت فى نفسى والله لأجيبنه فقلت :

ألا أيهـا النـاعى أخا الجود والفخر
من المرء تنعـــــاه لنـا من بنى فهر

فقال :

نعيت ابن‌جدعان بن عمرو أخا الندى
وذا الحسب القدموس والمنصب القهر

فقلت :

لعمرى لقـــد نوهت بالسيـد الذى
له الفضـــل معروفا على ولد النضر

فقال :

مررت بنســوان يخمشن أوجهـــا
صبـــاحا عليـه بين زمزم والحجر

فقلت :

متى ؟ ان عهـدى فيه منـــذ عروبة
وتسعـــة أيام لغرة ذا الشهر

فقال :

ثوى منذ أيام ثلاث كوامل
مع الليل أخرى الليل أو وضح الفجر

فاستيقظت الرفقة فقالوا من تخاطب ؟ فقلت هذا هاتف ينعى ابن جدعان ، فقالوا : والله لو بقي أحد بشرف أو عزة أو كثرة مال لبقي عبد الرحمن بن جدعان . فقال ذلك الهاتف :

أرى الايام لا تبقى عزيزا لعزته ولا تبقى ذليلا

فقلت :

ولا تبقى من الثقلين ثقلا
ولا تبقى الحزون ولا السهولا

وكأنما نظر صاحب هذه القصة الى قول حسان بن ثابت فى المساجلة الشعرية حيث يقول عن صاحبه الجنى :

ولى صاحب من بنى الشيصبا
ن فطورا أقول وطورا هوه

وقد روى صاحب آكام المرجان أبياتا كثيرة من نظم الجن فى رثاء عظماء الصحابة وآل النبي ، منها مانسب الى الجن منفردين به ومنها ما اشترك فيه قائلان كالأبيات التى رويت فى رثاء ابن جدعان

وكانوا يقولون عن توارد الخواطر بين الشاعرين أنهما يأخذان من شيطان واحد . فذكر صاحب مواسم الأدب أن الفرزدق وجريرا ركبا ناقة الى الرصافة لاستمناح هشام بن عبد الملك فنزل جرير فى بعض الطريق .. فتلفتت نحوه الناقة فأنشد الفرزدق :

عــلام تلفتين وأنت تحتى
وخير النـــــــاس كلهم أمامى
متى تردى الرصافة تستريحى
مــن الادلاج والدبر الدوامى

ثم قال فى نفسه : الآن يجىء ابن المراغة فيسمع ما أنشدته فيه فيجيبنى بقوله :

تلفت انهـــــــا تحت ابن قين
أبى الكيرين والفــاس الكهــام
متى ترد الرصــافة تخز فيهــا
كخـــزيك فى المواسم كل عام

ثم جاء جرير فأخبره الفرزدق بالقصة وأنشده البيتين الأولين فلم ينشب أن أنشده البيتين الاخيرين ، فضحك الفرزدق وقال : والله يا أبا حرزة لقد قلتهما قبل أن تأتى . قال جرير : أما علمت أن شيطاننا واحد ؟

وكل هذا ولا شك تلفيق يعلمه ملفقوه ، ولكن الأصل فيه قائم على اعتقاد طبيعى شائع يخيل الى الناس فى شتى الأمم أن المعانى الخفية لا تخلو من علاقة بالمخلوقات الخفية ، وأن أسرار الصناعات التى تدق عن نظر العيون ينبغى أن تطلع عليها العيون التى تعيش فى عالم الاسرار ولا يدق عن نظرها شىء فى حلكة الظلام .

ويقال عن فن الغناء ما يقال عن فن القريض ، وبخاصـــة فى الزمن الذى كان فيه الغناء موقوفا على البيت أو الأبيات يختارها المغنى من كلام الشاعر فى عصره أو فى غير عصره

روى صاحب الاغانى أن الغريض كان يقتبس بعض أصواته

من عزيف الجن ويزعم ذلك مغالاة بصنعته ، فأنكر عليه سامعوه ما يدعيه ، حتى كان ذات ليلة يغنى لجماعة من نساء مكة فسمعن عزيفا عجيبا ذعرن منه فقال لهن الغريض : ان فى هذه الأصوات صوتا اذا تمت سمعته وأصبحت فغنيت به ، وأصغين الى الصوت فاذا هو من نغمة ألحان الغريض .

وادعى اسحق بن ابراهيم الموصلى أن الغناء الماخورى الذى افتتن به الناس من فن أبيه انما كان من صنع ابليس .. قال عن أبيه : « استأذنت الرشيد أن يهب لى يوما من أيام الجمعة أنفرد فيه بجوارى واخوانى فأذن لى فى يوم السبت ... فأقمت بمنزلى وأخذت فى اصلاح طعامى وشرابى وأمرت البواب ألا يأذن لأحد فى الدخول على ، فبينما أنا فى مجلسى والحرم قد حففن بى اذا أنا بشيخ ذى هيئة وجمال عليه خفان قصيران وقميصان ناعمان وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة بفضة وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار ... فدخلنى غيظ عظيم لدخوله على وهممت بطرد بوابى .. فسلم على أحسن سلام فرددته عليه ودعوته الى الجلوس فجلس وأخذ فى أحاديث الناس وأيام العرب وأشعارها حتى سكن ما بى من الغضب ، فظننت أن غلمانى تحروا مسرتى بادخال مثله على لأدبه وظرفه . فقلت : هل لك فى الطعام ؟ فقال : لا حاجة لى فيه . قلت : فالشراب ؟ قال : ذلك اليك . فشربت رطلا وسقيته مثله . فقال : يا أبا اسحاق . هل لك أن تغنينا شيئا فنسمع من صنعتك ما قد فقت به عند الخاص والعام ... فغاظنى قوله ثم سهلت الأمر على نفسى فأخذت العود فجسست ثم ضربت وغنيت ، فقال : أحسنت يا ابراهيم !.. فازددت غيظا وقلت ما رضى بما فعله فى دخوله بغير اذن واقترحه على حتى سمانى باسمى ولم يجمل مخاطبتى . ثم قال : هل لك أن تزيد ونكافئك ، فتعجبت فى

نفسى وقلت : بم يكافئنى ؟ ثم أخذت العود فغنيت وتحفظت بما غنيته وقمت به قياما كافيا لقوله لى أكافئك . فطرب وقال : أحسنت يا سيدى ! ثم قال : أتأذن لعبدك فى الغناء ؟ فقلت : شأنك ! واستضعفت عقله أن يغنى بحضرتى بعد ما سمعه منى ، فأخذ العود وجسه فوالله لقد خلت أن العود ينطق بلسان عربى فصيح فى يده واندفع يغنى :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى
بها كبدا ليست بذات قروح

الى آخر الأبيات ..

« فوالله لقد ظننت أن الحيطان والأبواب والسقوف وكل مافى البيت يجيبه ويغنى معه من حسن صوته ، حتى خلت والله أنى أسمع أعضائى وثيابى تجاوبه وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبى من اللذة التى غيبتنى عن الوجود ، فلما رآنى كذلك أخذ العود ثانية واندفع يغنى بهذه الأبيات :

ألا ياحمامات اللوى عدن عودة
فانى الى أصواتكن حزين

الى آخر الابيات ..

فكاد عقلى أن يذهب طربا ، ثم غنى ليزيد بن الطثرية :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادنى مسراك وجدا على وجد

الى آخرها ...

ثم قال : يا ابراهيم ! هذا الغناء الماخورى خذه وانح نحوه فى غنائك وعلمه جواريك . فقلت : أعده على . فقال : لست

بمحتاج . قد أخذته وفرغت منه ، ثم غاب من بين عيني . فارتعدت لذلك ، وقمت الى السيف فجردته وغدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة ، فقلت للجوارى : أى شيء سمعتن عندى ؟ فقلن : سمعنا أحسن غناء ، لم نسمع قط أحسن منه ، فخرجت متحيرا الى باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البواب عن الشيخ الذى خرج فقال : أى شيخ ؟ والله ما دخل عليك أحد ... فرجعت لأتأمل أمرى فاذا هو قد هتف بى من بعض جوانب البيت : لا بأس عليك يا أبا اسحاق ! أنا أبو مرة ابليس ... وقد كنت نديمك اليوم فلا ترع ... فركبت الى الرشيد وأخبرته بالحديث ، فقال : ويحك . أعد الاصوات التى أخذتها . فأخذت العود فاذا هى راسخة فى صدرى .. »

وقد كان عهد العرب بعزيف الجن فى الصحراء قديما جدا لم يتغير ظنهم به فيما نظمه الشعراء الاسلاميون ، كذى الرمة حيث يقول :

ورمل كعزف الجن فى عقداته
هرير كتضراب المغنين بالطبل

غير أنهم خصوا الشاعر بالشيطان الملازم ولم يجعلوا للمغنى شيطانا مثله لان فن الشعر كان أقدم عندهم من فن الغناء ، وانما كان غناؤهم حداء أو محاكاة للحداء ، وكان الحداء نغما شائعا يغنيه كل سائق يحدو الابل فلى طريقة لا محل فيها للافتنان والتنويع ، وكان غناؤه على الاكثر فى قافلة لا ينفرد عنها بمكان يظن أنه يخلو فيه بالجن لتلقنه ويستمع منها ، فلما ظهر المغنون آحادا متقطعين لعملهم منفردين بوضع ألحانهم ، أحبوا محاكاة الشعراء بالأخذ عن الجن فى صناعتهم مغالاة بها عن قدرة الانس فى هذه الصناعة ولكنهم طرأوا بهذه الدعوى ولم يتأصلوا فيها كما تأصل الشعراء

فسمعت من آحاد متفرقين ولم تكن اجماعا من وحى البديهة فى البيئة بأسرها

***

وقد روى عن الصناعات العلمية كالطب ، ما روى عن صناعة الكلام وصناعة الغناء ، فأسند صاحب كتاب الهواتف الى النضر ابن عمرو الحارثى قصة قال فيها :

« انا كنا فى الجاهلية الى جانبنا غدير فأرسلت ابنتى بصحيفة لتأتينى بماء فأبطأت علينا وطلبناها فأعيتنا فيئسنا منها .. قال : والله انى جالس ذات ليلة بفناء مظلتى اذ طلع على شيخ فلما دنا منى اذا بنتى . قلت : ابنتى ؟ قالت : نعم ابنتك . قلت : أين كنت أى بنية ؟ قالت : أرأيت ليلة بعثتنى الى الغدير أخذنى جنى فاستطاربى فلم أزل عنده حتى وقع بينه وبين فريقين من الجن حرب فأعطى الله عهدا ان ظفر بهم أن يردنى عليك ، فظفر بهم فردنى عليك .. فاذا هى قد شحب لونها وتمرط شعرها وذهب لحمها وأقامت عندنا فصلحت فخطبها بنو عمها فزوجناها ، وقد كان الجنى جعل بينه وبينها امارة اذا رابها ريب أن تدخن له ، وان ابن عمها ذاك عيب عليها وقال : جنية شيطانة . ماأنت بانسية . فدخنت فناداه مناد : مالك ولهذه ؟ لو كنت تقدمت اليك لفقأت عينك ، رعيتها فى الجاهلية بحسبى وفى الاسلام بدينى .. فقال له الرجل : ألا تظهر لنا حتى نراك ؟ قال : ليس لنا ذاك . ان أبانا سأل لنا ثلاثا : أن نرى ولا نرى ، وأن نكون بين أطباق الثرى ، وأن يعمر أحدنا حتى تبلغ ركبتاه حنكه ثم يعود فتى . فقال ابن عمها : ألا تصف لى دواء حمى الربع ؟ قال : بلى . قال : ما رأيت تلك الدويبة على الماء كأنها عنكبوت ؟ قال : بلى ! قال : فخذها ثم أشدد على بعض قوائمها خيطا من عهن فشده على عضدك اليسرى ففعل . قال : فكأنما نشط من عقال . فقال الرجل يا هذا ألا تصف لنا من رجل يريد ماتم له

النساء ؟ قال : هل ألمت به الرجال ؟ قال : نعم . قال : لو لم يفعل وصفت لك .. »

وجاء فى كتاب آكام المرجان بعد نقل هذه القصة جملة أخبار من قبيلها يتلقى فيها الانس عن الجن علما من علوم الطب لعلاج بعض الامراض ومنها أمراض لها فى عرف الاقدمين علاقة بالجن كالصرع والوهم والهزال ، وبعض هـــذا العلاج دواء وبعضه من الرقى والتمائم التى تدخل فى طب السحر والكهانة

وما من صناعة بلغت مبلغ الاعجاز فى رأى قوم الا كان لهاتفسير من معونة الجن أو المردة ، ويرجعون فى هـذا التفسير الى الخبر المنقول كما يرجعون الى المجاز والتخيل . فمما نقله الشعراء من أخبار الرهبان ونساك البيع قبل الاســلام قول النابغة عن معابد بعلبك أو تدمر

الا سليمــــان اذ قـــال الاله له
قم فى البرية فاحـــددها عن الفنـــد

وخيس الجن أنى قـــد أذنت لهم
يبنون تدمر بالصـــفاح والعمـــد

وجاراه البعيث فى قوله :

بنى زياد لذكـر الله مصـــــنعة
من الحجارة لم يعمل بهـــا الطين

كأنهـــا غير أن الانس ترفعهـــا
ممـــا بنت لسليمان الشـــــياطين

والبحترى يصف ايوان كسرى المهجور فيقول :

ليس يدرى أصـــــنع أنس لجن
ســـكنوه أم صـــنع جن لأنس

فهو هنا يرى بناء فخما مهجورا يصح أن يكون من صنعة الانس للجن لانه خراب موحش كمساكن الجان ، ويصح أن يكون من صنعة الجن للانس لانه فيما هاله من فخامته أكبر مما تبلغه طاقة الانسان

***

ولا يفهم القول بتسخير الجان لخدمة الفنون فهما صحيحا الامع التفرقة الواجبة بين نوعين من التسـخير ينبغى ألا يلتبس أحدهما بالآخر فى هذا المقام

فالتسخير الذى يشمل بنى آدم جميعا ويشـمل القوى والعناصر جميعا غير التسـخير الذى يأتى فلتة من حين الى حين بالحيلة التى يحتالها الشيطان أو يحتالها الانسان ، ولا تبلغ بحال من الاحوال أن تساق مساق التعميم فى الكلام على خلق الاحياء وخلق السموات والارضين

فمن التسخير الذى يجرى مجرى النواميس الكونية قوله تعالى فى القرآن الكريم ((**وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه**))

وقوله تعالى : « **ألم تر أن الله سخر لـكم مافى الارض والفلك تجرى فى البحر بأمره** »

وقوله تعالى : « **ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات وما فى الارض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** »

وقوله تعـالى عن داود وسليمان : « **وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمنـاه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شـاكرون ، ولسليمان الريح عاصفـة تجرى بأمره** »

ولم يرد فى القرآن الكريم ذكر لتسخير الجن والانس والحيوان الا بهذا المعنى ، ومنه ماجاء عن تسخيرها لسليمان « **وحشر لسليمان جنـوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون** »

ومنه : « **والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الاصفاد** »

فهذا التسخير الذى يفهم منه أن الانسان قد أوتى علما يسيطر به على القوى والعناصر وما فى الارض ، انما يجرى مجرى النواميس الكونية على عمومها ، ولا يخص به انسان من الناس الا كما يخص بحلم بناء السفن وصوغ الحديد واستخدام الريح بأمر من الله فى غير احتيال من الشيطان أو اختلاس من الانسان

وليس من قبيل هـــذا التســخير مايقال عن أسرار السـحر والطلاسم وأغراض التحالف والمخادنة بين الاناسى والشياطين

فذاك تسخير تجرى فيه ارادة الله وقدرة الانســان وأحكام القوى والعناصر كيفما سميناها ، مجرى العموم المطرد فى النواميس الكونية التى يعلمها من يقدر على علمها

أما التسخير المقصود بالسحر وما اليه فهو الى خرق النواميس أقرب منه الى مجاراتها والعمل بارادة الله فيها ، وانما تخرق فيه هذه النواميس بثمن يبذله الساحر من روحه أو جسده ، كأنه محاباة الرشوة وجزاء المخالفة والمروق عن مجرى الامور

***

ونعود الى عمل الشيطان فى الفنون فنلاحظ أن ملكة الخيـــال تتقارب فى رواياته وأقاصيصه بين المشرق والمغرب كأنها تصدر من انسان واحد ، يتخيل الشيء الواحد فى أوقات مختلفات ــ

فالعرب يتحدثون عن شياطين الشعراء ، واليونان ــ ومن نقل عنهم ــ يتحدثون عن جنيات الفنون التى اصطلحنا على تسميتها بالعرائس ولم نسلبها بذلك نسبتها الى الجان . وقد قيل عن سقراط أنه كان

يستمع وحى الحكمة من جنى أو شيطان كأنه يستمع الى صوت صديق من الانس يحاوره ويناجيه

وقصة الموصلى مع ابليس لها نظير من قصة الموسيقى الايطالى جيوسبى ترتيانى فى أوائل القرن الثامن عشر (١٧١٣) حيث كان نزيلا بأحد الاديرة فجاءه الشيطان فى المنام وتناول قيثارته وعزف عليها لحنا أذهله ، ولكنه لم يذكره كله حين أيقظه ابليس وتحداه أن يعيده كما سمعه ، فقنع منه بما وعاه وسماه هزة الشيطان

والمردة الذين كانوا يقيمون الصروح فى الشرق يضارعهم فى اليونان جماعة المردة المشهورين باسم « التيتان »

والاطباء فى القرون الوسطى كانوا ينافسون الكهنة فى صلواتهم ودعواتهم للمرضى فيتعلمون من الشيطان تلك الرقى والتمائم التى يزيفونها باسم الطب ويشترون بها أرواح المصابين ثمنا لما يخدعونهم به من ظاهر الشفاء وباطن الهلاك والبوار

***

والحكم على شياطين الفنون من الوجهة الدينية متقارب فى المشرق والمغرب

فالغالب على شياطين الفنون أنها شياطين قدرة وابداع وليست بشياطين غواية وافساد

ولكن الفنون قد تستخدم للغواية والفتنة كما تستخدم للزينة وابراز معانى الجمال ، وكان جرير يفخر بشعره فيقول أنه من رقى الشيطان ويمدح الرجل الصالح فيقول مامعناه أن الله عصمه من شعره .

رأيت رقى الشيطان لاتستفزه
وقد كان شيطانى من الجن راقيا

فاذا كان الفن من آلات الاصلاح والفطنة فشيطانه من شياطين القدرة والجمال ، واذا كان من آلات الفتنة والغواية فشيطانه من

جنــد ابليس ، وقد قال الامام ابن الجوزى فى فصـــل من كتابه « تلبيس ابليس »وحرم فى نهايته غناء التطريب واللهو .. قال فى أوله : « وفصل الخطاب أن تقول ينبغى أن ينظر فى ماهية الشيء ثم يطلق عليه التحريم أو الكراهة أو غير ذلك ، والغنـاء اسم يطلق على أشياء منها غنـــاء الحجيج فى الطرقات فان أقواما من الاعاجم يقدمون للحج فينشدون فى الطرقات اشـعارا يصفون فيها الكعبة وزمزم والمقام وربما ضربوا مع انشادهم بطبل فسماع تلك الاشعار مباح وليس انشادهم اياها مما يطرب ويخرج عن الاعتدال ، وفى معنى هؤلاء الغزاة فانهم ينشدون اشعارا يحرضون بها على الغزو ، وفى معنى هذا انشاد المبارزين للقتال اشـعار التفاخر عند النزال ، وفى معنى هذا اشعار الحداة ... وأن رســـول الله صلى الله عليه وسلم مال ذات ليلة بطريق مكة الى حاد مع قوم فسلم عليهم فقال : ان حادينا نام فسمعنا حاديكم فملت اليكم ... وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حاد يقال له أنجشة يحدو فتعنق الابل ؛ فقال رسول الله : يا أنجشة رويدك ! رفقا بالقوارير . وفى حديث سلمة بن الاكوع قال : خرجنا مع رسول الله الى خيبر فسرنا ليلا فقال رجل من القوم لعامر بن الاكوع : ألا تسمعنا من هنياتك ؟ وكان عامر رجلا شاعرا فنزل يحدو بالقوم يقول

لا هم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فألقيــن ســـكينة علينـــا وثبت الاقدام اذ لاقينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هــذا السائق ؟ قالوا عامر بن الاكوع ، فقال يرحمه الله .. »

ولنذكر مع كلام الامام ابن الجوزى أنه ألف كتابه للكشف عن تلبيس ابليس فلم يدع طائفة الاكشف منها لونا من ألوان هذا التلبيس ، ولم يستثن الحكماء والفلاسفة والمتصوفة والنساك ، فما بالك بأصحاب الفنون وقالة الشعر ومنشدى الغناء



[illegible]

يغلب أن يكون شيطان الشعر من خلق الشعراء أنفسهم ، وأن يكون الكلام عنه لاحقا لظهور الشعر وانتشاره ، فان لم يكن هذا الشيطان مخلوقا شعريا فهو مخلوق خيالى أبدعه كاهن قديم أو مفكر من مفكرى الجاهليات الغابرة له خيال كخيال الشاعر ، وقد تشابه أسلوب السحرة والكهان فى نبوءاتهم المزعومة باللغات المعروفة بين أهل المشرق والمغرب ، فكلها تتوخى الســجع والقافية وتخالف كلام الساحر أو الكاهن فى سائر أقواله ، ليصح القول فيها أنها من وحى غير وحيه ومصدر باطن غير مصـــدر تفكيره الظاهر ، فاذا نسب الشعر الى مصدر كمصدر السحر فالخطوة قريبة والقياس معقول . ولم يزل بين الشعر والسحر نسب قديم

على أن خيال الشعراء يعمل فى تصــوير كل كائن غير منظور ولو لم يكن من خلق الشاعر . وشيطان الاديان لم يخلقه الشعراء ولكنهم صوروه فى الصور التى تتمثل للعين والصور التى يدركها الفكر وتلم بها أحــلام اليقظة . وندر من الشعراء ، خاصة ، من سمع بالشيطان ولم يصوره لنفسه على صورة قابلة للتمثيل فى العيان أو للتجسيم على يد الفنان ، وقد صنع له المثالون الغربيون

تماثيل على صورة الانسان ذات ذنب وقرنين وظلف كأظلاف الجداء،
وجاء فى الشعر العربى مايصلح أن ينقل منه تمثال محسوس كما قال
بعض الاعراب فى رواية الخليل بن احمد :

وحافر العير فى ساق خدلجة

وجفن عين خلاف الانس فى الطول

ويوشك كل من تصوره من العرب أن يجعله على مثال انسانى
منحرف بعض الانحراف أو مشوه فى أصل الخلقة لمجرد المخالفة
بينه وبين الملامح الانسانية ، ومن ذاك وضع العين بالطول وتخيله
بعين واحدة فى وسط جبهته ، الى أشباه ذلك من التشويه المقصود
لمجاراة الخيال فى استلزام المخالفة بين منظر الانسان ومنظر
الشيطان . وعلى نقيض ذلك كان تصوير شاعر الفرس ــ السعدى
الشيرازى ــ للشيطان الذى رآه فى الحلم . فقد رآه « بقامة كفرع
البانة وعينين كأعين الحور وطلعة كأنها تضىء بأشعة النعيم » ..
ولما علم أنه الشيطان أدهشه أن يكون الرجيم البغيض بهذه
الوسامة المحبوبة ، وسأله فلاحت على طلعته كبرياؤها وقال :
« لاتصدق يا صاح أنه مثالى ذاك الذى رأيتهم يمثلونه . فان
الريشة التى ترسمنى تجرى بها يد عدو حسود . سلبتهم السماء
فسلبونى الجمال .. »

ولا يعنينا فى هذا الفصل نقل الصور « الحسية » التى اخترعها
الشعراء والفنانون لذلك الكائن المحتجب عن النظر ، ولكننا نجمع
هنا بعض أوصافه التى تقع فى روع المتخيل أو تعرض للفهم عن
تفكير واستنباط ، وليست هذه الاوصاف بالكثيرة ولا بالمتباعدة فى
جوهرها ، وليس فيها من ابتداع الا والمنطق يوحى به لزاما فى
أوصاف الشياطين على أجمالها ، وانما الجديد فيها قدرة الشاعر على
ابراز «الشخصيات» وتلوينها بألوانها الخلقية ، وكل هذه الشياطين
التى جاءت « مشخصة » فى أقوال شعراء الغرب قريب من قريب

وليس أشهر فى « الشخصيات » الشيطانية المسرحية من شياطين مارلو وجيتى وملتون وبليك وكاردوتشى ، من شعراء القرن السادس عشر فما بعده . فانهم هم الشعراء الذين خلعوا على الشيطان مسحة مسرحية من فنهم ، ولم يكن تصويرهم للشيطان كله نسخة منقولة من الشيطان كما صورته كتب اللاهوت ، ولم يرد شيطان كاردوتشى فى قصة مسرحية ولكنه مثله على مثال الشخصيات السياسية التى تقوم ببعض الادوار على مسرح الحوادث

ولد كريستفور مارلو Christopher Marlowe الشاعر الانجليزى فى سنة ١٥٦٤ وظهرت فى حياته قصة الساحر فوستوس بالالمانية ثم ترجمت الى اللغة الانجليزية ، ومدارها على رجل ساحر متعطش الى المتعة والسطوة لم يجد بغيته منهما فى العلم والفقه فأقبل على كتب السحر الاسود يلمتس منه القدرة على تسخير الشيطان لما يهواه ، وتعاقد مع الشيطان على قضاء أربع وعشرين سنة فى المتعة التى يهواها ، ثم يسلمه روحه ليهبط بها الى الجحيم

ويجرى الحوار بين فوستوس والشيطان عند التعاقد بينهما كما يأتى :

مفستوفليس : فوستوس ! أقسم بالجحيم وليوسيفر أن أنجز جميع الوعود التى اتفقنا عليها

فوستوس : اذن دعنى أقرأها على الشرائط التالية

أن يكون فوستوس روحا فى الصورة والهيولى

وأن يكون مفستوفليس خادمه وطوع أمره

وأن مفستوفليس يجيبه الى كل طلب ويحضر له كل مطلوب

وأن يكون فى بيته أو مكتبه غير منظور

وأن يظهر لجون فوستوس فى كل وقت كما يجب

وأنا الدكتور جون فوستوس من ويرتنبرج ، بهـــذا الجزاء ،

أضع جسدى وروحى بين يدى ليوســـيفر أمير المشرق ووزيره مفستوفليس ، وأفوض لهم بعد أربع وعشرين سنة كل التفويض بناء على هذا العقد المســجل غير منقوص ولا منقوض ، أن يبحثوا عن هذا المدعو جون فوســتوس حيث كان وأن يحملوه جســدا وروحا ولحما ودما ومالا ومتاعا الى حيث يقيمون

ويتسلم مفستوفليس هذا العقد موقعا بدم الساحر بدلا من المداد

ويظهر مفستوفليس في الرواية باسم ملك السوء حينا وباسم الشيطان أو باسمه المشهور فى أكثر الأحيان ، وهو رئيس لزمرة من الشياطين مرءوس لابليس المسمى هنا باسم ليوسيفر زميل بعلزبول ، ومن مرءوسيه سبعة شياطين متآمرين هم شيطان الكبرياء وشيطان الطمع وشيطان الغضب وشيطان الحسد وشيطان الشهوة وشيطان الكسل وشيطان الدعارة

ويقضى الدكتور فوستوس أيامه مع الشياطين مستمتعا بما يهواه من حسان الدنيا وحســـان التاريخ ، ومنهن « هيلينا » التى فتنت اليونان الاقدمين وباريس التى نالت الجائزة قديما فى مباراة الجمال

ويغلب على ليوسيفر ـ كما صوره مارلو ـ أنه يضع الامور فى مواضعها ويطلب حقوق الشر كما يدعيها ويعطى الخير حقوقه كما تجب ، فهو ييئس الساحر العالم من سعى السيد المسيح فى خلاصه وينبئه أنه عاجز عن انقاذ روحه ، ولكنه لايرد هـــذا العجز الى غلبته ورجحان الشر على الخير فى حوله وحيلته ، بل يرده الى عدل المسيح وأنه ليس من العدل أن ينجو من لم يكن أهلا للنجاة، ولا ينكر الشيطان جدوى الندم والبكاء واستجابة الصلاة والدعاء ،

ولكن الشيطان يستخدم حقه ـ على حكم العهد ـ فى تقييد يدى الساحر فلا يقدر على رفعها الى السماء ، ونزف دموعه فلا يقدر على البكاء ، وعقد لسانه فلا ينطق بالصلاة والدعاء

***

ويأتى ملتون (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤) بعـد مارلو بفترة وجيزة فى التاريخ الزمنى ، ولكن الشيطان الذى صـــوره ملتون أهم من الشياطين « الشعرية » التى صــــورها من سبقوه ولحقوه فى هـذا الموضوع بين شعراء الغرب . ومن الدراسات التى تناولته دراسة الشاعر من الوجهة النفسية ، ودراسة الادب والبلاغة ، ودراسة العقائد وعلاقتها بالعصر والاحداث السياسية ، ودراسة الاطوار التى تتمثل فيها التقوى حيث تتراءى أحيانا على نحو يوافقها كما تتراءى على نحو يناقض مظهرها وغايتها

فالشاعر ملتون كان من المتدينين المتطهرين ، وكان أمين السر اللاتينى فى حكومة الثورة ، وكان وثيق الصلة بالقـائد كرومويل الذى قاد الثورة على الملك شارل الاول ، وقد عمى فى أواخر أيامه وشمت به شارل الثانى فقال له : ألا ترى يامســتر ملتون أن الله عاقبك بفقـد بصرك على ماكتبته فى أبى ؟ وكان ملتون مشــهورا بسرعة الجواب ، وأجوبته فى قصيدة الفردوس المفقود تعرض لقارئها أمثلة كثيرة على هذه القدرة فى حوار الشيطان والملائكة ، فأسرع الى الجواب قائلا : وعلى أى ذنب عوقب أبوك بفقد رأسه ؟

وملتون لم يبدع قصيدته كل الابداع ، بل استعار من جليوم دى بارتاس Bartas (١٥٧٨) فى قصيدته أسبوع الخليقة ، واستعار من افيتوس Avitus فى قصيدته عن الخليقة والسقوط والنفى من الفردوس ، واســتعار من القصص الشعبى الذى كان يدور حول مأساة آدم وحواء ، ولكن هذه القصص جميعا نسيت

أو كادت وبقيت قصته لبلاغتها ودلالة صورها وتشبيهاتها واتساعها لتلك الدراسات المنوعة التى أشرنا اليها

يقول الشاعر دريدن أن الشيطان هو بطل ملحمة « الفردوس المفقود » دون من فيها من الشخصيات العلوية والسفلية ، ويرى النقاد الادبيون رأى دريدن فى هذه الملاحظة ، فان ملتون قد حول التفات القراء الى الشيطان بما ألقاه على لسانه وماشرحه من مزاعمه ومواقفه . وهو لايعفيه من الذم واللعن والاستنكار ، ولكن عباراته التى يذمه بها ويستنكر بها فعاله انما تأتى مجاراة للعرف الشائع الذى يتشابه فيه كل قائل ، على حين تبرز الأعمال والاقوال التى ينسبها اليه أو يضعها على لسانه بروزا قويا موفور النصيب من عناية الشاعر واعجابه ، وسر ذلك ــ مع تشيع ملتون للمتطهرين الدينيين ــ أنه كان ثائرا ووجد فى تمرد الشيطان فرصة للافصاح عن حجج الثورة ودواعيها ، وربما ظهر من دراسة الشيطان فى قصيدة ملتون أنه يمثل شارل الاول فى بعض الخلال كما يمثل كرومويل فى حالات أخرى . غير أنه كان يمثل شارل الاول فى الخلال التى يعيبها الشاعر ويضيفها الى خبائث الشيطان ومساوئه ، ويمثل كرومويل فى الصلابة والجرأة والاعتزاز بالنفس ، وفى مجموعة تلك الخلائق التى جعلته يطلب المكان الاول فى جهنم ولا يقنع بالمكان الثانى فى السماء

ويلقى ملتون على لسان الشيطان أنه يرثى للملائكة الذين يحاربونه فى صف الاله وهو الذى غضب لهم وأنف من المهانة التى تلحقهم بتفضيل بنى آدم عليهم ، وأنه لولا صواعق السماء لماطمعت جنود السماء فى الغلبة عليه . وتخيل ملتون شيطانه فى بعض مواقفه كأنه سلطان شرقى يستوى على ديوانه ويحيط عرشه بوزرائه وأعوانه ، وتخيله فى أكثر المواقف على هيئة المغلوب الذى يؤسف على هزيمته ولا تراد له الا لانه قضاء لا مرد له من الله . وقد

تضطرب صور الشيطان بين موقف وموقف الا صورة واحدة تثبت له فى جميع مواقفه ، وهى الصورة التى ترضى الشاعر حين يتخذه لسانا ناطقا بحجج المتمردين وحين يتخذه شبحا يحمله أوزار الطغاة وذوى الجبروت ، فان ملتون هو ملتون فى الحالتين ، وان بدا الشيطان فى صورة مضطربة كلما سامه أن يمثل الحالتين ، ولا يندر أن تتقابلا مقابلة النقيضين

ولعل القول الاصح أن الاختلاف بينهما انما هو اختلاف دورين لا اختلاف شخصيتين • فقد كان الفرق بين كرومويل وشارل الاول فرق الطرفين المتقابلين والعدوين المتقاتلين ، ولكنهما فى الطبائع الشخصية لايتقابلان هذا التقابل على طرفى الميدان ، بل يتقاربان تقارب الاشباه والنظراء

***

وفى هذه الأسطر محل لأديب من معاصرى ملتون يقتحمه اقتحاما بحكم المعاصرة والاشتراك فى الحرب الاهلية والكلام عن الشيطان ، ولا محل له الى جوار ملتون بغير هذه المعاصرة وهده المناسبة ، ونعنى بهذا الاديب جون بنيان Bunyan مؤلف رحلة الحاج والحرب التى شنها شداى على أبليس • وابليسه غاصب محتل لمدينة الروح الانسانية يحاصره عمانويل ابن بانى المدينة شداى — اسم من أسماء الله عند العبريين — ثم يستولى عمانويل على المدينة ويتغلغل فيها ابليس وجنوده بالمكر والدسيسه ويستردها جميعا ماعدا قلعتها المحصنة وهى ضمير الانسان المؤمن بكفارة الخلاص

***

أما الشيطان الذى يلى شخصية ابليس فى الفردوس المفقود فهو شيطان رواية فوست التى ألفها شاعر الالمان الاكبر جيتى (١٧٤٩ — ١٨٣٢) وجعل فيها للشيطان مفستو فليس دورا بين الارض والسماء وبين الخالق والمخلوقات غير الدور الذى تقدم فى رواية

مارلو • فان مفستو فليس فى رواية جيتى هو بعلزبوب نفسه وليس زميلا أو تلميذا من تلاميذه ، ودوره فى هذه الرواية يعم ظواهر الوجود كله ولا تحده المهمة التى يندبه لها فوست وأمثاله

وهو يصف نفسه مرة بأنه « جزء من القوة التى امتزجت بالسوء قديما ولكنها لاتفتأ تصنع الخير »

ويصف نفسه مرة أخرى بأنه القوة النافية التى تقول « لا » أمام كل ايجاب

ويوصف فى جميع الاحوال كأنه المفسد الذى يتخلل مفاتيح المعزف بالزوائد والعوائق كلما انتظمت عليها نغمة من نغمات النظام

ويقول مفستو فليس للدكتور فوست أن الوجود كله عبث وأنه كان من الخير ألا يوجد • فيقول فوست : والآن علمت ماتريد •• انك لم تستطع أن تعدمه جملة فأنت تشيع العدم فيه بالتجزئة أو تبيعه بالمفرق !

وقد وضعت قصة فوست على غرار قصة أيوب فى العهد القديم ، وظهر الشيطان فى أولها يقول لله أنك خلقت العقل للانسان لتميزه على البهائم ، ولكنه يستخدمه ليصبح دونها فى الشر والجهالة ، وانني لا أبالى أن أشقى بنى آدم فانهم متكفلون دونى باشقاء أنفسهم • ثم يقع الرهان على روح العالم فوست الذى يئس من البحث والعلم وآب الى البؤسى التى يستطعم معها مذاقا للحياة ، فيتفق الشيطان والعالم على شروط كالشروط التى تقدمت فى رواية مارلو ، ويأخذه الشيطان الى وكر الساحرة لتعيده باشرافه –أى اشراف الشيطان– الى الشباب • فيعاف العالم ذلك الوكر ويسأل مفستو فليس : أما من وسيلة غير هذا السحر القبيح لتجديد الشباب ؟ فيجيبه مفستوفليس : بلى ! هناك وسيلة أهديك اليها •• تذهب الى الغيط وتحرث وتكرث وتأكل اللقمة التى تجدها وتحصر الحياة فى أضيق

حدودها ، وتأتى عليك الثمانون وأنت فى غرارة الشباب

قال فوست : لست بهذا ... قال مفستو فليس : اذن لا مناص من السحر والساحرة ، وسأله فوست : ولم الساحرة ؟ فأجابه الشيطان : انها صناعة صبر طويل لا أطيقه ، ولابد لكل صناعة من أحكام

وتبدأ الغواية برؤية الفتاة مرجريت عائدة من كرسى الاعتراف فيشتهيها فوست ويروضها له الشيطان ويتواعدان على اللقاء بعد أن تنام أمها بجرعة مخدرة ، فتموت الام بالجرعة وتحمل مرجريت ثم تلد فتقتل وليدها ، وفى خلال ذلك يأتى أخوها الجندى فيطلع على سر هذه الفاجعة ويذهب الى فوست ليقتله فيقتله فوست فى مبارزة بينهما ، ثم يغلبه الحنين فيعود الى مرجريت ويعلم أنها سجينة وييسر لها وسائل الخلاص من السجن فتأبى وتتقبل العقوبة المنتظرة للتكفير عن جريمتها ، ثم تصعد روحها الى السماء فيقول القائلون : لقد هلكت . وتهتف الملائكة : لقد نجت باذن الله !

ويمضى فوست فى تجربة أخرى غير تجربة العشق والغواية ، فيرتفع فى عينى الملك وينال مايرضيه من السلطان بالحظوة لديه ، ويطمعه الشيطان فى المزيد من الجاه والملك فيعاوده الحنين الى العشق وغواياته ، ويسوم شيطانه هذه المرة أن يبعث له الفاتنة « هيلينا » من الاموات فيبعثها ويأتى بها اليه ، ولكنها تراوغه اذ يضمها الى ذراعيه ، فلا يجد منها غير جلبابها فى يديه !

وكان فوست بعد مصرع مرجريت قد آلى على نفسه ليذوقن كل ألم يبتلى به بنو آدم لينسى جنايته على الفتاة البريئة وعلى أمها وأخيها ، ويخشى الشيطان عاقبة هذا الندم فيشغله عنه بدسائس القصر وضجته ، ويوشك أن ينسيه الندم لولا سآمة ترين على صدر العالم الحكيم فيزهد فى كل ما احتواه ويربأ بعقله وحكمته عن

هذه الصغائر التى تلهيه . ويسأل : أين هى السعادة ؟ فيعلم أنه لم يجدها قط فى لهـوه الاول ولا فى لهـوه الاخير ، ثم يلوح له أن يستخدم علمه فى تعمير الخراب واصلاح البوار ومعونة الضعفاء ، وانه لكذلك اذ تحين ساعته وتخرج روحه فيهم الشيطان بقبضها للهبوط بها الى الجحيم ، وتنزل الملائكة من السـماء فتنازعه عليها وتقول له أنه قـد خسر الرهان . لان فوست على ما اقترف من جريمة ورذيلة ، قد عاش وهو يتجه بعينيه الى النور ومات وهو متجه اليه

***

وأغرب الشـياطين الشعرية كافة ذلك الشـيطان الذى ابتدعه خيال وليام بليك بين أواخر القرن الثـامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وليس هو على هذا بأغرب من خيال الشاعر الذى ابتدعه . فانه شاعر فى العصر الحديث يدين جدا وصدقا بالمذهب الثنوى ومذهب المعرفيين Gnostics الذى ذهب معتقدوه بذهاب القرون الوسطى

كان بليـك من أتباع المتنبىء السـويدى سويدنبرج ، وكان سويدنبرج من أصحاب الرؤى المصدقين لما يعتريهم من حالات الوجد والنشوة الدينية ، ووقر فى خلده بعد أن جاوز الخمسين فى منتصف القرن الثامن عشر أنه يتلقى الوحى من عالم الغيب ، فاعتزل وظائف الدولة وأعلن خروجه على المذاهب المتبعة وبشر برسالته التى سماها المسيحية الحقة ، وفسر الكتب المسيحية تفسيراً يخالف التفسيرات التى اعتمدتها الكنائس الكبرى ، ثم هجر وطنه وأقام بالعاصمة الانجليزية حتى مات بها (سنة ١٧٧٢)

ودرج بليك فىحجر أسرة انجليزية تدين بمذهب سويدنبرج ولـكنه انقلب عليـه ولم يرجع الى مذهب من مذاهب الـكنائس

المعروفة ، بل راح يستقل بتفسيراته وتأويلاته على حسب ما يستوحيه من تفكيره والهامه ، ولم يكن على علم بشيء من اللاهوت ولا من معارف عصره ، لانه لم يدخل مدرسة منتظمة فى صباه

وشيطانه يصح أن يكون فكرة مجردة كما يصح أن يكون روحا انسانيا أو ملكا من الملائكة المغضوب عليهم ، بل يصح أن يكون عنوانا يضعه الشاعر على كل « شخصية » مفروضة تنتمى الى الشر والخيانة ، وعنده أن الشر كل الشر هو الصرامة فى الأوامر والنواهى والتشدد فى المحللات والمحرمات . فكل رب جاء عنه فى الأساطير الغابرة والديانات الأولى وصف العبوس والجهامة واتسم فى ضمائر عباده بالقسوة والصرامة فهو شيطان يترقى فى الشيطانية على حسب قسوته وصرامته الى منازل الآلهة الوثنيين المنعوتين بآلهة الشر أو آلهة الظلام . ومن أوهامه التى لايدرى أحد أهى أوهام شعر أم أوهام اعتقاد ثابت ـ أن روح الشاعر ملتون حلت فيه لتكفر عن خطيئتها فى تصوير السيد المسيح وتصوير ابليس ، وان الكتب القديمة أدخلت فى أذهان الناس أن الانسان ذو حقيقتين جسدية وروحية ، وأن نشاط الجسد من الشيطان ونشاط العقل من الروح ، وان الله يعذب الانسان عذاب الابد لمطاوعته بواعث جسده ، ولكنه من الحق الذى يناقض هذا أن جسد الانسان غير منعزل عن روحه لأن حواس الجسد هى منافذ الروح الى المعرفة ، وان النشاط كله من الجسد دون غيره وليس العقل الا الحدود التى تحيط بذلك النشاط ، وان النشاط هو الفرح الابدى وما عداه كسل واحجام عن الحياة

ولم ينشر بليك مؤلفاته لانه كان يمقت الطباعة ويناظرها بأدوات من اختراعه للنقش والرسم والكتابة يرى أنها أليق بالوحى الروحانى من تلك المطبوعات الصناعية . وقد جمعت آثاره بعد

موته من قصاصات مشعثة يدون فيها خواطره ويتم بعضها ويترك بعضها مبتورا فى نهايتــه أو مبتورا فى أوله ووسطه ، وهذه شذرة منها تعود أن يدونها بعنوان خطرة مذكورة ، وفى الخطرة التالية عن الشيطان والملك يقول :

« رأيت يوما شيطانا فى لهيب النار يرفع هامته الى ملك جالس على سحابة ، ويصيح به : اســمع ياهذا . ان عبادة الله هى تمجيد هباته لغيرك على قدر هذه الهبات ، واختصاص أعظم الناس بأعظم المحبة ، وما الذين يحسدون العظيم أو يفترون عليه الا أعداء لله . فلا اله غير ذاك

« وسمع الملك مقاله فازرق ثم ملك جأشـــه فاصفر ثم سكن فابيض وعلته حمرة وابتســـامة ، وقال : ياعابد الصنم ! أليس الله بالاله الأحد ؟ أليس الله قد تجلى فى عيسى المسيح ؟ أليس المسيح قد بســط بركته على الوصــايا العشر ؟ أليس سائر الناس حمقى وخطاة وعدما ونكرات ؟ »

ثم يلقى بليك على لســان الشيطان ردا يقول فيــه : « اذا كان المسيح أعظم انسان فأحببه حبك للانسان الاعظم » .. ثم يحكى له الشواهد من أعمال المسيح ناقضا مايفهمه الاكثرون من الوصايا العشر ، ويختم هذه الشواهد قائلا : « لقد كان عيسى فضيلة كله ، لانه كان يعمل بباعث عطفه ولا يتقيد بالقيود »

وكل ما ألقاه بليك على ألسنة الشياطين فهو من قبيل ماتقدم ، مع التناقض الذى لايثبت فيه غير معنى واحد وهو التبرم بالاوامر الصارمة والفضائل الجافية ، والتفكير المنتظم ، وقد قال عن الملائكة أنها تحسب أنها دون غيرها تتحدث بالحكمة ، وكل من يفكر على قياس مطرد خليق أن يغتر هذا الغرور ، وأكثر النتف التى تركها تحمل عنوان الخطرة المذكورة وتجتمع فيها هذه الخطرات بعنوان

المقران بين السماء والجحيم ، وينعقد قران السماء والجحيم ولقاء الملك والشيطان فى رأيه بالعمل الذى يصدر من الحب ونشاط الجسد منبعثا بوحى الفطرة الصادقة

فالشيطان على هذا الاعتبار جيوش من الشياطين يجسمها القارىء أو ينظر اليها كأنها معانى الشاعر فى قريحته مطلقة بغير تجسيم وبغير شخصية مرتسمة فى الحس أو الخيال

***

وبعد شيطان بليك — أو شياطينه — لاتحفظ تواريخ الادب الغربى صورة لشيطان شعرى عمل فيها الفن وبواعث النفس وحوادث العصر غير شيطان كردوتشى شاعر الثورة الايطالية (١٨٧٠ — ١٩٠٧) وصاحب جائزة نوبل قبل وفاته بسنة

وتكاد قصيدة الشيطان من نظم كردوتشى أن تكون نشيد صلاة .. وقد سماها هو نشيدا ونظمها على وزن التراتيل التى تنشد فى الصلوات ، وقال فيها أنه لايحفل بالتاريخ القديم تاريخ حرب الشيطان مع الملك ميكائيل ، وأنه يحيى ابليس لانه قاهر الكهان ورافع علم الثورة ، ويناديه : لاتهرب منى حين أناجيك . فانتى أود أن انطلق اليك بروحى ولا يكفينى أن ألتقى بك فى الشعر والخيال ، ويختم النشيد قبل المقطوعة الاخيرة قائلا :

« انك أيها الشيطان لعظيم .. انك تعبر البحار وتطوى الأرضين .. انك تنفث الدخان كالبركان .. وتجوس خلال الديار ، وتمضى حيث تشاء كما تشاء »

وانطلاق الشيطان ، مع سخريته بالكهان ، هما آية الحرية عند كردوتشى الثائر على طغاة الدنيا والدين ، ولا يبعد أن يكون الشاعر — كما قال ابن وطنه جيوفانى بابينى — متأثرا بأستاذه ليو پاردى فى قصيدته عن اله الشر اهريمان صاحب القضاء النافذ فى الوجود

كله ، منفردا – فى رأى ليوباردى – بغير شريك من أرباب الخير أو ملائكته فى الزمن القديم أو الزمن الحديث

***

ونحن فى هذه العجالة يجزئنا ماتقدم فى باب شياطين الشعراء التى عمل فيها الفن واصطبغت بصبغة البواعث النفسية والحوادث السياسية ، ولم يستوعب هؤلاء الشعراء الذين ذكرناهم كل مايقال عن ابليس أو عن الشياطين كما يعتقدها أتباع المذاهب منذ القرون الوسطى ، فقد كان أكثر الشعراء يجربون قرائحهم فى مأساة آدم والشيطان ، ولعلنا نحيط بهذا العلم الزاخر اذا عرفنا أن رجلا مثل هوجو جروتيوس (١٥٨٣ – ١٦٤٥) الملقب بأبى القانون الدولى قد جرب قلمه وقريحته فى هذه المأساة ، وكان معاصرا للشاعر ملتون فانتشرت قصائده الى جانب القصائد الخالدة التى نظمها ذلك الشاعر المعدود اليوم فى الذروة بين أشعر شعراء العصور

وبعد زهاء قرنين أوحى اسم هوجو الى سميه الفرنسى الكبير فكتور هوجو (١٨٠٢ – ١٨٨٥) أن يجرب قلمه وقريحته على نمطه ، فنظم قصائده فى خاتمة الشيطان ونادى بموته ولحاقه بابليس جاحد ربه بين عقول كالخفاش الذى يخاف النور أو البومة التى تستهدى الظلام والغراب الذى يسلم الفضاء للنسر والعقاب والعنقاء ومن فوقها مرمى السهام التى لاتبلغ الهدف الا من وراء قناع الموت ! ودون ذلك كله وتنحسر أشواط الابالسة والشياطين

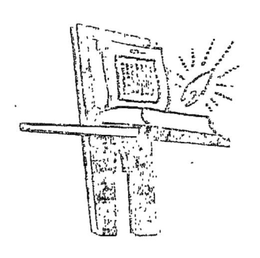
الا أن هذا المحصول الزاخر لايزيدنا لونا من ألوان الصورة فى ضمير المؤمن أو فى قريحة الشاعر ، وهذا الذى تحريناه فى اهمال ما أهملناه والالمام بما أشرنا اليه . بيد أننا لا نستطيع أن نهمل هنا صورة شيطانية تقترن باسم الشاعر الفرنسى بودلير صاحب ديوان أزهار الشر وناظم القصائد فى الابتهال الى الشيطان

« احكم الملائكة الذى سرق منه القضاء تناه والذى سجل عليه الطرد والحرمان من لايزال يخطىء ويغلط » .. فان هذا الشيطان عارض نفسانى يصور الانعكاس فى السريرة المشوهة فتعمد التوجه اليه على سبيل النقمة والنكاية وتصلى اليه ليشفق عليها كأنها تستجدى الشفقة الالهية ـ عكسا ـ بلسان اليأس والكبرياء»

وفيما عدا شيطان بودلير لانرى فى هذا الفصل موضعاللشياطين التى تخيلها الشعراء ولم تدخل فى عداد الصور الخلقية وخوالج الوجدان فى الانسان منفردا أو جزءا من أجزاء الجماعة . فالشاعر الروسى لرمنتوف خلق فى احدى قصصه شيطانا لايعدو أن يكون انسانا متكرا يزاحم الناس على العشق والشهوة ، والشاعر الانجليزى بيرون خلق شيطانا فى قصيدته « رحلةالشيطان » لايعدو أن يكون مخبر صحيفة يروى للقراء مايروى فى المجالس النيابية ومجالس السمر ، وغيره من الشعراء قد اختار اسم الشيطان ليجرى على لسانه كلاما يجريه بعض الشعراء الآخرين علىألسنة الطير والحيوان أو على ألسنة الشجر والجماد ، وكل أولئك لايأتى فيه شىء عن جبلة الشيطان غير حروف اسمه التى تغنىعنها حروف اسم من اسماء الحيوان أو الجماد .

أما الشيطان الذى نعرض هنا لذكره فهو الشيطان الذى يحوم فى النفس الانسانية وبين الجماعات البشرية فى تقاليدهاوموروثاتها ومقاييسها لخيراتها وشرورها ، وهو الشيطان الذى يطيف به خيال الشاعر معبرا عن شعوره ، وان لم يكن من عقائد دينه ، كالشياطين التى سميت بأسمائها فى الادب العربى : هبيد ومسحل والهوجل ـ وجهنام ، أو كالشياطين التى يعتقدها المتدين ويفتن الشاعر فى تصويرها لامتيازه بملكة الخيال وملكةالرمزوالتشخيص .. فهذه الشياطين قوى مشتركة فى طبائع الناس وقيم نفسية

يقومها الناظرون فى الاخلاق والطباع ، ولو رفعناها منها بأسمائها لبقى مكانها متطلبا منا ان نسميها بغير تلك الاسماء ، لانها لاتقبل السكوت عنها و لاتغفلها الحياة ان أغفلها اللسان (١)



(١) أهملنا فى هذا الفصل ما كتب على سبيل الهزل فى قصص الفكاهة كقصة رابيليه الفرنسى وبن جونسون الانجليزى ، فانهما صورا الشيطان غرا مخدوعا ليبالغا فى دهاء الفلاحين أو الرابين ، ولم يقصدا الجد فى تصوير شيطان معلوم أو تصوير الخلائق الشيطانية على العموم .

في الأدب العربي

يندر في الادب العربي تمثيل الشياطين الشعرية من قبيل تلك الشياطين التى حفلت بها ملاحم الشعراء الغربيين وقصائدهم ، لان شعراء العرب لم ينظموا الملاحم التى يتمثل فيها ابطالها بملامحهم الظاهرة وملامحهم الخفية . ونحسبهم لو نظموا هذه الملاحم لما كان للشيطان فيها هذا الشأن الذى أصابه فى أدب الغرب شعرا ونثرا . لان الادب العربى لاينسب الى الشيطان دورا فى قصة الخليقة والخلاص كالدور الذى ينسب اليه فى عقائد الادباء الغربيين ، فاذا نظم الشاعر العربى ملحمة عن الخليقة لم يكد يفعل فيها الشيطان فعلة غير ذلك الوسواس الذى يطرأ على كل سريرة آدمية فى ساعته كما طرأ على سريرة آدم أو سريرة حواء .

واذا تخيل المتخيل صفة للشيطان فى كلام شاعر عربى فلا نظنه يخرج منه بصفة غير تلك الصفة التى لخصها أبو نواس فى خليط من الخبث والحماقة . لانه

تاه على آدم فى سجدة
وصار قوادا لذريته

وربما تكرر من الشعراء الذين يشخصونه لأنفسهم ذلك الحوار الذى دار بينه وبين أبى نواس : حوار من يستعين بابليس على شهواته ويتوعد ابليس ان يتوب عن المعاصى ان لم ييسر له مايشتهيه ، وقد كان ابليس على هذه الصفة عند الشاعر الذى قال فيه :

ابليس أكرم من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الاشرار
النـار عنصره وآدم طينـة والطين لايسمو سمو النار

وذلك هو بشار بن برد الذى كان يتظرف بأمثال هذه البدوات ولا يأتى فيها بجديد من عنده ، لان المفاضلة بين العنصرين أقدم من بشار وأقدم من كل ماقاله الشعراء المسلمون عن ابليس ، ولم تخطر صفة ابليس على بال أحد من المتقدمين فى الاسلام الا كان يعلم ان أبليس من عنصر النار

على أن موضع ابليس من رسالة الغفران لأبى العلاء يشبه بعض الشبه مواضعه من ملاحم الشعراء الغربيين . فقد ذهب فيها الى أودية ليست كأودية الجنة فسأل صاحبه بعض الملائكة : ماهذه ياعبد الله ؟ فقال له : هذه جنة العفـاريت الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكروا فى الاحقاف وفى سورة الجن وهم عدد كثير .. ويسأل أحد العفـــاريت عن أشـــعار المردة فيقول له : لقد أصبت العالم بجدة الامر . وهل يعرف الانس من النظيم الا كما تعرف البقر من علم الهيئة ؟ ثم يسأله عن اسمه فيقول انه يدعى الخيثعور وانهم من غير ولد ابليس ، وانهم من الجن الذين سكنوا الارض قبل آدم عليه السلام

ويلقى فى جنة العفاريت شاعرا يسمى ابا الهدرس فيسمعه من نظمه قصيدة يقول فيها عن ايام طاعته لابليس :

نحارب الله جنـودا لأبلـ يس أخى الرأى الغبين النجيس
نســـلم الحـكم اليه اذا قاس فنرضى بالضلال المقيس

نزين للشارخ والشيخ أن	يفرغ كيسا فى الحنا بعد كيس
ونقترى جن ســليمان كى	نطلق منها كل غاو حبيس
ونخرج الحسنـــاء مطرودة	من بيتها عن سوء ظن حديس
ونخدع القسيس فى فصحه	من بعد ما منى بالأنقليس
ونعجل السعلاة عن قوتها	فى يدها كشبح مهاة نهيس
نادمت قابيل وشيثـا وها	بيل على العاتقة الخندريس

وفى أقصى الجنة يلقون الحطيئة والخنساء ، ويسألون الخنساء عن شأنها فتقول : احببت أن أنظر الى صخر فاطلعت فرأيته كالجبل الشامخ والنار تضطرم فى رأسه فقال لى : لقد صح مزعمك فى

وان صخرا لتأتم الهداة به   كأنه علم فى رأســـه نار

قال أبو العلاء عن صاحبه : « فيطلع فيرى ابليس لعنه الله وهو يضطرب فى الاغلال والسلاسل ومقامع الحديد تأخذه من أيدى الزبانية ، فيقول : الحمد لله الذى أمكن منك ياعدو الله وعدو أوليائه ، لقد أهلكت من بنى آدم طوائف لايعلم عددها الا الله ، فيقول : من الرجل ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان من أهل حلب كانت صناعتى الادب اتقرب به الى الملوك . فيقول : بئس الصناعة، انها تهب غفة ـ أى بلغة من العيش لايتسع بها العيال ، وانها لمزلة بالقدم . وكم أهلكت مثلك ! فهنيئا لك اذ نجوت ، فأولى لك ثم أولى . ان لى اليك حاجة فان قضيتها شكرتها لك يد المنون . فيقول : انى لا أقدر لك على نفع ، فان الآية سبقت فى أهل النار، اعنى قوله تعالى :**ونادى أصحاب النار أصحاب الجنـة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . قالوا ان الله حرمهما على الكافرين**

« فيقول ابليس : انى لا أسألك فى شىء من ذلك ، ولكنى أسألك عن خبر تخبرنيه . ان الخمر حرمت عليكم فى الدنيا وأحلت لكم فى الآخرة ، فهل يفعل أهل الجنة بالولدان المخلدين فعل أهل القريات ؟ فيقول : عليك البهلة . أما شغلك ما أنت فيه ؟ أما سمعت قوله تعالى : **ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيهـــا**

خالدون .. فيقول : وان فى الجنة لاشربة كثيرة غير الخمر ، فما فعل بشار بن برد ، فان له عندى يدا ليست لغيره من ولد آدم . كان يفضلنى دون الشعراء وهو القائل :

ابليس أفضل من أبيكم آدم — فتبينوا يا معشر الأشرار
النـار عنصره وآدم طينـة — والطين لا يسمو سمو النار

لقد قال الحق ، ولم يزل قائله من الممقوتين .

فلا يسـكت من كلامه الا ورجل من أصناف العـذاب يغمض عينيه حتى لاينظر الى مانزل به من النقم ، فيفتحهما الزبانية بكلاليب من نار ، واذا هو بشـار بن برد قد أعطى عينين بعد الكمه لينظر الى مانزل به من النكال .. »

***

وكل ماجد بعد المعرى من كلام يدخل فى باب القصة من الادب ويذكر فيه الشيطان — فهو تلك القصص التى جمعت باسم ألف ليلة وليلة واقتبس رواتها ماتداولته الالسنة من أخبار السحرة وتسخير المردة وقيام الجان على ارصاد الطلاسم أو حبسها فى الاغـوار والقماقم ، وهى لاتأتى بابتداع أو اختلاف أو زيادة على مااعتقده الناس ونظمه الشعراء

***

ولم يطرأ على الادب العربى جديد فى هذا الباب حتى مطلع القـرن العشرين . ثم نجمت فى أوائل القرن العشرين نوازع شتى للتوسع فى الاطلاع على آداب الامم والبحث فى موضـوعات الشعر وتعبيراته عند تلك الامم ، ومن موضوعاته الملاحم المطولة ، ومن تعبيراته تجسيم المعانى المجردة والعناصر الطبيعية وأرواح الغيب وكائناته المشبهة بتماثيل الاحياء .

ونحن فى هذا الباب خاصة لانبحث بحث المؤرخين أو النقاد

الاوربيين ، وانما نراجع ماأحسسناه واختبرناه ، ونفهم بواعث النظم والتأليف فى هذه الاغراض مما عالجنـاه وانبعثنـا اليه بوحى الاطلاع وعدوى الخواطر التى يوحيها

***

أول ماخطر لنا ان نقارن بين التشبيهات والمعانى المجسمة فى اللغات الاوربية واللغة العربية ، وكتبنا فى هذه المقارنة عن الكائنات الخفية وعن عجائب المخلوقات وعن الاساطير ، مما يطلع عليـــه القارىء فى كتاب « الفصول » ومجمع الاحياء ، وأحسسنا الحاجة الى تصوير بعض العواطف بصورتها الشعرية التمثيلية ، فأخذنا فى وقت واحد فى نظم قصيدة عن سباق الشياطين وتأليف كتابٌ نسميه « مذكرات ابليس » ونخصص كل فصل منه لغواية من الغوايات كالعشق الاثيم والسرقة والبغى والطمع وسائر هذه الآثام التى تذكر كلما ذكر الشيطان ، وكان ذلك حوالى سنة (١٩١٢) وبعد الاطلاع على طائفة من ملاحم الغرب وأساطيره . فأما سباق الشياطين فقد تمت القصيدة التى نظمناها فى موضوعه ، وأما مذكرات ابليس فلم يتم منها غير فصل واحد من فصول الاعور ابن ابليس الموكل بالعشـق الاثيم ، ثم بقيت النيـة مترددة حول هذا المطلب حتى تحولنا عنه بعد الحرب العالمية الاولى الى موضوع القصيدة التى سميناها ترجمة شيطان ونشرت فى الجزء الثالث من الديوان

وحوالى هذا الوقت ألف صديقنا الشاعر العبقرى الاستاذ عبد الرحمن شكرى كتابه النثرى الذى سماه « حديث ابليس » وقال فى مقدمته : « قد بدأ يكثر فى آداب اللغة العربية البحث النفسى والتساؤل والتفكير والتعبير عن حركات النفس وبواعثها ، ولكن كل ذلك لم يزل بعد قطرة لانعرف ان كان وراءها سيل أتى . وهـذا الكتاب فيه شىء كثير من البحث النفسى والتساؤل والشـك والسخر الذى هو محرك يحرك النفوس ويوقظها فهو يعبر عن

تلك الدنيا التي في كل نفس ، ففي فصل نصيحة ابليس مثلا ترى تحت السخر المودع في هذا الباب ما أرمي اليه من معائب النفوس الجامدة القبيحة التي تشبه مباول الطرق ، وقد جعلت ابليس ينصح بما ينبغي الانتهاء عنه »

وقد أطلعنا بعد الحرب العالمية الاولى على محاولات منوعة في هذه الاغراض لم يكن منها ما بلغ في جودته مبلغ العمل الفني خلال ثلاثين سنة أو تزيد ، ومنها مانظم في مصر وما نظم في غيرها من البلاد العربية ، حتى ظهر ديوان « عبقر » للشاعر السوري الاستاذ شفيق معلوف من صفوة أدباء المهجر بالبرازيل ، وكان ظهوره في الطبعة الاولى سنة ١٩٣٦ وأعيد طبعه في سنة ١٩٤٩ ثم ظهرت قصة الشهيد لزميلنا الكاتب الموهوب الاستاذ توفيق الحكيم ، وهي قصة صغيرة من مجموعة قصصية صدرت سنة ١٩٥٣ وتعد على صغرها من أجود ماكتب في هذا الغرض في جميع اللغات

***

أما قصيدة سباق الشياطين فخلاصتها ان ابليس جعل لتلاميذه جائزة ينالها من يعرض أعماله ويثبت للملأ من الشياطين قدرته على السبق في التضليل والاغواء . فانبرى سبعة من الشياطين يتنافسون عليها وهم شيطان الكبرياء وشيطان الحسد وشيطان اليأس وشيطان الندم وشيطان الحب وشيطان الكسل وشيطان الرياء ، فاستحقها هذا الشيطان الاخير ــ شيطان الرياء ــ ولكنه جرى على عادته فأظهر الزهد فيها وتنحى عن تناولها بعد اشتراكه في المنافسة عليها فخاطبه ابليس :

قال تأباها ولولاك انجلى　　غيهب الارض فكانت كالنعيم
دونك الدنيا اتخذها منزلا　　وتول اليوم أبواب الجحيم

***

وقصيدة ترجمة شيطان هي قصة شيطان ناشىء سئم حياة

الشياطين وتاب عن صناعة الاغواء لهوان الناس عليهوتشابهالصالحين والطالحين منهم عنده ، فقبل الله منه هذه التوبة وأدخله الجنة وحمه فيها بالحور العين والملائكة المقربين . غير أنه ماعتم أن سئم عيشة النعيم ومل العبادة والتسبيح وتطلع الى مقام الالهية لانه لايستطيع أن يرى الكمال الالهى ولا يطلبه ثم لايستطيع أن يطلبه ويصبر على الحرمان منه ، فجهر بالعصيان فى الجنة ومسخه الله حجرا فهو مايبرح يفتن العقول بجمـــال التماثيل وآيات الفـــون ، واستضحك ابليس بين جنده يوم انتهى المطاف بتلميذه الى هذه الخاتمة فقال :

ما أرى هــذا الفتى من دمنا
ومتى استغوى الشياطين الشرك
أترى شــيطانة من قومنـــا
أغوت الأملاك فهـو ابن ملك

.. .. ..

فتلاحى القوم ثم اسـتضحكوا
ودعـــا مازحهم شر دعـــاء
قال : فلتسلكه فيمن ســلكوا
أيها المولى سبيل الشــــهداء

***

والسمة التى يتسم بها ابليس فى رسالة الاستاذ عبد الرحمن شكرى هى سمة النقد الساخر تسرى فى الحديث من أوله الى ختامه ، ويدل بعضها عليها كقول ابليس عن أخلاق الانســـان والحيوان : « اننى أرى فى الحيوانات العجم خصالا هى فى الانسان ضئيلة خافية . فللكلب من الوفاء والامانة ماليس للانسان ،وللخيل من الود والولاء مالا يبلغ بعضه الانسان ، وللبغال والحمير من الصبر والحزم ماليس له ، وللقرود من الذكاء والفطنة وحب التقليد ماليس

له ، ولو فطنتم يابنى آدم لرأيتم أن تزوجوا بناتكم من البغال والحمير والكلاب والقرود لكى يكتسب نسلهن بالوراثة من حميد صفات هذه الحيوانات .. ولا تحسب أن النساء ينزعجن من هذا الزواج فانهن قد ألهمن فضائل الحيوانات وهذا تفسير ميلهن الى صغار الكلاب والقرود ...»

أو كقول احد الشياطين : « .. فالتفت ابليس الى وقال : سمعت أحد الملائكة يقول لحافظ من الحافظين وهو الملك الذى يحصى ذنوب الناس : مالى أراك منتوف الجناحين ؟ قال الملك عافاك الله من الناس ، فانى أستخدم ريش جناحى كما تعلم فى كتابة ذنوبهم ، وقد تكاثرت على ذنوبهم حتى برت ريش جناحى وأتلفته وأنا كلما تلفت ريشة من كثرة الكتابة نتفت من جناحى ريشة أخرى حتى نفد ريشى ولم تنفد ذنوب الناس »

وختم الكاتب الرسالة بكلمة عن عظم الوجود وغرور الانسان ، ونصيحة من روح الابد يقول فيها للانسان الذى يخاطبه : « اذهب الى مكانك من الارض ولا تنس عظم الوجود فان احساسك بعظمته فيه معانى العبادة كلها » .

***

ونظم شاعر المهجر البرازيلى الاستاذ معلوف ديوان عبقر مقسما الى قصائد يروى فى كل قصيدة منها نبأ عن ولد من أولاد ابليس أو بعض الشياطين ، فيقول مثلا عن الشيطان « داسم » ابليس النقائص :

وجاءنا ثانى ، ابناء عزريل
سحنة شيطان ، فى منكبى غول
وقال فى دهاء ، ويك أنا الكاسى
بالخبث والرياء ، نقائص الناس

***

لما أممت الارض فى زورة

أستعرض النقائص العارية
ألفيتها والناس قد مزقوا
أجسادها فى فتنة دامية
فرحت أكسو بيدى عريها
بحلل براقة زاهية

***

فاندست الكبرياء ، تحت حجاب الحسب
وتحت ستر الاباء ، غلغل وجه الغضب
وانقلب العناد ، بين الورى حزما
وصار الاستبداد ، فى عرفهم عزما
ويقول عن الاعور أبليس الشهوة :
وذاك أعور ، أطل ينظر ، من ظاهر الهوة
وقال انى أنا ، حامى ذمار الخنا ، والعهر والشهوة
شرارتى فى العيون ، حريقة فى الدم
أنا مثير الجنون ، والفم لصق الفم
ما اتكأ العاشقون ، الا على معصمى
كم ذاق خمرى عاشق فالتوى
معربدا فى سكرات الهوى
مهدما بعضه بعضه
وهو على الانقاض يبنى السوى

وختم الديوان بقصيدة عن العبقريين قال فيها عن أهل الخلود من أبناء عبقر :

وثمة استجليت صوتا دوى
ولم أجد لذهولى سوى
جماجم أرواحها غلغلت
تصخب فيها من خلال الكوى

فصاحت العظام ، أعطى الذى أخذ

لم تظفر الأيام ، منا بغير الفلذ
فكن عش الغرام ، وصرن مأوى الجرذ
لكنما أحلامنا لم تزل
ترقص سكرى فوق غلف المقل
حاملة للناس خمر الهوى
مشعة خلف كؤوس الامل

والغالب على ديوان عبقر روح غنائية يسعدها خيال موفق فى كثير من تشخيصاته وما ينطق به لسان الحال من تلك الشخوص المخيلة .

***

وهذه الجوانب المتعددة من صور الشيطان فى الأدب العربى الحديث تتم من جانبها الفنى بقصة «الشهيد» للاستاذ توفيق الحكيم ، لانه أعطى الشيطان دوره المحتوم فى مسرح الكون ، وجعله كما هو فى الواقع دورا لا حيلة فيه له ولا لأصحاب الاديان الذين يلعنونه ويستنكرونه . ولكنه يلجأ اليهم ليتوب على أيديهم فلا يدرون كيف يقبلون توبته ، فان الحبر المسيحى لا يملك أن يتصرف فى عقيدة الخطيئة والخلاص ، والربانى اليهودى لا يملك أن يتصرف فى مكان شعب الله المختار بين الأمم التى أضلها الشيطان على اعتقاده ، والامام المسلم لا يملك أن يتصرف فى التعوذ من الشيطان الرجيم ، ويصيح ابليس يائسا : « وجودى ضرورى لوجود الخير ذاته ... نفسى المعتمة يجب أن تظل هكذا لتعكس نور الله » .. ويبكى ابليس فتتساقط دموعه كالنيازك على رؤوس عباد الله ، فينهاه جبريل عن البكاء ويحيق به اليأس من كل جانب ، فيهبط الى الارض مستسلما « ولكن زفرة مكتومة انطلقت من صدره وهو يخترق الفضاء ... رددت صداها النجوم

والاجرام في عين الوقت كأنها اجتمعت كلها معه لتلفظ تلك الصرخة الدامية : أنا الشهيد . أنا الشهيد »

***

ومن الحق أن نلحق بما تقدم لونا آخر من ألوان الحديث عن الشيطان في الشعر العربي ، لم تثبته مع الصور السابقة لانه من ألوان الرأي، لا من ألوان التخيل والتصوير ، ولكنه لا يهمل كل الاهمال في هذا المطلب لانه رأى يبديه صاحبه في حقيقة الشيطان .

ذلك هو رأى الاديب العراقي الكبير جميل صدقي الزهاوي، ومجمله أن الشيطان هوالانسان الذي يخدع غيره لغاية من غاياته

لا يخدع المرء انسانا لغايته
الا اذا كان ذاك المرء شيطانا

وأما الشياطين والعفاريت فقد حدث الكتاب الكريم في ذكرها وأخطأ المفسرون كما قال في حساب الملكين :

غير أني أرتاب من كل ما قد
عجز العقل عنه والتفكير
لم يكن في الكتاب منخطأ كلا
ولكن قد أخطأ التفسير

***

فهذا المطلب على حداثته في الادب العربي قد أحيط من جوانب متعددة . وهو - ولا شك - لا يساوي نظائره الأوربية في استفاضتها ولكنه يساويها في طبقتها اذا أسقطنا من أدب الغرب ما استعاره من قصة الخليقة وما كان لهذه القصة من القداسة الدينية التي لم يخلقها ابتكار الشعراء والادباء .



في العصر الحاضر

اذا أخذنا باحصاء الكلمات والتعبيرات للحكم على مقدار انتشار الافكار والعقائد ـ جاز لنا أن نقول أن الحضارة العصرية أكثر الحضارات ايمانا بوجود الشيطان وعمله الدائم فى النفس البشرية والبيئات الاجتماعية . فان كلمـة الشيطان والشيطانية والشيطنة من أشيع الكلمات فى كتابة الاوربيين العصريين ، ومنها مايشتق من كلمة الشيطان بنطقها الشرقى ، أو يشتق من الكلمات اليونانية والسكسونية بلفظها القديم ولفظها المتداول فى العصر الحاضر

ولكننا سنرى مسألة الشيطان هذه من أقوى المكذبات لطريقة الاحصاء الآلية : طريقة الحكم على الافكار والعقائد بعدد الكلمات والعبارات . فان كلمة الشيطان كانت علما على «شخصية» الكائن الشرير فأصبحت على ألسنة القوم معنى لغويا لا تؤديه كلمة أخرى فى مولوله . لأنه يؤلف فى كلمة واحدة بين الاعمال الشيطانية بجملتها ، ويفهم منه الكيد والخبث والمهارة والنفاق وحب الأذى وكل معنى يناقض الاستقامة والصلاح ، وأكثر ما تستخدم الكلمة ومشتقاتها فانما تستخدم بمعناها هذا الذى انتقل من ألفاظ الاعلام الى ألفاظ المعانى والصفات

وقد أصبح استخدام هذه الكلمة كاستخدام السيد المسيح لكلمة «مأمون» حين عبر بها عن سيادة المال والجشع ، فقد كانت الكلمة في اللغة السريانية علما على رب يزعمون أنه رب المطامع الدنيوية ، فكان السيد المسيح يقول لتلاميذه انكم لا تستطيعون أن تخدموا سيدين ، ولا تستطيعون أن تنالوا رضى الله ورضى مأمون ، ولم يكن عليه السلام يصدق عقيدة السريان في مأمون ، ولكنه كان يقولها ويعلم أن سامعيه يفهمون عنه ما أراد ، وهو التعبير عن الجشع ومطامع الأشرار

وبهذا المعنى المجازي تشيع كلمة « الشيطنة » فيما يكتبه أبناء الحضارة الاوربية الحاضرة ، وقد يكتبها الملحدون الذين ينكرون وجود الكائنات الغيبية كما يكتبها المتدينون الذين يؤمنون بوجود الشيطان ويختلفون في عمله وفي مدى قدرته ، وكلهم في العصر الحاضر يسمعون باسم الشيطان فلا يتخيلونه على الصورة التي كانت تسبق الى خيال السامع في القرن الرابع عشر وما قبله أو بعده بقليل

وقد ظهر في باريس عند أواخر القرن الرابع عشر كتاب عن وصايا الشيطان التي يقابل بها وصايا الله ، فجمعها في ست وصايا خلاصتها العناية بالنفس دون غيرها ، وألا يعطي المرء شيئا بغير جزاء ، وأن يتناول طعامه منفردا ولا يدعو أحدا اليه ، وأن يقتر على أهله وأن يحتفظ بالفتات من مائدته والاسمال من كسائه وأن يقنطر المال عنده طبقة فوق طبقة ... وهذه رذائل القرن الرابع عشر كما أحصاها بنوه بين الجد والسخرية ، وانها اليوم لفضائل العصر الذي يسمى بعصر التدبير والاقتصاد والأنانية الفردية ، ومن أجلها تسمى الحضارة العصرية بالحضارة الشيطانية !

ومن البديه أن المتحدثين عن الشيطان في حضارة العصر لا يقصدون جميعا هذا المعنى المجازي ولا يقصرونه جميعا على

الصفات دون الاعلام والاسماء . فان أكثرهم متدينون يؤمنون بوجود الشيطان وعقيدة المسيحية فيه ، ولكنهم ـ كما أسلفنا ـ يسمعون باسمه فلا يتخيلونه على الصورة التى كانت تسبق الى خيال السامع قبل بضعة قرون

فهم يذهبون اليوم بصرعى الجنون الى الطبيب ولا يعالجونهم عند الكاهن أو رجل الدين ، وهم يفرقون اليوم بين وساوس نفوسهم ومانيسبونه الى الشيطان من ايحاء وتلقين ، وليس للشيطان عندهم تلك المملكة الواسعة التى كانت له فى القرون الوسطى ، فانها انحسرت شيئا فشيئا حتى كادت تخرج من عالم الطبيعة الى مابعدها ، وكادت دولة الشيطان تؤول الى حالة كالحالة التى حصره فيها الاسلام : قرين سوء ليس له على قرينه سلطان

***

ويؤول الشيطان على هذا فى القرن العشرين الى مصيرين : مصيره فى مجال العقيدة الدينية وهو الى النقصان ، ومصيره فى مجال العبارة المجازية وهو الى الزيادة ، وعلى الناظر فى العبارات والأساليب أن يطيل النظر فى هذا المصير الاخير . أليس فيه الحجة الدامغة لبلاغة الوجدان على بلاغة العقل واللسان ؟ أليست هذه اللفظة الواحدة : لفظة الشيطان بلاغة وجدانية تتقاصر عن مداها فى التعبير كل عبارة تجريها اللغة مجرى الفكر و « اللفظ المركب المفيد »

***

من الذين زادوا فى عدد الشياطين المجازية من كتاب العصر الحاضر تولستوى حكيم الروس الكبير . فقد أضاف الى عددهم شيطان الكبرياء العنصرية وشيطان التعصب الدينى وشيطان الاستعمار وشيطان الحرب والاستبداد

ومن الذين زادوا فى عددهم الى الملايين برتراند رسل فيلسوف الرياضة المعروف ... فان شيطانه الذى أقامه فى الضواحى رجل كان طفلا يتيما تركه أبوه لزوجة سكيرة ، تحبسه فى الدار يهلك جوعا وعريا وتذهب لتسكر وتعربد فى الطريق ، فاذا شكا اليها الطفل اليتيم اذ ترجع الى المنزل آخر الليل ضربته حتى يصيح ثم ضربته حتى يسكت عن الصياح . فكبر فى الدنيا وهو يجهل أباه ويحقد على أمه أولى الناس بعطفه عليها لو استقامت الدنيا على السواء ، وقل ما شئت فيمن يحقد عليهم غير أمه من خلق الله ... فهم كل خلق الله ! وفيهم الملايين من أمثاله الحاقدين على كل مخلوق .

ومن الذين زادوا عددهم الكاتبة الانجليزية المعروفة مارى كوريللى ، والشيطان عندها فى قصة أحزان الشيطان يشبه أن يكون صورة الخير منظورا من قفاه لا من وجهه وسائرا الى الوراء بدلا من مسيره الى الامام

ومن الذين زادوا فى عددهم سليل بيت العلم بين الانجليز الدوس هكسلى كاتب القصة والمقال وأديب العلماء وعالم الادباء ، فانه أخذ « اسيدى » شيطان القرون الأولى فنسخ منه ألوف النسخ بين الآدميين وجعل هذا العصر أحق به من عصور النساك والرهبان الذين رهبوه فى وضح النهار ... اذ كان من بلواه أنه لا يغشاهم مع الظلام بل يطرق عليهم قلوبهم فى وهج الظهيرة ومع شمس الصحراء التى يهرب منها الانس والجان

كان « أسيدى » هذا شيطان الحلم فى اليقظة الذى سلطه ابليس على رهبان الصعيد فى عصور المسيحية الأولى ، وكان من دأبه أن يلهيهم عن العبادة بما يزخرفه لهم من الاحلام والرؤى وهم مفتوحو العيون مستسلمون للسكون فى ظلال الصوامع بين

نيران القيظ في الصحراء . فاذا حلموا كسلوا واذا كسلوا شكوا واذا شكوا آل بهم الشك الى السآمة والملل وكراهة الدنيا والآخرة واليأس من الصحيح والباطل على السواء

وينقله الكاتب من القرون الاولى الى القرن التاسع عشر ثم الى القرن العشرين ، ويقول في تفسير نقلته « اننا لانزعم أن أسيدى من مخترعات القرن التاسع عشر . فان السآمة والخيبة واليأس وجدت قديما ولم تنقطع عن الوجود ، وابتلى الناس بآلامها فيما مضى كما نبتلى بها الآن ... غير أنها فى العصر الحديث قد طرأ عليها مايجعلها موقرة مرعية ولا يجعلها كما كانت خطيئة محظورة أو يجعلها مجرد عرض من أعراض السقم ... وهذا الذى طرأ عليها انما هو التاريخ كله منذ سنة ١٧٨٩ .. انما هو اخفاق الثورة الفرنسية وذلك الاخفاق الذى يربى عليه فى الضجيج والابهة وهو سقوط نابليون . لقد غرس كلاهما (اسيدى) فى قلب كل فتى من الفرنسيين وغير الفرنسيين ، صدق دعوة الحرية وطمح الى أحلام المجد والعبقرية ، ثم جاءت الصناعة الكبرى بما تراكم معها من القذر والبؤس والمال الحرام ، وكان مسخ الطبائع على يد هذه الصناعة حسب القلب الكريم من محنة الحزن والأسى ، واطلع الناس فرأوا أن الحرية الدستورية التى طالما كافحوا من أجلها عبث لايغنى شيئا مع طغيان الآلات واستعبادها للنفوس ، فكان ذلك رعبا آخر من ضروب الرعب التى خيبت الآمال فى القرن العشرين ، وزيد عليها من دواعى السآمة داع أدق وأغلب مما عداه وهو تعاظم المدن وراء كل مقدار معقول . فتعود الناس المقام بها وأحسوا فى البعد عنها تفاهة لاتطاق ، وأطبقت البلوى عليهم فأحسوا من ضوضاء المدينة حنينا الى سآمة الريف ... وكأنما كانت هذه المضجرات فى انتظار تاج يعلوها فتوجتها الحرب العالمية الاولى ...»

***

ويعنى بالكتابة عن شيطان العقيدة الدينية أناس من طبقة هؤلاء الكتاب الذين اتخذوا من اسم الشيطان تعبيرا مجازيا عن مساوىء العصر وشروره وأدناسه ، وربما كتب المؤلف الواحد عن هـــذا الشيطان وذاك الشيطان كما فعل هكسلى فيما المنا به من كتاباته آنفا وفى كتابه الذى ألفه عن شياطين لودن The Devils of Loudun ... ومن قرأ هذا الكتاب علم أن هكسلى قد أراد أن يكشف عن خبيئة من السوء فى هذا الانسان الذى يلعن الشيطان لم يهبط الى مادونها أخبث الشياطين .

فالقصة التى حققها الكاتب من مراجعها التاريخية احدى المبكيات المضحكات من مآسى التاريخ التى حفلت بها صفحاته فى القرون الوسطى ، وكان فيها مظلومان مكذوب عليهمـا كذبا لايخفى على أحد فى الزمن الحديث ، وهمـا الشيطان ورجل من رجال الدين مغضوب عليه

وقد بدأت القصة باصابة بعض الراهبات فى بلدة لودن بالصرع واتهامهن بالتجديف والبذاء والتفوه فى نوبات المرض بكلام يخجلن منه كلما أعيد عليهن بشىء من التلميح وهن مفيقات ، ولو حدثت هذه الاصابة فى العصر الحاضر لاستطاع رجل الدين كما يستطيع رجل الدنيا أن يفهم أنهن مصابات « بالهستيريا » أو بالفصام الذى تنقسم فيه شخصية المريض ، ولكن الرئيس الذى تولى البحث فى أمرهن لم يستطع أن يفهم من بذائهن فى خلال النوبة وخجلهن بعد الافاقة منها الا أن المتكلم بالبـــذاء أحد غيرهن يهمه أن يعبث ببراءة الراهبات انتقاما من الله وعابداته وعابديه ، ومن يكون هذا المنتقم القادر على صرع فرائسه غير الشيطان

وسنحت الفرصـــة لاتهام الرجل المظلوم مع الشـــيطان وهو الاسقف « جرانديه » عدو الكردينال ريشليه ذى الحول والطول

فى بلاط باريس ، فاتهم بالفسوق وتسليط الشيطان على الراهبات للتغرير بهن ، وصدقت احداهن أنها فريسة الشيطان باغراء الأسقف الساحر ، فرمته بالتهمة كما أوحى اليها ، وقرر المحققون أنهم سمعوا اعتراف الشيطان وهو يتكلم بلسان تلك الفريسة ، فتقررت ادانة الاسقف بشهادة الشيطان ! وحكم عليه بالاحراق وهو بقيد الحياة

ولما قيل لهم أن الشيطان أبو الاكاذيب لم يعسر عليهم أن يبطلوا هذه الشبهة باضطرار الشيطان الى الصدق بين يدى أصحاب العزيمة والبرهان من المحققين الصالحين

وتمشى السخرية مع الفجيعة جنبا الى جنب فى هذه المهزلة الشيطانية ، فيحدث فى بعض محاضر التحقيق أن يقول الشيطان أن السيد لوبردمان رئيس لجنة التحقيق ديوث تخونه امرأته مع الاسقف وغيره ، ويكون لوبردمان غائبا عن الجلسة ولا يلتفت الى قراءته عند توقيعه فيضع عليه اسمه بعد السطر المعهود الذى يقرر فيه اعتماد الصدق فى كل ماجاء فيه ، ويضحك ولاة الامر ملء أفواههم ساعة يعرض المحضر عليهم ، ولكن رئيس اللجنة يعود الى التحقيق لتسخير ذلك الشيطان نفسه فى تملق الكاردينال ، ويفتتح المحضر المحفوظ بتاريخه (٢٠ مايو سنة ١٦٣٤) سائلا : ماقولك فى الكاردينال العظيم حامى الديار الفرنسية ؟ فيجيبه الشيطان مقسما باسم الله : انه سوط عذاب على أصدقائى أجمعين .. ويعود الرئيس سائلا : ومن هم أصدقاؤك ؟ فيقول له الشيطان : انهم زمرة الهراطقة .. ويسأله الرئيس : وما هى مآثره الاخرى ؟ فيجيبه الشيطان أنها هى انقاذه للشعب وقدرته على الحكم هبة من الله وحرصه على سلام المسيحية وولاؤه للملك لويس ...

وبعد العناء المضنى فى جمع هذه الاوراق والمضاهاة بين التحقيقات يخرج الكاتب منها الى سحرة العصر الحاضر الذين يسخرون أعنف

شياطينه وهو شيطان الجماعة المستفزة الى الشر والعدوان باسم المذاهب أو الاوطان ، فما تصنعه النازية حين تثور على أعداء الجنس الآرى المطهر ، وما تصنعه الفاشية حين تثور على أعداء المجد الرومانى العريق ، وماتصنعه الشيوعية حين تثور على أصحاب الاموال الاوغاد ـ كل أولئك ثورة لاتتورع عن اتهام الابرياء واحراق الاحياء ، والهبوط الى الهاوية فى أهبة الصعود الى السماء

***

ومن المفكرين الذين لهم خطر فى كل بحث يدور على العقيدة والتفكير العصرى كاتبان عالميان هما الدكتور لويس صاحب كتاب المعجزات وكتاب مسألة الشر وكتاب ما وراء الشخصية وغيرها من الكتب فى موضوعات الفلسفة الدينية ، ويعتبرونه فيلسوف المذهب البروتستانتى فى العصر الحاضر ، والكاتب الآخر جيوفانى بابينى صاحب كتاب حياة المسيح وأديب المذهب الكاثوليكى المرضى عنه بين المجددين وبين فريق غير صغير من المحافظين ----

ألف الدكتور لويس رسائل الشيطان وجعلها على لسان أستاذ من الشياطين يعلم تلميذه أساليب الفتنة والدسيسة واقصاء بنى آدم عن حظيرة الرضوان ، ومعظم هذه الأساليب نفسية يرى العلماء النفسانيون مع المؤلف أنها بواعث شر وجهل فى الطبيعة الانسانية ، ويرى العلماء الدينيون معه أنها مداخل الشيطان الى سريرة الانسان فيقول الشيطان الاستاذ ـ مثلا ـ لتلميذه أنه خليق أن يتنبه الى خطأ جسيم يقع فيه ناشئة الشياطين وهو اعتقادهم أن السرور حبالة الشيطان • اذ الحقيقة أن الانسان باق فى الحظيرة الالهية مابقى فى نفسه موضع للسرور ، وعلى الشيطان أن يفرق بين السرور على أنواعه وبين السرور المصطنع الذى يلحق باللغو والتهريج ، وينبه الاستاذ تلميذه الى الاقلال من العناية بأغواء المتدينين الذين تساورهم الشكوك من جراء الحروب والنكبات فان المتدين الذى لاتصمد

عقيدته لهذه الشدائد غنى عن الاغواء ولا حاجة بالشيطان الى فرط العناية باغوائه ، وعلى الشيطان التلميذ ألا ييأس من أصحاب الفضائل الذين يعلمون بفضائلهم ويفخرون بها مع أنفسهم ومع غيرهم ، فانها فضائل على مقربة من الرذائل الشيطانية قد تعمل عمل الرذيلة وهى فى عنفوانها ، وليس من عمل الشيطان أن ينشر الالحاد لان الذى ينكر وجود الله ينكر وجود الشيطان ، وانما عمله أن يصرف المؤمن بالله عن الامل والعبادة ورؤية المحاسن والمعجزات فى خلائقه ومقاديره ، وأقوى الحبائل فى رأى الاستاذ الشيطان أن ينفصل الانسان من حاضره ويقبل على المستقبل بجملته فان المقبل على المستقبل منقطع عن الحاضر والماضى متعلق بالاباطيل ودواعى القنوط والكراهية ، وعلى الشيطان الناشىء أن يذكر أن الكراهية هى المهمة فى المذاهب «المستقبلية» دون عناوينها ودعاويها فلا فرق بين الشيوعية والفاشية والاباحية على اختلافها مابقيت نفس الانسان خلوا من الحب مفعمة بالنقمة والبغضاء ، وآفة الآفات الكبر على الدوام أن يصبح الكون فى نظر الانسان صفرا من العجائب وشتيتا متشابها من المألوفات والمتكررات

ولولا ضيق نظر يساور عقل المؤلف أحيانا كلما نظر الى عقيدة غير عقيدته لكان تفكيره فى هذه الامور مطابقا لتفكير المتدين فى كل دين

***

والكاتب الكاثوليكى جيوفانى بابينى يؤلف الكتاب عن الشيطان ويريد أن يطبق فضيلة السماحة على هذا العدو المبين فى جملة الاعداء الذين تشملهم رحمة الله ، ويرى أن الله لايرضيه دوام الشر ولا دوام السقوط على كائن من الكائنات العاقلة ، فلا بد فى نهاية التجربة الكونية من حياة لا شر فيها ولا شيطان .. وزوال الشيطان انما يكون بزوال شره وارتداده عنه الى الخير والصلاح

ورأيه هذا مخالف لآراء الاكثرين من أقطاب المذهب ، ولكنه لم يبلغ من المخالفة أن يعرضه للطرد والحرمان ، فان آراءه الاخرى فى الكتاب تحسب له اذا حسب هذا الرأى عليه ، وفيها شرح للعقائد الدينية وتقبيح للمنازع الشيطانية يحمده له المتقدون ويقنجون به من الكاتب فى زمن يقل فيه أمثاله من الكتاب العاملين الذين يعلنون عقائدهم فى غير مبالاة بسخرية المنكرين والملحدين

***

تلك زبدة مفيدة لما يسمى (بالدمنولوجى Demonology) أو مباحث الباحثين عن الشيطان فى العقيدة الدينية وفى التعبيرات المجازية فى القرن العشرين

فالمتدينون يؤمنون بوجود الشخصية الشيطانية فعلا ويحصرونها فى أضيق حدودها ولا يبوئونها من السلطان على النفس البشرية تلك المنزلةالتى كانت لها فى عقائد الاولين الى مابعد القرونالوسطى

والمعبرون المجازيون فريقان : فريق يلغى الشخصية الشيطانية بتة ويحل محلها عوامل الوعى الباطن التى يسميها الغريزة أوالكبت أو العقد النفسية أو علل الشخصية السقيمة وما شاكل هذهالاسماء .. وهذا الفريق مسبوق الى رأيه فى جملته دون تفصيله ، فقد ذهبت هذا المذهب فئة من المعتزلة ترى أن الشيطان هو وساوس النفس ودوافع الشهوة والطمع والغضب والخديعة ، وتستند فى رأيها الى قول النبى عليه السلام أن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق ، وليس هذا التأويل عند جمهرة المحدثين بالتأويل المقبول

والفريق الآخر على رأى هكسلى الذى تقدم ذكره ، وهو أن العقل والعلم لايمنعان وجود الشيطان كما جاء فى الفصل السابع من كتابه عن شياطين لودن حيث يقول : « هل توجد

الشـياطين ؟ وان كانت توجـد فهل كانت حاضرة في جسد الأخت جـين وزميلاتها الراهبات ؟ فأما المس الشـيطـاني فلست أرى في القول به سخفا أصـيلا ولا أجد شيئا من التناقض في فكرة ترى امكان وجود الارواح غير الانسانية طيبها وخبيثها أو لا طيبة ولا خبث فيها ، وليس ثمة مايضطرنا الى القول بأن الملكة الفاهمـة ممتنعة فيما عدا أجسـام الانسان والحيوان ، واذا قبلنا الشـواهد على الكشف والنظر البعيد ـ وهي شـواهد يكاد القول برفضها أن يتعذر علينا ـ فلا بد من الايمان بعوامل مفكرة مستقلة على الاغلب الاعم عن المكان والزمان والمادة .. »

وهذه هي زبدة « الدمنولوجي » في صفحتها الأخيرة من آراء المتدينين والمفكرين في القرن العشرين



خاتمة

تمت فى هذه الصفحات رسالة موجزة فى موضوع من موضوعات المقارنة بين الأديان والعقائد يدور حول تصوير « قوة الشر » من عهد القبائل البدائية الى منتصف القرن العشرين

والمقارنة بين الاديان والعقائد علم حديث من علوم القرن التاسع عشر ، بدأ البحث فيه قبيل ختامه وانتصف القرن العشرون ولا تزال الكشوف الاخيرة فيه تتوالى وينسخ بعضها بعضا أو يشير بانتظار النهاية بعد خطوات لم تبرح أوائل الطريق ، وكلما تعجل الباحث الفراغ من دور الجمع والتبويب والنتائج المعلقة على البقية المنتظرة بادرته الكشوف الحديثة بما ينقض حكمه أو يضطره الى تعديله على ترقب وتؤدة واستعداد

ونحن نختم هذه الرسالة ، والاجزاء الاخيرة من موسوعة أرنولد توينبى Arnold Toynbee تصدرها المطبعة من المجلد السابع الى المجلد العاشر ، وفى نهاية الجزء السابع منها تعقيب على الظاهرة الغامضة التى كشفت عن التشابه القريب بين عقائد القبائل البدائية فى القارات الخمس وانقسام المفسرين لهذه الظاهرة الى فريقين : فريق يرى أن الانسان تلقى الهاما بالوحدانية قبل التاريخ

وقبل افتراق الاجناس والقارات ، وفريق يرى أن الطبيعة الانسانية تتقارب فى وحى البـديهة وتستلهم شـعورا واحدا بما وراء المادة المشهودة ، وسيمضى زمن طويل قبل أن تتحد النتائج بين الفريقين ، لان الأرض واسعة والقبائل البدائية مبعثرة على أرجائها ، ومسائل العقيدة عندها من أسرارها التى تخفيها ، وما تجلوه منها اضطرارا أو اختيارا يتيه فيه الباحثون بين غرابة اللغة وغرابة الرموز

فمن الغرارة البالغة أن يقول قائل عن موضوع من موضوعات المقارنة بين الاديان أنه شىء عتيق مضى أوانه ، على حين اتفاق الاقوال بين علماء المقارنة وقرائها على ابتـدائها فى خطواتها الاولى وانتهائها فيما انتهت اليه الى نتائج معلقة بين الترجيح والتردد والانتظار

ولا نخال أن السريرة الانسـانية تكشف عن أعماقها بعلم من العلوم كهذا العلم وعلم الدراسات النفسية ، وهو كذلك فى خطواته الاولى أو على أبواب النتائج التى لاتفتح الا بين التردد والانتظار

لكن الفـائدة المبكرة التى خلصت للعقل الانسـانى من بواكير البحث فى العلمين أن مقاييس الحقائق تختلف وتتعدد ، وان الحقائق كلها لاتقاس بأرقام الحســاب وأنابيق المعامل وتجارب الطبيعيين ومناظير الفلكيين

فهاهنا حشد من العقائد والأخيلة تمتلىء به سيرة النوع الانسانى فى نحو مائة قرن يدركها التاريخ

ماهى فى أرقام الحساب أو أنابيق المعامل أو تجارب الطبيعة أو مناظير الفلكيين ؟

سهل على أدعياء العلم أن يصرفوها بكلمتين : حديث خرافة !

وحديث الخرافة يجب أن يلغى ، فتعالوا نلغه ونعهد بادعياء العلم جميعا أن يبدأوا بالنوع الانسـانى فى تعلم الخير والشر والقداسـة واللعنة على برنامج غير هذا البرنامج وتربية غير هذه التربية

وليتسلم أدعيـاء العلم هـذا النوع الانسـانى قبل مائة قرن ، وليأخذوا فى تعليمه الابجدية من هذه الدروس

ولنفرض أولا فرضـا مسـتحيلا وهو أنهم سيكونون قبل مائة قرن على معرفة بما يسـمونه اليوم خرافة وما يسـمونه تحقيقا وما يسمونه دراسة منطقية أو علمية

وليبدأ النوع الانسانى فى هذه المدرسة بفلسفات الأخلاق على مذاهبها وفروضها واحتمالاتها وردودها ومناقشاتها

وليحفظ فلسفات الاكاديمية كلها ويتخرج عليها

ولقد حفظها ولقد تخرج منها بما شاء له أدعياء العلم من آراء

ولقد وصلنا بعد الرحلة الطويلة الى القرن العشرين فماذا نقول ؟

نقول ان هذا فى الحق هو حديث الخرافة الذى لايعدو الالفاظ والعناوين وأسماء المدارس والمريدين

لكن النوع الانسانى ترك هذه الأكاديمية قبل مائة قرن وأمعن فى طريقه الذى هداه اليه القدر وأعدته له الفطرة

ونتيجة هذا الطريق أنه أعطى الحياة النابضـة لكل خلق من أخلاق الخير والشر والقداسـة واللعنـة ، وأن أعلم العلماء اليوم لايسـتطيع أن يقيم من الفوارق الحية المحسوسة بين خلق وخلق فارقا واحدا كالفارق الذى نفهمه ونحسـه ونحياه حين نتكلم عن الخلائق الالهية والخلائق الملكية والخلائق الشيطانية أو عما يجملها من الخلائق السماوية والخلائق الارضية والخلائق الجهنمية ....

ان العلماء الذين يستعيرون تعبيراتهم المجازية من هذه الفوارق لا يفعلون ذلك لعبا بالالفاظ أو تظرفا بالتمثيل والتشبيه ، ولكنهم يستعيرون ذلك التعبير لأنه أدل وأوضح وأقوى من كل تعبـير يستعيرونه من المدرسة النفسية والمدرسة السلوكية والمدرسـة الانفعالية ومدارس روح الجماعة وتضامن الهيئات والبيئات ، وما اليها من ألفاظ ناصلة ومعان حائلة وأسماء لم تخلق من مسمياتها

شيئا وهيهات أن تخلقه ولو تسمت بها مئات القرون .. وغاية ماتبلغه أنها تأتى الى محصــول القرون بعد زرعه ونمائه واستوائه وحصده ، فتكتب العناوين على غلاته وبيادره ولا تأمن بعد ذلك أن تضل بين تلك العناوين التى كتبتها بيديها !

فهذه الحقائق الوجدانية والقيم الروحية لاتقاس بمقياس الارقام وآنابيق المعـامل ، ومن أراد أن يقيسها بهـذا المقيـاس فهو الذى سيخطىء لا محالة ، كما يخطىء كل واضـع لامر من الأمور فى غير موضعه ، وكل من يقيس شيئا وهو يجهل كيف يقاس

على أننا قد نفقه تعدد المقاييس وتعدد القيم دون أن نضطر الى التوسع فى هذا الموضوع الشاسع العسير ،موضوع المقارنة بين الاديان

فالغريزة فى كل رجل وامرأة وفى كل ذكر وأنثى من الحيوان تسفه كل من يعتسف طرق البحث ويسبر أغوار الطباع بغير مسبارها

وهذا حنان الآباء والامهـــات لغو وباطل بكل شـــهادة من شهادات الحس والعقل وتجارب المعامل وأرقام الحساب ، لان حنان الآباء والامهات يقول لهم أن طفلهم دون غيره يســاوى كل من عداه من أطفال الاحياء ويفوقهم فى حق البقــاء ويجب أن يزولوا جميعا اذا وجب أن يزولوا من الدنيا أو يزول هو منها

وليضرب صاحب القياس الحسابى على هذا الحنان بالخط الاحمر ليخرجه من حيز الحقائق ، ولينظر بعد ذلك أين الحق وأين الباطل بين الرأى فى رأسه وبين الحنان فى صـدر كل والد ووالدة ، من الانسان والحيوان

أصواب هذا الحنان أو خطأ ؟

أحق ذلك الدين أو باطل ؟

انما الخطأ أو الباطل هو الذى نسقطه ونلغيه ، فهاهنا خطأ واحد

وباطل واحد ، وهما الخطأ والباطل في مقيـــاس صاحب الحساب وصاحب الانبيق

***

وندع الغرائز المحجبـة ونقترب من المحســوسات الواضـحة المفتوحة للسـمع والبصر ، فنفرض أن مخلوقا يرى الأشـياء كما تكون في جو الاثير على بعد من الارض والجـاذبية الأرضية ، وتتحـدث أمامه عن اللون الاحمر واللون الاخضر وعن العنـاصر الثقيلة والعناصر الخفيفة وعن المقاطع والكلمات والاصداء والنغمات ، فمـاذا عليه لو صـــاح بنا : على رسلكم ياهؤلاء اللاغطين .. ان ماتهذرون به لحديث خرافة وأضغاث أحلام

انه لايكون قد خرج بذلك على سـنة العلم وأدعيائه ، واننا مع هذا لم نبتعد من المحسوسات التي يحيط بها العيان وتسمعها الآذان فاذا كانت الطبيعة الانسانية لاتدرك هـذه المحسوسات الا بهـذه الالوان والاشـكال فكيف نطلب من الاديان أن تخـاطب الطبيعة الانسانية بأسلوب غير أسلوبها وهي تتحدث عن الغيوب الخفية وعما وراء المادة ووراء الزمان والمكان

***

من رام أن يعيب القيم الوجدانية التي دان بها الانسان منذ جهالته الأولى فهو ــ لاريب ــ واجد فيها كثيرا مما يعاب ويفرط في المعابة ، لكن السؤال الفصل هنا لايكون : هل تعاب القيم الوجدانية أو لاتعاب ؟ بل يكون : هل توجد هذه القيم الوجدانية لانسان ناقص ينمو ويكبر ، أو توجد لانسان كامل معصوم من نشأته الاولى ؟ .. ان عقيدة تصلحها عقيدة بعدها لكالمعرفة تصلحها معرفة تليها وتقوم عليها ، لا هذه تسقط العلم ولا تلك

***

اننا فرضنا في مستهل هذه الخاتمة أن أدعياء العلم تسلموا النوع

الانسانى منذ مائة قرن ليرشدوه الى طريق غير الطريق الذى اتبعه فى التمييز بين الخير والشر والقداسة واللعنة ، فلندع هذا الفرض البعيد ولنستغن عنه بما بين أيدينا من « الديانات العلميـــة » التى ارتضاها « الانبياء العلميون » فى القرنين الاخيرين بعد اختبار العقائد والمذاهب والفراغ من أوهام الخرافات والاساطير ، ولننظر فى الديانة التى سموها الديانة المادية الاقتصادية وقرروا فيها أن احتكار الفلوس هو الذى يخلق الأديان والافكار ويقوم القيم ويرفع الطبقات ، وأنه اذا جاء الوقت الذى ينقضى فيه احتكار الفلوس زالت الطبقات وخلا المجتمع من السادة أبدا سرمدا بغير انتهاء

ولم يمض على قيام هذه الديانة جيل واحد حتى سمعنا علما من أعلامها يأسف ويأسى ثم ينعى على زملائه أنهم يختارون لادارة المعامل وتنظيم الحكومة أذنابا من المقربين اليهم ويقصون عنها ذوى الكفاية والغناء فى العلم والعمل والسابقة المذهبية .. ويبقى فى نفوسهم بعد الغاء الاحتكار باعث يرفع ويضع بغير مقدار الا أن يكون مقدار الاثرة والايثار

وهؤلاء المتدينون « العلميون » هم الذين يصدقون مع هذا أنهم حكموا على المستقبل ورسموا للنوع الانسانى طريقه فى نظام المجتمع وبواعث الأخلاق أبد الآبدين ودهر الداهرين ألوفا من السنين ، لا بل ملايين من القرون بعد ملايين

وكل ماصدقه عجائز الخرافة من عهد الكهوف الى اليوم يطير هباء أمام هذه الخرافة التى استقر عليها أدعياء العلم والنبوءات العلمية .. وكفى بهذه المقارنة تعجيزا لمن يتطاول به الغرور فيخال أنه يصحح العقائد بمقاييسه ومقاييس علمه المزعوم

***

وسيبقى أناس يتعوذون من ابليس يوم يضحكون من خرافة

«المادية الاقتصادية» كيف كانت وكيف جازت على العقول ، ونحن نقول فى أول هذه الرسالة أن ظهور ابليس فى عقائد الناس كان علامة خير لانه علامة التمييز بين الشر ونقيضه ، فنقول فى ختامها ان بقاءه بعد المادية الاقتصادية علامة خير أخرى ، لان الكون الذى يبقى فيه ابليس ملعونا أشرف من الكون الذى لايميز بين القداسة واللعنة ولا يعرف شيئا يلعنه ، اذ كان لايؤمن باله غير الفلوس ، وساء ذلك من اله ، وتعالى الله عما يشركون

عباس محمود العقاد

فهرس الكتاب



يصـــدر عن دار أخبـــار اليوم

« التحليـــــل العـــــلمى والصحفى للأحداث اليوميـــــة »

يطلب من المركز الرئيسى والفروع الآتية :

القاهرة : مكتب توزيع الاخبار ـ شارع الصحافة ت : ٧٧٧٧٧

اسكندرية : مكتب توزيع الاخبار ـ شارع النبى دانيال ت : ٣٠٠٠٠

طنطـــا : مكتب توزيع الاخبار ـ ميدان السـاعة ت : ٢٤٨٢

ثمن النسخة عشرة قروش عدا رسوم البريد

صـــــدر حتى الآن

عام ١٩٥١

١ ـ قصة ملك • مذكرات دوق وندسور
٢ ـ ثلاث قصص • محمد التـابعى
٣ ـ ايران فوق بركان • محمد حسنين هيكل
٤ ـ نفوس عارية • ابراهيم المصـرى
٥ ـ عمالقـة واقزام • مصطفى أمين
٦ ـ الحيـاة قصص • يوسف جوهر
٧ ـ راقصات مصر • جليل البنـدارى
٨ ـ الهاربون من الماضى • محمود كامل

عام ١٩٥٢

٩ ـ الرجـال اسرار • حسن الشريف
١٠ ـ مدرسة الحب والزواج • ابراهيم المصرى
١١ ـ هـكذا تحـكم مصر • على أمين
١٢ من يوميات الجبرتى • ابراهيم جلال
١٣ ـ أسرار الجاسيوسية • اللواء شوقى عبد الرحمن
١٤ ـ محمـــد • توفيـق الحـكيم
١٥ ـ ١١ يوليو • عباس محمود العقاد
١٦ ـ المسـاكين • صـوفى عبـد الله
١٧ ـ المرأة الجـديدة • توفيـق الحـكيم

عام ١٩٥٣

١٨ ـ عبقرية المسيح • عباس محمود العقاد
١٩ ـ فن الحب والحياة • سلامة موسى
٢٠ ـ قصص من القرآن • ابراهيم جلال
٢١ ـ أبو الانبياء • عباس [illegible]

عام ١٩٥٤

٢٢ ـ ليالى فاروق ج ١ • مصطفى أمين
٢٣ ـ ليالى فاروق ج ٢ • مصطفى أمين
٢٤ ـ دروس للحب والزواج • ابراهيم المصرى
٢٥ ـ أفـكار للبيـــع • على أمين
٢٦ ـ الفـاشوش فى حـكم قـراقوش عبد اللطيف حمزة
٢٧ ـ حـكايات صحفية • [illegible]
٢٨ ـ ابن بطوطة الثانى • [illegible]
٢٩ ـ عمرو بن العاص • عبا[illegible]
٣٠ ـ سعد زغلول • محمد ابر[illegible]

مطابع أخبار اليوم